عدالة الآنسة بيم

جوزفين تاي



ترجمة سارة فاروق

عدالة الآنسة بيم

تأليف
جوزفين تاي

ترجمة
سارة فاروق

مراجعة
هاني فتحي سليمان



عدالة الآنسة بيم

جوزفين تاي

Miss Pym Disposes

Josephine Tey

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٢٢ ٦

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٤٦.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

المحتويات

الفصل الأول

دقَّ الجرس. كان صوته صاخبًا ومُلحًّا ومستفزًّا.

عمَّ ضجيجُه الطرقات الهادئة، مُكدِّرًا سكون الصباح. انبعثت ضوضاؤه من جميع النوافذ المفتوحة على مِصراعيها للأبنية المحيطة بالفناء الرباعيِّ الشكل، حتى بلغت الحديقة الهادئة التي أضاءتها أشعة الشمس، حيث كانت الحشائش التي لا تزال رماديةَ اللون من تأثير النَّدى.

تقلَّبت الآنسة بيم الصغيرة الحجم في فراشها، وفتحت إحدى عينيها الرَّماديتين، ومدَّت يدها تتحسَّس ساعتها. لم تجدها. فتحت عينها الأخرى. لم يكن هناك طاولة بجانب الفراش على ما يبدو. لا توجد بالتأكيد؛ والآن تذكَّرت. لا توجد أصلًا طاولة بجانب الفراش؛ تمامًا كما اكتشفت الليلة الماضية. فكان عليها وضع ساعتها تحت وسادتها. تحسَّست الساعة تحت الوسادة. يا إلهي! ما هذا الضجيج الذي يُحدثه الجرس! إنه مزعج. يبدو أنه لا توجد ساعة تحت الوسادة. لكنها بالتأكيد تحتها! رفعت الوسادةَ كلها، فلم تجد سوى منديل صغير من القماش الخفيف يحمل اللونين الأزرق والأبيض الزاهِيَين. أسقطت الوسادة من يدها ونظرت إلى الأسفل في الفراغ بين الفراش والحائط. نعم، يوجد شيء يشبه الساعة. استلقت على بطنها وأدخلت يدها فتمكَّنت من الوصول إلى الساعة. أخذتها بحرص، ممسكةً بها برِفق بين إصبعَيها الأولى والثانية. لو أسقطتها الآن لاضطُرت إلى النهوض من الفراش والزحف تحته للوصول إليها من جديد. استلقت على ظهرها وتنفَّست الصُّعَداء وهي تضع الساعة فوقها بانتصار.

تشير الساعة إلى الخامسة والنصف صباحًا.

الخامسة والنصف!

حبست الآنسة بيم أنفاسها محملقةً وهي في حالة من عدم التصديق. هل حقًّا توجد مدرسة، مهما بلغ نشاط طلابها وصحتهم، يبدأ فيها اليوم الدراسي في الخامسة والنصف صباحًا! بالطبع كان كل شيء ممكنًا في مجتمع لا توضَع فيه الطاولات والمصابيح بجانب الفراش، ولكنَّ بدءَ اليوم الدراسي في الخامسة والنصف شيء آخر! وضعت الآنسة بيم الساعةَ على أُذنها الوردية الصغيرة. وكانت الساعة تعمل بانتظام. فأدارت رأسها وهي لا تزال على وسادتها، وألقت نظرةً على الحديقة التي تظهر من النافذة الموجودة خلف فراشها. صحيح؛ إن الوقت مبكر بالفعل، بدا كل شيءٍ ساكنًا وهادئًا للغاية، كما لو أنه لم يكن حقيقيًّا بعدُ؛ لأن الوقت كان مبكرًا جدًّا في الصباح. عظيم، عظيم!

قالت لها هنرييتا الليلة الماضية، وهي تقف بشموخ وعظمة عند مدخل الباب: «يمكنكِ أخذُ قسط وافر من النوم. لقد استمتعت الطالباتُ بمحاضرتك يا عزيزتي. أراكِ في الصباح»؛ ولكنها وجدت أنه من غير المناسب أن تذكر جرس الخامسة والنصف صباحًا.

أوه، حسنًا. لم يكن من بين مهامِّها أن تستيقظ في الخامسة والنصف، حمدًا لله. في يوم من الأيام، عاشت هي أيضًا حياةً تحكمها الأجراس، ولكن كان هذا منذ وقت طويل. تحديدًا، منذ نحو ٢٠ عامًا. أما الآن، فلا تسمع الآنسة بيم صوتَ الجرس إلا عندما تضغط على زرِّ جرس الباب بإصبعها المطلية بعناية. بينما أخذ صوت الجرس يتلاشى شيئًا فشيئًا حتى توقَّف تمامًا، استدارت بجسدها لتواجه الحائط، واضعةً رأسها بارتياح على وسادتها. لم يكن من بين مهامِّها أن تستيقظ في الخامسة والنصف. فالنَّدى الذي كان يعلو الحشائش وكل هذا هو للشباب؛ الشباب المتألق المشرق، ويمكنهم الاستمتاع به. أما هي، فستنام ساعتَين إضافيتَين.

كانت ملامحها طفوليةً جدًّا، بوجهها الوردي المستدير، وأنفها الدقيق، وشعرها البُنِّي المتموِّج والمثبَّت على كامل رأسها بدبابيسَ غير ظاهرة. لقد كلفتها هذه التموُّجات صراعًا داخليًّا الليلةَ الماضية. فقد كانت تعاني إرهاقًا شديدًا بعد رحلتها بالقطار ومقابلة هنرييتا مجددًا وإلقاء المحاضرة، وقد حدَّثتها نفسها الضعيفة أنها ستغادر على الأرجح في اليوم التالي بعد الغَداء، وأن شعرها قد صُفِّف على شكل تموجات باستخدام علاج كيميائي قبل شهرين فقط، وأنه لا مشكلة إطلاقًا في عدم وضع دبابيس في شعرها لليلةٍ واحدة. ولكن كي تتحدى نفسها الضعيفة التي شنَّت عليها حربًا دائمة ومريرة من جهة، ومن أجل أن تظهر بمظهر جيد أمام هنرييتا من جهة أخرى، وضعت ١٤ دبوسًا في شعرها خلال فترة الليل. كانت تتذكر قوةَ إرادتها في ذلك الوقت (ساعدها هذا في التخلُّص من وَخْز الضمير

لأنها أطاعت هواها بالبقاء في الفراش هذا الصباح) وتتعجَّب من استمرار رغبتها في إبهار هنريبتا طوال هذه السنوات. فأثناء سنوات الدراسة في المدرسة، عندما كانت فتاة صغيرة وخجولًا في الصف الرابع، أُعجبت أيَّما إعجاب بهنريبتا التي كانت في الصف السادس. كانت هنريبتا رائدة الطالبات، وقد كانت قائدة بالفطرة. كانت موهبتها تكمُن في مساعدة الغير على اكتشاف مواهبهم واستثمارها. ولهذا، مع أنها تركت المدرسة للتدرُّب على العمل الإداري، تعمل الآن مديرةً لإحدى كليات التربية البدنية؛ وهو مجالٌ لا تعرف هنريبتا عنه شيئًا. لقد مُحيت لوسي بيم من ذاكرتها، تمامًا كما مُحيت هي من ذاكرة لوسي، حتى كتبت الآنسة بيم كتاب «خواطر في علم النفس».

نعم، ذاك هو الاسم الذي أطلقته لوسي على كتابها. «خواطر في علم النفس».

كان هذا الكتاب لا يزال يمثل مفاجأةً لها بدرجةٍ ما أو بأخرى. فقد كانت مهمتها في الحياة هي تعليم الفتيات في المدرسة التحدُّثَ بالفرنسية. ولكن بعد انقضاء أربعة أعوام من التدريس، رحل مَن كان على قيد الحياة من أبويها، فورثت دخلًا سنويًّا يُقدر بنحو ٢٥٠ جنيهًا؛ لذا جفَّفت لوسي دموعها بيدٍ وقدَّمت استقالتها من المدرسة بالأخرى. وقد أشارت إليها مديرة المدرسة، بأسلوب يغلب عليه الغيرة والفظاظة، أن الاستثمار أمرٌ متقلب، وأن مبلغ ٢٥٠ جنيهًا غير كافٍ ليكفل لواحدة في مكانة لوسي حياةً راقية. لكن لوسي استقالت كما قررت، وانتقلت إلى شقة راقية جدًّا بعيدة بما يكفي عن كامدن تاون؛ لتبقى بالقرب من ريجينتس بارك. ولتوفير مبلغٍ مالي إضافي، عملت لوسي في تدريس اللغة الفرنسية بين الحين والآخر، لتغطية تكاليف فواتير الغاز الواجبة السداد، وقضت أوقاتَ فراغها تقرأ كُتبًا متخصصة في علم النفس.

قرأت لوسي الكتاب الأول في علم النفس بدافع الفضول؛ إذ بدا لها علم النفس علمًا شائقًا؛ وقرأت بقيةَ الكتب لترى ما إذا كانت بقية الكتب على الدرجة نفسها من الحماقة. وبعد أن قرأت ٣٧ كتابًا في هذا المجال، تشكَّلت لديها أفكارها الخاصة عن علم النفس؛ وقد كانت هذه الأفكار متعارضةً بالطبع مع فحوى الكتب السبعة والثلاثين التي قرأتها حتى الساعة. في الواقع، لقد بدت لها الكتب السبعة والثلاثون في غاية الحماقة، وأثارت هذه الكتب غيظَها لدرجة أنها جلست على الفور وكتبت كميات كبيرة من الحُجج والأدلة التي تدحض الأفكار المُقدمة في هذه الكتب. ولأن أحدًا لا يكتب في مجال علم النفس إلا باستخدام اللغة المتخصصة في هذا المجال؛ إذ لا يوجد الكثير من المصطلحات الإنجليزية التي تغطي هذا المجال، كتبت لوسي الحججَ بلغة أكاديمية. ولم تكن هذه الكتابات لتثير

إعجابَ أحد لو أن الآنسة بيم لم تستخدم ظهر إحدى الأوراق الملقاة (لم تكن تتقن الكتابة على الآلة الحاسبة) لتكتب فيها:

عزيزي السيد ستالارد

سأكون ممتنَّة إذا توقَّفت عن استخدام المذياع الخاص بك بعد الساعة الحادية عشرة مساءً. ذلك لأن صوته يزعجني.

المُخْلِصة

لوسي بيم

في هذا المساء، جاء إلى شقتها السيد ستالارد بنفسه، الذي لم تكن لوسي تعرفه (كان اسمه مكتوبًا على لوحةٍ خارج شقته في الطابق الأسفل من طابقها). كان ممسكًا بخطابها مفتوحًا في يده، وهو ما أثار قلق لوسي بالطبع، وبلعت ريقها عدة مرات قبل أن تتمكَّن من التفوه بكلمات مفهومة أصلًا. لكن السيد ستالارد لم يكن غاضبًا بشأن موضوع المذياع. لقد كان يعمل قارئًا لدُور النشر، وقد اهتم بما كتبته لوسي على ظهر الورقة، الذي لم تكن مدركةً أنها ترسله إليه.

في الظروف العادية، لا يتحمس الناشرون كثيرًا لنشر كتاب متخصص في علم النفس. لكن العام الماضي شهد تحوُّلًا في ذوق الجمهور البريطاني؛ إذ أصبح الجمهور فجأةً أقل اهتمامًا بالكُتب الروائية وأكثر اهتمامًا بالموضوعات الغامضة؛ مثل المسافة بين نجم الشِّعْرى اليمانية والأرض، والمعنى الكامن وراء الرقصات البدائية في بيتشوانا لاند. وعليه، حرص الناشرون على نشرِ هذه الكتب التي تُشبِع هذا النَّهم الجديد غير المألوف للمعرفة، فاسْتُقْبِلت الآنسة بيم استقبالًا حارًّا. حتى إنها دُعيت إلى تناول الغداء مع الشريك الأساسي، وعَرَض عليها توقيعَ اتفاق. لقد كانت محظوظة في هذا، ولكن القدَر أيضًا هيَّأ لها الظروف؛ إذ لم يكن الجمهور البريطاني فقط أقلَّ اهتمامًا بالكتب الروائية، بل كانت النُّخبة المثقفة أيضًا قد سئمت أفكار ونظريات سيجموند فرويد وزملائه. وكانت تَتُوق إلى أفكار جديدة. وسدَّت لوسي هذه الفجوة. وبين عشية وضحاها لم تجد نفسها ذائعة الصيت فحسب، بل أصبح كتابها من أكثر الكتب مبيعًا أيضًا. لكن كانت المفاجأة كبيرة لديها، لدرجة أنها خرجت وتناولت ثلاثة أكواب من القهوة السادة، وقضت الصباح في الحديقة العامة تحدق في الفراغ أمامها.

ظلَّت لوسي من الكُتَّاب الذين تُحقق مؤلفاتهم مبيعاتٍ هائلة لعدة أشهر، واعتادت، إلى حدٍّ كبير، إلقاءَ محاضرات في علم النفس على أسماع النُّخبة المثقَّفة، عندما وصل إليها خطاب هنرييتا؛ تُذكِّرها بالأيام التي قَضَتاها في المدرسة معًا، وتطلُب منها أن تأتي إليها لتقضي مدةً تلقي فيها المحاضرات على طالبات كليتها. كانت لوسي قد سئمت قليلًا إلقاء المحاضرات، وكانت صورة هنرييتا قد بدأت تُمحى من ذاكرتها بعد كل هذه السنوات. كانت على وشك كتابة اعتذار مهذَّب عندما تذكَّرت اليوم الذي عِلمت فيه زميلاتها في الصف الرابع أن اسمها الحقيقي هو لاتيتيا؛ ذلك الشيء المخجِل الذي ظلت حياتها تخفيه. تمادت طالبات الصف الرابع في السخرية من اسم لوسي، وظلت لوسي تتساءل في نفسها عمَّا إذا كانت أمها تعبأ كثيرًا بمسألة إقدامها على الانتحار، وتوصلت إلى أن أمها هي مَن جَنَت على نفسها بطريقةٍ أو بأخرى، عندما أطلقت على ابنتها ذلك الاسم المُعَقَّد. ثم جاءت هنرييتا لتصطدم بهن، حرفيًّا ومجازيًّا. إذ تسبَّب تعليقها الحازم في اجتثاث السخرية من جذورها، حتى إن اسم لاتيتيا لم يُسمع بعد ذلك، وبدلًا من إلقاء نفسها في النهر، عادت لوسي إلى منزلها واستمتعت بالكعكة المحشوَّة بالمربَّى. جلست لوسي في غرفة المعيشة الراقية الخاصة بها وشعرت بالامتنان القديم لهنرييتا يغمرها. فكتبت إليها خطابًا قالت فيه إنه سيسعدها قضاء ليلةٍ معها (لم يتسبب شعورها بالامتنان في تلاشي ميلها الفطري إلى توخِّي الحذر) وأنها ستلقي، بكل سرور، محاضرةً في علم النفس على طالباتها.

كانت التجربة مبهجةً للغاية، هذا ما كانت تفكر فيه وهي تتدثَّر بملاءات الفراش لتحجبَ عنها أشعَّة الشمس تمامًا. كانت الطالبات ألطفَ جمهور قابلته على الإطلاق. فقد جعلت صفوف الوجوه الشغوفة قاعةَ المحاضرات المِلَّة عادةً أشبهَ ببستان مُزهِر. هذا بالإضافة إلى التصفيق الحماسي الصادق. فبعد أسابيع من التصفيق المجامِل الفاتر للنخبة المثقفة، أسعدها للغاية أن يملأ أذنيها دوِيُّ التصفيق الحار. وقد طرحنَ أسئلة ذكية بعض الشيء. فلم تتوقَّع لوسي هذا التقدير للعِلم من قِبَل الفتيات اللائي من المفترض أنهن يقضين أوقاتهن في الأنشطة البدنية، على الرغم من دراستهن لمادة علم النفس في المدرسة، كما هو مُوضَّح في الجدول الموجود في الغرفة العامة. وبالطبع، القليل من الفتيات فقط هن مَن طرحن أسئلة؛ لذا فمن المحتمل افتقارُ بقية الفتيات إلى الذكاء.

أوه عظيم، الليلة ستنام في فراشها الدافئ، وسيصبح كل هذا حُلمًا. لقد حاولت هنرييتا الضغط عليها للبقاء لعدة أيام، وقد بدأت لوسي تفكر في الأمر قليلًا. لكن العَشاء جعلها تعدِل عن رأيها. فقد بدا بودِنج الفاصولياء واللبن وجبةً غير مفضلة في ليالي الصيف. إنها

وجبة تمد الجسم بالطاقة، وذات قيمة غذائية عالية، ولها مزايا لا حصر لها، لا شك في ذلك. ولكنها ليست الوجبة التي تريد تناولها مرة ثانية. تحتوي طاولة هيئة التدريس دائمًا على نوع الطعام نفسه الذي تتناوله الطالبات، كما أوضحت هنرييتا؛ وقد تمنَّت لوسي ألا يكون معنى تعليق هنرييتا هذا أنها نظرت إلى الفول على نحوٍ أوحى لهنرييتا أنها لا تشتهيه. لقد حاولت لوسي أن تُبدي حماسة ورضًا شديدين تجاه الفول؛ ولكنها ربما لم تنجح في ذلك.

«تومي! تومي! أوه، حبيبتي تومي، استيقظي. أنا في مأزق!»

فهبَّت الآنسة بيم مستيقظةً من نومها. فقد بدا وكأن هذه الصرخات اليائسة تصدر من غرفتها. ثم أدركت أن النافذة الثانية لغرفتها تطل على الفناء؛ وأن الفناء صغير الحجم، وتُعَد المحادثات بين الغرف من خلال النوافذ المفتوحة طريقةً مُتعارفًا عليها للتواصل. كانت الآنسة بيم مستلقية في سريرها تحاول تهدئة قلبها الذي كان يخفق بقوة، ونظرت من فوق الملاءة باتجاه أصابع قدميها إلى النافذة المستطيلة التي تؤطِّر جزءًا صغيرًا من الجدار البعيد. لكن فراشها كان في زاوية الغرفة، مع وجود نافذة واحدة خلفها على الجانب الأيمن من الغرفة، وأخرى تطل على الفناء، على الجانب الأيسر وراء نهاية الفراش، من مكان استلقائها، لم تكن ترى من خلال شعاع طويل وضئيلٍ من الضوء سوى نصف نافذة مفتوحة بعيدة في الفناء.

«تومي! تومي!»

ظهر رأس ذو شعر داكن من النافذة التي تستطيع الآنسة بيم رؤيتها.

قالت صاحبة الرأس: «بحقِّ السماء، ليُلقِ أحدٌ شيئًا على توماس ويُسكِت ديكرز.»

«أوه، جرينجيدج يا عزيزتي، أنتِ لست متعاطفة. لقد انفك رباط جوربي ولا أعرف ماذا أفعل. وقد أخذت تومي بالأمس الدبوس الوحيد الذي كان معي لاستخدامه في التقاط القواقع من أصدافها في الحفل البسيط. عليها ببساطة أن تعيده إليَّ قبل أن ... تومي! أوه، تومي!»

قال صوتٌ جديد بنبرة هادئة: «الزمي الصمت!» ثم ساد الهدوء. وشعرت لوسي باستخدام الفتيات للغة الإشارة أثناء فترة الصمت هذه.

سألت الفتاة ذات الشعر الداكن: «وماذا تعني لغة الإشارة هذه؟»

قال الصوت الجديد بنبرة خافتة: «قلتُ لكِ: الزمي الصمت. إنها هناك!»

«مَن هي؟»

«الآنسة بيم.»

قالت ديكرز مرةً أخرى بصوتٍ عالٍ لا يمكن إسكاته؛ الصوت السعيد لمعشوقة العالم: «هذا هراء يا عزيزتي، إنها نائمة في مقدمة المبنى مع بقية العظماء. هل تعتقدين أنه سيكون معها دبوس احتياطي إذا طلبت منها؟»

قال صوتٌ جديد: «تبدو لي أنها تستخدم السحابات.»

«أوه، هلَّا التزمتِ الصمت! قلت لكِ: إنها في غرفة بنتلي!»

هبط الصمت بكل ثِقَله هذه المرة. ورأت لوسي الرأس ذا الشعر الداكن يلتفت فجأةً ناحية نافذتها.

سألت إحداهن: «وكيف عرفتِ؟».

«لقد عرفت ذلك من جُولي الليلة الماضية، عندما قدَّمت لي العشاء في وقتٍ متأخِّر.» تذكَّرت لوسي أن الآنسة جوليف هي العاملة المنزلية، وأُعجبت بفكرة أن يكون هذا هو الاسم المستعار لشخصيةٍ عبوسة مثلها.

قال الصوت الذي ذكر السحابات سابقًا بحماسة: «حقيقي!».

كسر جدار الصمت صوتُ الجرس. الضجيج المُلِح نفسه الذي أيقظهن. اختفى الرأس ذو الشعر الداكن فورَ سماعه، وارتفع نُواح ديكرز وسط الجموع كمَن ضلَّ الطريق وصار وحيدًا خائفًا. وتراجعت أهمية الزَّلَّات الاجتماعية للطالبات، وأصبح التركيز الأساسي على مهام اليوم. اختلطت أصواتٌ عالية بصوت الجرس. أُغلقت الأبواب، وتعالت أصوات وقْع الأقدام في الطرقات، ونادى بعض الفتيات على بعضهن، وتذكَّرت إحداهن أن توماس لا تزال نائمة، فطرقت الفتيات بابها المغلق بشدة عندما فشِل إلقاء الأشياء على نافذتها من النوافذ المحيطة في إيقاظها، ثم سُمع وقْع أقدام تجري على مسار الحصى الذي يتقاطع مع الحشائش في الفناء. وبدأت أصوات الأقدام تزداد شيئًا فشيئًا على مسار الحصى وتقل على الدَّرَج، وتعالت الأصوات حتى وصلت إلى ذروتها، ثم تلاشت تمامًا. عندما تلاشت الأصوات بعد ابتعادها وساد الصمت بعد دخول الطالبات قاعات المحاضرات، سُمع صوت وقع قدمَين تجريان على الحصى، كانت الفتاة تردِّد: «اللعنة، اللعنة، اللعنة، اللعنة، اللعنة» مع كل خطوة. من الواضح أن هذه الفتاة هي توماس التي كانت نائمة.

رقَّت الآنسة بيم لحال توماس التي لا تعرفها. فالفراش له سحرٌ خاص في كل الأوقات، ولكن عندما يأخذ النعاس أحدًا لدرجة أنه لا يؤثِّر فيه صوت الجرس العالي أو عويل إحدى الزميلات، فهذا يعني أن استيقاظه أمرٌ صعب للغاية. من المرجَّح أنها أيضًا من ويلز.

فجميع مَن أسماؤهن توماس كنَّ من ويلز. يكره السِّلتيون الاستيقاظ. يا لها من مسكينة. إنها حقًّا مسكينة. هي تأمُل أن تجد لتوماس المسكينة وظيفةً لا تضطرُّها أبدًا للاستيقاظ قبل الظهر.

غشِيَها النوم مثل الأمواج التي تسحب المرء عميقًا على نحوٍ متزايد. تساءلت عمَّا إذا كانت حقيقةُ أن تبدوَ من مستخدمي سحَّابة الثياب هو إطراء. فلا يمكن أن يكون الشخص الذي يستخدم دبوس الأمان موضعَ إعجاب، إذن ربما ...

وغطَّت في نوم عميق.

الفصل الثاني

كان جنديان من جنود القوزاق يبلغ طول الواحد منهما ستَّ أقدام يضربانها بالسياط لأنها أصرَّت على استخدام الدبابيس التي لا تواكب العصر، بينما يُحتِّم عليها المضي قُدمًا استخدام السَّحابات، وبدأ الدم يسيل على ظهرها عندما استيقظت وأدركت أن حاسة السمع لديها هي ما كانت تتعرض للعنف. كان الجرس يرن مجددًا. فقالت كلمة لا تُعَد من بين الكلمات الراقية، ونهضت جالسةً على الفراش. لا، لن تمكث بالتأكيد دقيقةً واحدة بعد الغَداء. فهناك قطار سيتحرك من لاربورو في الساعة الثانية و٤١ دقيقة، وستكون في هذا القطار؛ ستكون قد فرغت من توديع الجميع، وأتمَّت واجباتها تجاه صديقتها، وتشبَّعت روحها بسعادة بالغة بعد هروبها. سوف تشتري لنفسها صندوقًا وزنه نصف باوند من الشوكولاتة على محطة القطار كنوع من الاحتفال. سوف يظهر تأثير أكل هذه الشوكولاتة عندما تزن نفسها على ميزان الحمَّام في نهاية الأسبوع، ولكن مَن يُبالي؟

ذكَّرها التفكير في الميزان بإحدى ضروريات الحياة الراقية، وهي الاستحمام. كانت هنرييتا تشعر بالأسف نظرًا لكون حمَّامات هيئة التدريس بعيدة جدًّا عن غرفة لوسي؛ وكانت تشعر بالأسف أصلًا من إقامة لوسي في المبنى الخاص بالطالبات، ولكن والدة فروكن جوستافسِن، التي جاءت من السويد، كانت تقيم في غرفة الضيوف الوحيدة في المبنى الخاص بهيئة التدريس، وكانت عازمة على أن تمكث عدة أسابيع حتى تُشاهد وتنتقد نتيجةَ مجهود ابنتها في العرض السنوي الذي يُقام في بداية الشهر. كانت لوسي تشكُّ كثيرًا إن كان إحساسها بالاتجاهات، الذي تقول صديقاتها إنه معدوم لديها، جيدًا بما يكفي لتتمكن من الوصول إلى هذا الحمَّام مرة أخرى أم لا. فمِن السيئ التسكُّع في طرقات مضيئة خالية، وربما دخول قاعات المحاضرات بالخطأ. والأسوأ من ذلك التجوُّل

في طرقات مزدحمة بطالبات استيقظن من الصباح الباكر لسؤالهن عن المكان الذي يمكنها فيه الاستحمام لأنها تأخَّرت عن الاستحمام.

كانت طريقة تفكير لوسي دائمًا هكذا. فلم يكن يكفيها تخيُّل سيناريو واحد سيِّئ فحسب؛ بل كان يتعين عليها أن تتخيل نقيضَه أيضًا. لقد أمضت الكثير من الوقت في التفكير في السيناريوهات المختلفة، والاستمتاع دون فعل أي شيء، وفجأةً دقَّ جرسٌ آخر، وتعالت أصوات وقْع الأقدام، وكذلك أصوات الطالبات يُنادي بعضهن بعضًا، ما كدَّر هدوءَ الصباح. نظرت لوسي إلى ساعتها. كانت الساعة السابعة والنصف.

قرَّرت لوسي ألا تكون متحضِّرة، وأن تتخلى عن فكرة الاستحمام كما نصحتها عاملة المنزل ذات مرة؛ ففي النهاية، هذا الاهتمام بالاستحمام ما هو إلا بدعة عصرية، وإذا كان تشارلز الثاني يتحمل أن تكون رائحته كريهة بعض الشيء، فمن تكون هي، وهي واحدة من عامة الشعب، حتى تتذمَّر من عدم الاستحمام؟ طرقَ أحدٌ بابها. لقد أتى أحد لإنقاذها. يا للسعادة، يا للعظمة، انتهت عزلتُها.

قالت بنبرة سعادةٍ كما لو كانت روبنسون كروزو يرحبُ بأشخاص على الجزيرة: «تفضل بالدخول». بالطبع كانت هنرييتا قادمة لتقول لها صباح الخير. كم هي حمقاء ألا تفكر في هذا. إنها ما زالت في أعماقها الفتاة الصغيرة التي لا تتوقَّع أن تهتم هنرييتا لأمرها. عليها حقًّا أن تُنمي معتقداتٍ تتناسب أكثر مع كونها أصبحت من المشاهير. ربما عليها تصفيف شعرها بطريقة مختلفة، أو أن تكرر بعض الكلمات ٢٠ مرة في اليوم، على غرار عالم النفس الفرنسي إميل كوي ... «تفضل بالدخول!»

لكنها لم تكن هنرييتا. كانت فتاة حسناء للغاية.

فتاة ذات خصلات شعر ذهبية، وسُترة من الكتان الأزرق الفاتح، وعينين زرقاوين مثل البحر، وسيقان تثير الحسد الشديد. لطالما لاحظت لوسي سيقان النساء الأخريات؛ فهي لا تحب شكل ساقَيها.

قالت الفتاة الحسناء: «أوه، أنا آسفة. نسيت أنكِ ربما لا تكونين مستيقظة. فنحن هنا لدينا مواعيدُ غريبة.»

رأت لوسي أنه من اللطيف أن يلوم هذا الكائن السماوي نفسه نتيجةً لكسلِها هي.

«أنا آسفة لإزعاجك أثناء ارتدائك ملابسك.» واستقرت عيناها الزرقاوان على صندل كان موجودًا في منتصف الغرفة، وظلت تنظر إليه كما لو كانت مفتونة. كان صندلًا من الساتان، لونه أزرق فاتح، كان أنثويًّا للغاية، وعديم القيمة للغاية، وريشيًّا للغاية. شيئًا لا ريبَ في كونه عديم الفائدة.

قالت لوسي: «يؤسفني أنه يبدو أحمقَ بعض الشيء.»

«يجب أن أخبركِ يا آنسة بيم، كم هو ممتع رؤية شيء يتجاوز الاستخدام النفعي!» ثم قالت، وقد تذكَّرَت الموضوع الذي جاءت لأجله، مع رغبتها في مواصلة الحديث عن الصندل: «اسمي ناش. وأنا قائدة طالبات السنة النهائية. وأتيت لتوجيه دعوة إليكِ نيابةً عن طالبات السنة النهائية للانضمام إلينا لتناول الشاي غدًا. ففي أيام الأحد، نتناول الشاي في الخارج في الحديقة. إنها ميزةٌ خاصة بطالبات السنة النهائية. وهي حقًّا طريقةٌ رائعة لقضاء فترةِ ما بعد الظهيرة في الصيف، ونحن نتطلع بشغف إلى انضمامِك إلينا.» وابتسمت للآنسة بيم بلطف شديد.

أوضحت لوسي أنها لن تكون هنا غدًا؛ وأنها ستُغادر بعد ظهر اليوم.

احتجَّت الفتاة ناش قائلة: «أوه، لا!» وقد أثلجت نبرتها المفعمة بالمشاعر الحقيقية صدرَ لوسي. وأردفت: «لا، من فضلك لا تغادري يا آنسة بيم! يجب ألا تغادري! فليس لديكِ أي فكرة كيف أنكِ هبةٌ أرسلها الله إلينا. فمن النادر جدًّا أن يأتي أي شخص مثير للاهتمام لزيارتنا. إن هذا المكان أشبه بالدَّير. ونحن جميعًا مشغولون جدًّا بدراساتنا؛ لدرجةِ أنه ليس لدينا أي وقت للتفكير في العالم الخارجي؛ هذا هو الفصل الدراسي الأخير لنا، نحن طالبات السنة النهائية، وكل شيء قاتم وخانق — الاختبارات النهائية، والعرْض، وإيجاد وظائف لنا، وما إلى ذلك — ونحن جميعًا نشعر بالإرهاق الشديد، وقد ذهب آخِر إحساس لدينا بالتوازن. ثم جئتِ أنت، قطعةً من العالم الخارجي، إنسانة راقية»، وتوقفت عن الكلام؛ كانت لهجتها بين الضحك والجدية. «لا يمكنكِ أن تهجرينا.»

قالت لوسي: «ولكن هناك ضيفٌ محاضر يزوركنَّ كل يوم جمعة.» كانت أول مرة في حياتها تجد نفسها هديةً مُرسلة من السماء لأحد، وقد قرَّرت ألا تأخذ إطراءَ الفتاة أمرًا مُسلَّمًا به. فلم تحب إطلاقًا إحساسَ الرضا الذي بدأت تشعر به.

أجابت الآنسة ناش بحُجة واضحة ومرارة شديدة قائلة إن المحاضرين الثلاثة الأخيرين كانوا رجُلًا في الثمانين من العمر يتحدَّث عن نقوش آشورية، وعالِمًا تشيكيًّا يتحدَّث عن أوروبا الوسطى، وطبيبَ عظام يشرح مَرض الجَنَف.

سألت لوسي: «ما هو الجَنَف؟».

«انحناء العمود الفقري. وإذا كنتِ تعتقدين أن أيًّا من هذه المحاضرات قد جلب للكلية البهجة والسعادة، فأنتِ مخطئة. فمن المفترض أن هذه المحاضرات تهدف إلى إبقائنا على اتصال بالعالم، ولكن إذا كان عليَّ أن أكون صريحةً وغير متحفظة» — وبدا من الواضح

أنها مستمتعة بصراحتها وعدم تحفُّظها — «كان لفستانك الليلة الماضية أثرٌ طيب في معنوياتنا، مقارنةً بجميع المحاضرات التي حضرناها.»

أنفقت لوسي مبلغًا ضخمًا من المال على هذا الفستان عندما أصبح كتابها من أكثر الكتب مبيعًا، وظلَّ هو الفستان المفضَّل لديها؛ لقد ارتدته لإثارة إعجاب هنرييتا. بدأ الشعور بالرضا يتسلل داخلها.

لكنه لم يتسلل بالدرجة الكافية ليطغى على تفكيرها المنطقي. فهي لا تزال تتذكر الفاصولياء. وعدم وجود مصابيح بجانب الفراش. وعدم وجود جرس لتطلُب أي خدمة. ورنين الأجراس المستمر للآخرين. لا، إنها ستستقل قطار الثانية وإحدى وأربعين دقيقة من لاربورو، حتى لو توسَّلت إليها كل طالبات كلية لايز للتربية البدنية ألا تغادر. ذكرت لوسي بهدوء شيئًا عن بعض الارتباطات — حتى تستنتج الآنسة ناش أن جدول لوسي مزدحم جدًّا بالارتباطات المُلحَّة والمهمة — وطلبت من الآنسة ناش توجيهها الآن إلى حمَّامات هيئة التدريس. «لم أُرِد التجول في الطرقات، ولم أجد جرسًا لأستخدمه.»

تعاطفت الآنسة ناش مع الآنسة بيم بشأن عدم وجود خدمة، قائلة: «كان يجب على إليزا أن تتذكر أنه لا توجد أجراس في الغرف هنا، وأن تأتي إليك؛ إنها العاملة المنزلية الخاصة بهيئة التدريس.» ثم اقترحت أن تستخدم الآنسة بيم الحمَّامات الخاصة بالطالبات، التي كانت أقرب بكثير، إذا لم تمانع في ذلك. وقالت: «إنها بالطبع حُجَيرات صغيرة؛ أقصد أنها ذات جدران لا تمتد حتى السقف، والأرضية من الخرسانة الخضراء، بينما حمَّامات هيئة التدريس لها أرضية من الفُسَيفساء الفيروزية وعليها نقوش أنيقة على شكل دلافين، لكن المياه هي نفسها.»

لم تمانع الآنسة بيم في استخدام حمَّامات الطالبات، وبينما كانت منشغلة بتجميع أغراض الاستحمام الخاصة بها، كان جزء كبير من ذهنها مشغولًا بالآنسة ناش، وكيف أنها لا توقِّر هيئة التدريس مثلما تفعل الطالبات. هذا الموقف يذكِّرها بأحد الأشخاص. نعم لقد عرفَتْه الآن. إنه ماري بارارو. فقد كانت زميلات ماري بارارو في الصف تتعاملن بوداعة واحترام مع مدرِّسة اللغة الفرنسية، بينما كانت ماري بارارو، على الرغم من كونها طالبة مجتهدة وودودة، تتعامل معها معاملة النِّد؛ والسبب في ذلك هو أن والدها «يكاد يكون مليونيرًا». خلصت الآنسة بيم إلى أنه في «العالم الخارجي» — من الغريب أنها بدأت بالفعل تستخدم المصطلحات الخاصة بالكلية — فإن والد الآنسة ناش، التي تتمتع بشخصية ساحرة واجتماعية، وتتعامل مع الجميع معاملة النِّد مثل ماري بارارو؛ يشبه،

إلى حد كبير، والد ماري بارارو. وفي وقت لاحق، علمت أن هذا هو أول ما يذكره الجميع عند ذكر اسم ناش. «عائلة باميلا ناش شديدة الثراء. لديهم خادم شخصي.» ولا ينسى أحدٌ أبدًا ذِكر الخادم الشخصي. فعند بنات الأطباء والمحامين وأطباء الأسنان ورجال الأعمال والمزارعين الكادحين كان وجود خادم شخصي لدى عائلةٍ شيئًا غريبًا، تمامًا مثل امتلاك عبد زنجي.

سألت الآنسة بيم الآنسة ناش، وسط هدوء الممرات المشمسة، الذي يعني أن الطالبات يمارسن نشاطًا: «أليس من المفترض أن يكون لديكِ محاضرة الآن؟». وأردفت: «أعتقد أن استيقاظك في الخامسة والنصف صباحًا يعني أن لديكِ محاضرات قبل الإفطار.»

«أوه، نعم. في الصيف لدينا فترتان قبل الإفطار، واحدة تتضمن نشاطًا بدنيًّا، وأخرى لا. مثل تدريب كرة المضرب وعلم حركات الجسم أو ما شابه.»

«علمُ ماذا؟»

«علمُ حركات الجسم»، وفكَّرت الآنسة ناش لحظةً في الطريقة الأمثل لتوصيل المعلومة لشخص جاهل، ثم تكلَّمت وكأنها تتخيَّل مشهدًا. قالت: «أنزلت إبريقًا ذا يدٍ من فوق رفٍّ عالٍ؛ صِف العضلات التي استخدمتها.» وبينما أوضحت هزةُ رأس الآنسة بيم أنها فهمت، أردفت الآنسة ناش: «ولكن في الشتاء نستيقظ كبقية الناس في السابعة والنصف. أما بخصوص هذه الفترة بالتحديد، فنحن عادةً ما ندرُس فيها الشهادات الخارجية، مثل الصحة العامة والصليب الأحمر وما إلى ذلك. ولكن بما أننا انتهينا من هذه الشهادات، فإنه مسموح لنا بالاستفادة من هذه الفترة في الاستعداد للامتحانات النهائية، التي تبدأ الأسبوع القادم. لدينا وقتٌ محدود جدًّا للاستعداد للامتحانات؛ لذا فنحن سعداء بهذه الفرصة.»

«أليس لديكنَّ وقتُ فراغ بعد تناول الشاي، أو في هذه الفترة؟»

بدت الآنسة ناش مستمتعة. قالت: «أوه، لا. هناك عيادة بعد الظهر من الساعة الرابعة حتى السادسة؛ نقابل فيها مرضى خارجيين. نعالج كلَّ شيء؛ من الأقدام المسطَّحة إلى الأفخاذ المكسورة. ومن السادسة والنصف حتى الثامنة نرقص. باليه، وليس رقصًا شعبيًّا. لدينا رقصٌ شعبي في الصباح؛ إنه يُعَد تمرينًا وليس فنًّا. وننتهي من تناول العشاء حوالي الساعة الثامنة والنصف؛ لذلك نشعر بالنُّعاس الشديد قبل أن نبدأ الاستعدادات للامتحانات، وعادةً ما يكون هناك صراع بين نعاسنا واحتياجنا للاستعداد للامتحانات.»

عندما وصلَتَا إلى الطرقة الطويلة المُؤَدِّية إلى الدَّرج، تفاجأتا بشخص ضئيل الحجم يسير في عجالة ويتأبَّط جمجمةً وقفصًا صدريًّا، أحد الهياكل العظمية في إحدى ذراعيه، والحوض والساقان في الذراع الأخرى.

عندما اقتربتا من الشخص، سألت الآنسة ناش: «ماذا تفعلين بجورج يا موريس؟».

قالت طالبة السنة الأولى المتفاجئة وهي تلهث وتمسك بالهيكل العظمي بقوة على فخذها اليمنى، وتستمر في السير في عجالة أمامهما: «أوه، من فضلك لا تعطليني يا بو، ومن فضلك انسي أنك رأيتِني. أقصد أنك رأيتِ جورج. أردت الاستيقاظ مبكرًا وإعادته إلى غرفة المحاضرات قبل جرس الخامسة والنصف، لكنني تأخَّرت في الاستيقاظ.»

«هل قضيتِ الليلة مع جورج؟»

«لا، حتى نحو الساعة الثانية صباحًا فقط. وأنا ...»

«وكيف تصرفتِ في الإضاءة؟»

قالت طالبة السنة الأولى بنبرةٍ حادة كمن يوضِّح شيئًا مفروغًا منه: «بالطبع، وضعت سجادة الأسفار على النافذة.»

«يا له من جوٍّ رائع في مساء شهر يونيو!»

قالت الآنسة موريس ببساطة: «لقد كان كارثيًّا. لكنها حقًّا الطريقةُ الوحيدة لمذاكرة مغارز العضلات، فمن فضلك يا بو، انسي أنك رأيتِني. سأعيده إلى مكانه قبل نزول هيئة التدريس لتناول طعام الإفطار.»

«لن تنجحي في ذلك. فعلى الأرجح ستقابلين شخصًا أو آخر.»

«أوه، من فضلك لا تُثبِّطي عزيمتي. أنا مرعوبة بما يكفي الآن. وأنا لا أعرف حقًّا إن كنتُ أتذكر كيفية تركيب منتصفه تركيبًا صحيحًا أم لا.» وأكملت طريقها وهي تحمل الهيكل العظمي واختفت في مقدمة المبنى.

قالت الآنسة بيم وهي تشاهدها تمضي: «يذكِّرني هذا الموقف تمامًا بكتاب «عبْر المرآة»، لطالما ظننت أن مغارز العضلات لها علاقة بالغُرز المستخدَمة في التطريز.»

«مغارز العضلات؟ إنها الأماكن الموجودة في العظام، حيث تلتصق بها العضلات. فمِن السهل جدًّا مذاكرة ذلك وأمامك هيكل عظمي بدلًا من النظر في كتابٍ فحسب. لهذا السبب اختطفت موريس جورج.» وأطلقت ضحكة متساهلة. وأردفت: «لقد غامَرَت جدًّا بفعل ذلك. عندما كنت في السنة الأولى سرقت مجموعة من العظام المختلفة من الأدراج الموجودة في غرفة المحاضرات، لكنني لم أفكر مطلقًا في أخذ جورج. إنها الغَمامة البغيضة التي تخيِّم على حياة طالبات السنة الأولى. علم التشريح النهائي. وهو بالفعل نهائي. فمن المفترض أن تعرف كل شيء خاص بالجسم قبل أن تبدأ التعامل معه عمليًّا؛ لذا فإن عِلم التشريح النهائي هو مادة خاصة بالسنة الأُولى، وليس بالسنة النهائية كبقية الامتحانات النهائية.

الحمَّامات من هنا. عندما كنت في السنة الأولى كانت الحشائش الطويلة على حافة ملعب الكريكِت تعجُّ أيام الأحد بطالبات السنة النهائية المختبِئات يحتضنَّ كتب التشريح. كان ممنوعًا منعًا باتًّا أخذُ الكتب إلى خارج الكلية، وكان من المفترض أن نقوم في أيام الأحد بأنشطة اجتماعية، وأن نحتسيَ الشاي، أو أن نذهب إلى الكنيسة، أو إلى الريف. لكن لم تقُم أي طالبة في السنة الأولى بأي شيء في الفصل الدراسي الصيفي مطلقًا، باستثناء إيجاد مكان هادئ لها وكتاب التشريح. كان من الصعب أخذُ كتاب التشريح إلى خارج الكلية. هل تعرفين كتاب التشريح؟ إنه تقريبًا في حجم الأناجيل العائلية القديمة الموجودة على طاولة الرَّدهة. في الواقع كانت هناك شائعة ذات مرة أنَّ نِصف الفتيات في لايز كُنَّ حوامل، لكن تبيَّن أن ذلك لم يكن سوى نتيجة لوضعهن كتابَ التشريح تحت ملابسهن الأنيقة الخاصة بيوم الأحد.»

انحنت الآنسة ناش تجاه الصنابير وفتحتها فسالت المياه في حوض الاستحمام. قالت وقد تعالى صوتها فوق صوت المياه: «عندما يستحم كلُّ مَن في الكلية ثلاث أو أربع مرات في اليوم بسرعة، بحيث لا يستغرقون بضع دقائق، سنحتاج إلى صنابير بها مياه بنفس مقدار شلالات نياجرا. أنا قلِقة بشأن تأخُّرك عن الإفطار.» وعندما بدا القلق الطفولي الغريب على الآنسة بيم عند التفكير في إمكانية حدوث ذلك، قالت الآنسة ناش: «سوف أُحضِّر لكِ بعض الطعام على صينية. لا، لن تكون هناك مشكلة، يسعدني القيام بذلك. فلا حاجة إلى حضور ضيفٍ الإفطارَ في الثامنة صباحًا على أي حال. مِن الأفضل لكِ بكثير تناوله بهدوءٍ في غرفتك.» وتوقَّفت وهي تضع يدها على الباب. وأردفت: «غيِّري رأيك بشأن البقاء هنا. سوف يسعدنا ذلك حقًّا. سعادةً أكثر مما يمكنكِ تخيُّلها.»

وابتسمت وانصرفت.

بينما كانت لوسي تسترخي في الماء اليسير الدافئ، كانت تفكِّر بسعادة في الإفطار القادم. كم هو رائع ألَّا تضطر إلى الدخول في محادثات مع الأصوات الثرثارة المحيطة بها. كم هي لطيفة وذكية هذه الفتاة الحسناء أن تُحضر لها صينية الطعام. ربما من الذوق أن تقضي يومًا أو يومين وسط هؤلاء الفتيات …

كادت تقفز من حوض الاستحمام عندما بدأ الجرس يرن بصوتٍ عالٍ على بُعد ١٢ ياردة من المكان الذي كانت ترقد فيه. هذا حسم الأمر. جلست ودَلَكت جسدها بالصابون. لن تتأخر دقيقةً واحدة عن موعد قطار الثانية وإحدى وأربعين دقيقةً من لاربورو، لن تتأخر دقيقة واحدة.

عندما تلاشى صوت الجرس — الذي كان غالبًا إنذارًا قبل ناقوس الثامنة الكبير بخمس دقائق — كانت هناك خطوات متسارعة في الطرقة، وانفتح البابان على يسارها، وبينما كانت المياه تتدفَّق في أحواض الاستحمام، سمعت صوتًا مألوفًا يصيح: «أوه، يا عزيزتي، سأتأخر جدًّا عن موعد الإفطار، لكني أتصبَّب عرقًا يا عزيزتي. أعلم أنه كان حريٌّ بي الجلوس في هدوء لمذاكرة تركيب البلازما، الذي لا أعرف عنه شيئًا يا عزيزتي، وامتحان الفيزياء النهائي يوم الثلاثاء. لكن الصباح بديع؛ والآن أين الصابونة الخاصة بي؟»

انخفض فك لوسي السُّفلي ببطء في اندهاش؛ إذ أدركت فجأة وجود أشخاص في مجتمع يبدأ يومه في الخامسة والنصف وينتهي في الثامنة مساءً، ولديهن الطاقة لبذل جهد بدني مضنٍ، في حين أنه لا يتحتَّم عليهن فعل ذلك.

«أوه، دوني عزيزتي، لقد نسيت الصابونة الخاصة بي. أعطني صابونتك!»

قال صوت هادئ يختلف اختلافًا واضحًا عن صوت ديكرز العالي: «عليك الانتظار حتى أفرَغ من استخدامها.»

«حسنًا يا ملاكي، أسرعي. لقد تأخَّرت مرتين هذا الأسبوع، وقد نظرت إليَّ الآنسة هودج نظرةً غريبة في المرة الأخيرة. ألا يمكنك حقًّا يا دوني أخذُ مريضة السِّمنة في عيادة الثانية عشرة؟»

«لا، لا يمكنني.»

«إنها ليست ثقيلة كما يبدو عليها. عليكِ فقط أن …»

«لديَّ مريض.»

«صحيح، لديكِ فقط الطفل الصغير المُصاب في كاحله. يمكن أن تأخذَه لوكاس بجانب حالة الفتاة التي تعاني تخشُّب العنق …»

«لا.»

«لا، كنت أعلم ذلك. أوه، لا أعلم متى سأذاكر البلازما يا عزيزتي. أمَّا طبقات المَعِدة فهي ببساطةٍ تُربِكني يا عزيزتي. أنا لا أصدِّق أنها أربع طبقات على أي حال. إنها مؤامرة علينا. تخبرنا الآنسة لوكس بأن نتأمل كلامًا فارغًا، لكني أرى أن الكلام الفارغ لا يمكن أن يُفضي إلى شيء.»

«تفضَّلي الصابونة.»

«أوه، أشكرك يا عزيزتي. لقد أنقذتِني. يا لها من رائحة زكية يا عزيزتي. صابونة غالية جدًّا.» وفي لحظة الصمت التي كانت تستخدم فيها الصابونة أدركَتْ أن أحدًا ما في حوض الاستحمام على يمينها.

«مَن في حوض الاستحمام الذي بجانبي يا دوني؟»

«لا أعلم. ربما تكون جيدج.»

«أهذا أنتِ يا جرينجيدج؟»

قالت لوسي في ذهول: «لا، إنه أنا، الآنسة بيم.» وتمنَّت ألا تكون قالتها بأسلوب رسمي كما بدا ذلك.

«لا، حقًّا، مَن أنتِ؟»

«الآنسة بيم.»

«أنتِ تقلِّدينها تقليدًا جيدًا جدًّا، أيًّا كان مَن أنتِ؟»

قال الصوت الهادئ: «إنها ليتلجون. هي تقلِّد أصوات الآخرين.»

لم تعرف الآنسة بيم ماذا تقول؛ لذا التزمت الصمت.

كان هناك صوت جسم يخرج فجأةً من الماء، وصوت أقدام مبلَّلة على حافة الحوض، وثمانية أصابع مبلَّلة ظهرت على حافة الحُجَيرة وظهر وجه. كان وجهًا طويلًا شاحبًا مثل وجه حصان جميل، وكان يكسوه شعر فاتح ناعم فوق الرأس مصفَّف على شكل كعكة وُضِع فيها دبوس الشعر باستعجال. كان وجهًا جميلًا غير معتاد. وحتى في هذا الزخم، أدركت لوسي فجأةً سببَ نجاح ديكرز في الوصول إلى الفصل الدراسي الأخير في لايز من دون أن تُضرَب على رأسها من قِبل الزميلات الغاضبات.

في البداية، ظهر الرعب على وجه الفتاة الواقفة على حافة الحُجيرة، أعقبه اندفاع احمرارٍ شديد في وجهها، صاحبه ظهور علامات الإثارة تدريجيًّا. ثم اختفى الوجه بسرعة. وسُمِع عويل يائس من الجانب الآخر.

«أوه، آنسة بيم! أوه، عزيزتي الآنسة بيم! أنا آسفة. أنا آسفة للغاية. لم أكن أتوقَّع قط أن يكون هذا أنتِ.»

لم تستطع لوسي أن تتمالك شعورها بالاستمتاع بالموقف.

«آملُ ألا تكوني مستاءة. أعني مستاءة للغاية. نحن معتادون على رؤية بعضنا دون ملابس هنا؛ بحيث ... بحيث ...»

فهمت لوسي أن ديكرز كانت تحاول القول إن هذه الزَّلَّة أقل أهميةً في هذه البيئة مقارنةً بأي مكان آخر، وبما أنها كانت تغسل بعناية إصبع قدمِها في اللحظة التي حدث

فيها ذلك، لم يكن لها رأي في هذه المسألة. قالت بلطف إنها هي المخطئة؛ إذ إنها استخدمت حمَّام الطالبات، وأنه لا داعي أن تقلق الآنسة ديكرز بشأن ذلك على الإطلاق.

«أتعرفين اسمي؟»

«نعم. لقد أيقظتِني هذا الصباح وأنتِ تصرخين من أجل الدبوس.»

«أوه، يا إلهي! لن أتمكَّن من النظر في وجهك مرةً أخرى!»

قال صوت من حوضٍ استحمام أبعدَ بنبرة توبيخ: «أعتقد أن الآنسة بيم ستستقل أول قطار إلى لندن.»

قالت ديكرز: «هذه هي أودونيل في حوض الاستحمام المجاور. إنها من أيرلندا.»

قالت أودونيل بلهجة محايدة: «من أولستر.»

«أهلًا بكِ يا آنسة أودونيل.»

«أنتِ بالتأكيد تظنين أن هذا منزلٌ للمجانين يا آنسة بيم. لكن من فضلك لا تحكمي علينا جميعًا من خلال حكمك على ديكرز. فبعضنا عاقل. وبعضنا حتى راقٍ. سترَين ذلك عندما تأتين لتناول الشاي غدًا.»

وقبل أن تتمكَّن الآنسة بيم من توضيح أنها لن تأتي لتناول الشاي، بدأ صوتٌ منخفض يملأ الأجواء، وتعالى حتى أصبح صوت جرس عالٍ. وسط هذه الفوضى، أطلقت ديكرز صرخةً شبيهة بصوت النورس عند هبوب عاصفة. سوف تتأخر كثيرًا. أعربت عن امتنانها للصابونة التي أنقذتها. وأين حزام سترتها؟ وإذا وعدتها الآنسة بيم بأنها ستتجاوز عن هذه الأخطاء التي حدثت حتى الساعة، فعليها أن تُظهر لها كيف أنها فتاة عاقلة وراقية. وكان الجميع يتطلعون إلى تناول الشاي معها في اليوم التالي.

خرجت الطالبات في عجلةٍ من الحمَّام محدِثات ضوضاء عالية، تاركاتٍ الآنسة بيم بمفردها مع تلاشي صوت الجرس وضجيج مياه الاستحمام.

الفصل الثالث

في الساعة الثانية و٤١ دقيقة، بينما كان قطار بعد الظهر السريع يغادر لاربورو متجهًا إلى لندن في ميعاده بالضبط، كانت الآنسة بيم تجلس تحت شجرة الأَرز في الحديقة تتساءل عما إذا كانت بلهاء، ولا تعبأ كثيرًا بحقيقة إن كانت كذلك فعلًا. كان الجو بديعًا للغاية هناك في الحديقة المُضاءة بنور الشمس. وكان هادئًا للغاية أيضًا؛ إذ كانت ظهيرة يوم السبت، كما يبدو، هي الموعد الذي تقام فيه المباراة، وكانت الكلية بأَسرها قد نزلت إلى ملعب الكريكت حيث يلعب فريقها أمام فريق كومبي، وهي كلية مُنافسة على الجانب الآخر من المقاطعة. رغم أن هؤلاء الفتيات الصغيرات لا يملكن أيَّ مهارات أخرى؛ فقد كن يتمتعن بالمرونة. ففي حين أن ثمة فارقًا كبيرًا بين دراسة بطانة المَعِدة والانخراط في مباراة كريكت، يبدو أنهن يفعلن ذلك بسهولة ودون مواجهة أي صعوبات. عندما جاءت هنرييتا إلى غرفة نوم لوسي بعد الإفطار، قالت لها إنها إذا بقيت هنا خلال عطلة نهاية الأسبوع فعلى الأقل ستكون هناك تجربة جديدة. «هن صاحبات شخصيات متنوِّعة جدًّا، ومفعمات بالحياة، وما يقمن به ممتع للغاية.» وقد كانت هنرييتا محقَّة بالتأكيد. ففي كل لحظة، كانت تواجه جانبًا جديدًا من هذه الحياة الغريبة. جلست على الطاولة المخصَّصة لهيئة التدريس أثناء تناول الغَداء تأكل أصنافًا غير معروفة من الطعام مُعدَّة للحفاظ على نظام غذائي متوازن، وسمح لها ذلك بالتعرُّف بوجه أفضل على هيئة التدريس. وجلست هنرييتا بمفردها على رأس الطاولة تتناول طعامها بسرعة، بينما كانت غارقة في التفكير وهي صامتة. أما الآنسة لوكس فقد كانت كثيرة الكلام. كانت نحيفةً وغير جذابة وذكية، وكانت أستاذة في النظريات؛ لذا لم تكن لديها أفكار فحسب، بل آراء. وعلى النقيض، لم يكن للآنسة راج، لاعبة الجمباز المبتدئة، الطويلة، المفعمة بالحيوية، الصغيرة السن، ذات الوجنتين الورديتين أفكارٌ مطلقًا، وكانت آراؤها مجرَّد ترديد لآراء السيدة لوفِيفْر. نادرًا

ما كانت تتكلَّم السيدة لوفيفر، مدرِّسة الباليه، لكنها عندما كانت تتكلم فإن صوتها كان ناعمًا وعميقًا مثل قماش من القطيفة البنية الداكنة، ولم يكن أحدٌ يقاطع كلامها. جلست فروكن جوستافسِن، لاعبة الجمباز المحترفة التي لا تتكلم أبدًا، في نهاية الطاولة وبجانبها والدتها.

ظلَّت عينا لوسي تنظران ناحيةَ فروكن جوستافسِن أثناء تناول طعام الغَداء. إذ وجدت لوسي متعةً خفيَّة لا تقاوم في النظر إلى العينين الفاتحتين الصافيتين لهذه السويدية الجميلة. الآنسة هودج البدينة، الآنسة لوكس الذكية، الآنسة راج الحمقاء، السيدة لوفيفر الأنيقة؛ كيف بَدَونَ جميعًا في عيني الفتاة السويدية الطويلة الغامضة ذات البشرة الفاتحة؟

الآن، بعد أن قضت وقتَ الغداء تفكِّر في الفتاة السويدية، كانت تنتظر قدومَ فتاة من أمريكا الجنوبية. قالت هنرييتا: «ديستيرو لا تشارك في الألعاب؛ لذا سأرسلها لتجالسك بعد ظهر اليوم.» لم تُرِد لوسي أن يجالسها أي شخص — كانت معتادة على الجلوس بمفردها وقد أحبَّت ذلك — لكن فكرة وجود فتاة من أمريكا الجنوبية في كلية تربية بدنية إنجليزية أثارت فضولها. وعندما قابلتها ناش بعد الغداء، وقالت: «أنا آسفة من أنك ستبقَين بمفردك بعد ظهر هذا اليوم، إذا كنتِ لا تهتمين بالكريكِت»، ردَّت إحدى طالبات السنة النهائية المَارَّات في الزحام: «لا بأس يا بو؛ ففطيرة المكسَّرات ستأتي للجلوس معها.» قالت بو: «أوه، حسن»، وقد بدا عليها اعتيادها هذا اللقب الذي لم يعُد له معنًى خاص، ولم يعُد مستغربًا من وجهة نظرها.

ولكن لوسي تطلَّعت إلى لقاء فطيرة المكسرات، وجلست في الحديقة المشمسة تفكر في هذا الاسم، بينما كانت تهضم الطعام الصحي الشهي. تشير كلمة Nut وتعني بالعربية «المكسرات» ربما إلى البرازيل. ويُعتقد أنها تعني أيضًا «غريبة» أو «بلهاء» باللغة الدارجة الحديثة. ولكن «فطيرة»؟ بالتأكيد لا!

وبينما كانت لوسي تجلس في الحديقة، ابتسمت لها فتاة في السنة الأولى مرَّت من أمامها، وقد كانت تركض متجهةً إلى سقيفة الدراجات، وتذكَّرت لوسي أنها قابلت هذه الفتاة في الطرقة هذا الصباح. فسألتها: «هل تمكنتِ من إعادة جورج بأمان؟»

أجابت الآنسة موريس الصغيرة، بعيونٍ تغمرها البهجة، بعد أن وقفت لترقص على أطراف أصابعها: «نعم، لكنني أعتقد أنني وقعت في مشكلة أخرى. كانت ذراعي حول خَصر جورج لأثبِّته بعد اضطرابه حين دخلت عليَّ الآنسة لوكس ورأتني في هذا الوضع. لن أتمكَّن أبدًا من تبرير هذا الأمر، أنا خائفة.»

قالت لوسي: «إن الحياة مليئةٌ بالمتاعب.»

أجابتها الآنسة موريس الصغيرة وهي تجري فوق العُشب: «على أي حال، أظن أنَّني أصبحتُ الآن أستوعب جيدًا مغارز العضلات.»

دار بخَلَد الآنسة بيم أن هؤلاء أطفال لطفاء. إنهم لطفاء ونظفاء وأصحاء. والبقاء هنا شيء ممتع. تلك البقعة الظاهرة في الأفق هي دخان صادرٌ من مدينة لاربورو. وسيكون هناك بقعة مشابهة في سماء لندن. من الأفضل بكثير الجلوس هنا، حيث تخترق أشعة الشمس الهواء المحمَّل برائحة الورود، وأن تحظى بابتسامات ودية من هؤلاء الصغار الودودين. دفعت الآنسة بيم قدميها الصغيرتين الممتلئتين بعيدًا عنها قليلًا، تتأمَّل باستحسان ضخامةَ المنزل القديم ذي الطراز الجورجي الذي كان يلمع في ضوء الشمس على الجانب الآخر من الحديقة، وشعرت بالأسف لوجود أجنحة حديثة مبنية من الطوب بطريقة تفسد هذا التناغم، ومع ذلك، فقد اعتبرت أن مظهر أبنية لايز الحديثة كان مقبولًا بما يكفي مقارنةً بالأبنية الحديثة الأخرى. فغرف المحاضرات في المنزل القديم كانت متناسقة تناسقًا رائعًا، وكذلك غرفُ النوم الصغيرة الحديثة في الأجنحة. إنه ترتيب مثالي. وكان المبنى القبيح للصالة الرياضية مُخبئًا جيدًا وراء كل هذا. قبل أن تغادر يوم الإثنين، عليها أن تشاهد طالبات السنة النهائية وهن يتدربن في صالة الألعاب الرياضية. ففي ذلك متعتان لها. متعة مشاهدة تدريب الرياضيين على أكمل وجه، ومتعة لا تُوصف لمعرفة أنها لن تُضطر أبدًا طوال حياتها أن تتسلق هذه الجدران بنفسها.

بينما كانت لوسي تتأمَّل المشهد، ظهرت من زاوية المنزل فتاةٌ قادمة ترتدي فستانًا من الحرير المزيَّن بالورود، وقبَّعة بسيطة واسعة الحواف توفر ظلًّا وافرًا. كانت الفتاة رشيقة وأنيقة، وعندما شاهدتها لوسي تقترب أدركت أنها كانت تتخيَّل دون وعي أن الأمريكيين الجنوبيين ممتلئون ويانعون. وأدركت أيضًا سبب تسميتها بالفطيرة وابتسمت. علِمت لوسي أن الثوب الذي ترتديه طالبات لايز الجادات خارج الكلية لا يكون مزينًا بالورود، وليس مكشوفًا إلى هذا الحد، ولن يضعن أبدًا، أوه أبدًا، قبعاتٍ واسعة الحواف توفر ظلًّا وافرًا كهذه القبعة.

قالت ديستيرو: «مساء الخير يا آنسة بيم. أنا تيريزا ديستيرو. أعتذر عن عدم حضور محاضرتك الليلة الماضية. كان لدي درس في لاربورو.» وخلعت قبَّعتها على مهل وبتأنُّق تمرَّست عليه، وجلست بنعومة وانسيابية على العشب بجوار لوسي. كان كل شيء فيها ناعمًا وانسيابيًّا؛ صوتها، وطريقة كلامها المتأنية، وجسدها، وحركاتها، وشعرها الداكن، وعيناها العسليتان.

«درسٌ؟»

«درسٌ في الرقص؛ للفتيات اللاتي يعملن في المحال. إنهن جادات للغاية، ودقيقات للغاية، ومهاراتهن في الرقص سيئة للغاية. سوف يُعطينَني علبة شوكولاتة الأسبوع المقبل، بمناسبة آخر حصة في الموسم، ولأنهن يُحبِبنَني، ولأن ذلك في النهاية فعلٌ مُتعارف عليه، ولكني سأشعر أن ذلك ليس من حقي. فأنا لم أنجح في تعليمهن الرقص جيدًا. لا أحد يستطيع تعليمهن الرقص.»

«أعتقد أنهن يستمتعن بوقتهن. هل هذا شائع؟ أقصد أن تعطي الطالبات هنا دروسًا خارجية؟»

«كلنا يفعل ذلك بالطبع. هذه الطريقة التي نتدرَّب بها. نتدرَّب في المدارس والأديِرة والنوادي وما شابه. ألا تحبين لعبة الكريكِت؟»

أوضحت لوسي، التي فوجئت بالتغيير المفاجئ للموضوع، أنها لا تستمتع بلعبة الكريكِت إلا عندما يكون معها كيس من الكَرز. وقالت لديستيرو: «لماذا لا تلعبين معهن؟»

«أنا لا ألعب أيَّ ألعاب. فالركض خلف كرة صغيرة أمرٌ سخيف للغاية. لقد جئت إلى هنا للرقص. إنها كلية رقص جيدة للغاية.»

قالت لوسي إنه بالتأكيد هناك مدارس باليه في لندن تقدِّم مستوى تدريبٍ أعلى بكثير من كليةٍ للتدريب البدني.

«أوه، يجب الالتحاق بها في سن صغيرة، وأن تكون الفتاة ذات موهبة كبيرة. وأنا ليس لديَّ موهبة كبيرة في الرقص، أنا فقط شغوفة به.»

«وستصبحين مُدرِّسة للرقص إذن، عندما تعودين إلى ... البرازيل، أليس كذلك؟»

قالت الآنسة ديستيرو ببساطة: «أوه، لا، سأتزوج. لقد جئت إلى إنجلترا لأنني كنت في علاقة حُب غير سعيدة. كان رائعًا، لكنه غير مناسب تمامًا. لذلك أتيت إلى إنجلترا لأتجاوز الأمر.»

«هل والدتك إنجليزية، ربما؟»

«لا، والدتي فرنسية. جَدتي هي الإنجليزية. أنا أعشق الشعب الإنجليزي. حتى هنا ...» ورفعَتْ يدَها الرشيقة مُميلةً كفَّها إلى أسفل، ورُسْغُها يرتفع لأعلى وكأنَّه يقود حركة يدِها، ثم حرَّكتها مُشيرةً بجانب يدها إلى رقبتها ... وأردفت: «هم مليئون بالرومانسية، ومن هناك إلى أعلى لديهم إدراك سليم. ذهبتُ إلى جَدتي، وبكيت على أفضل كراسيها المصنوعة من الحرير، وقلت: «ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟» أقصد مع حبيبي. فقالت: «عليك التوقُّف

عن البكاء وأن تخرجي من البلاد.» لذلك قلت إنني سأذهب إلى باريس وأعيش في حُجرة وأرسم صورًا لِعَينٍ وصَدَفٍ على طبق. لكنها قالت: «لن تفعلي ذلك. ستذهبين إلى إنجلترا وتعملين بجِد.» لذا، لأنني دائمًا ما أستمع إلى جَدتي، وبما أنني أحب الرقص وأنا ماهرة جدًّا فيه، فقد جئت إلى هنا. إلى لايز. في البداية نظرنَ إليَّ نظرةَ شك عندما قلت إنني أردت فقط الرقص ...»

هذا ما كانت لوسي تفكِّر فيه. كانت تتساءل كيف لفتاة ساحرة غريبة الأطوار كهذه أن تحظى بالترحيب في هذه الكلية الإنجليزية الجادة، مكان تركِّز فيه الطالبات على بدء حياتهن المهنية؟

«... لكن إحدى الطالبات تعرَّضت لانهيار أثناء تدريبها ... وهو ما يحدث غالبًا، وهو أمرٌ غير مستغرَب ... وقد ترك ذلك مكانًا شاغرًا في البرنامج، وهو ما لم يكن أمرًا مثاليًّا. لذا قالوا: «حسنًا، لتأخذ هذه المرأة البرازيلية الغريبة الأطوار غرفةَ كينيون وندعها تحضُر الفصول الدراسية. لن يسبب ذلك أيَّ ضرر، وسيضمن ملء جميع الأماكن في الفصول الدراسية كما هو مخطَّط».»

«إذن هل بدأت كطالبة في السنة النهائية؟»

«للرقص، نعم. لقد كنت بالفعل راقصة. لكنني درست علم التشريح مع طالبات السنة الأولى. أجد دراسةَ العظام ممتعة. وحضرت محاضراتٍ أخرى كما أرغب. لقد حضرتُ جميع المواد. باستثناء السباكة. أجد السباكة غير ممتعة.»

افترضت الآنسة بيم أنها تعني بـ «السباكة» علم حفظ الصحة. وقالت: «وهل استمتعتِ بالتجربة؟»

قالت ديستيرو: «إنها تجربة ثريَّة. وهن ساذجات جدًّا، أقصد الفتيات الإنجليزيات. فهن مثل الأطفال في سن التاسعة.» ثم لاحظت الابتسامة المتشككة على وجه الآنسة بيم: بو ناش لم تبدو ساذجة على الإطلاق. وأردفت: «أو فتيات في الحادية عشرة من العمر. إنهن «مهووسات». أتعرفين ما «الهوس»؟» فأومأت الآنسة بيم برأسها موافقة. فأكملت: «يُغمى عليهن إذا تحدَّثت السيدةُ لوفيفر بلطفٍ معهن. ويُغمى عليَّ أنا أيضًا، لكن من المفاجأة. إنهن يدَّخِرن أموالهن لشراء الزهور لفروكن، التي لا تفكر إلا في ضابط بحري في السويد.»

سألت لوسي بدهشة: «وكيف عرفتِ ذلك؟».

«إنه على طاولتها. في غرفتها. أعني، صورته. وهي من أوروبا القارية. فالـ «هوس» ليس من طبيعتها.»

قالت لوسي: «هذه طبيعة الألمان. إنهم مشهورون بذلك.»

قالت ديستيرو: «إنهم شعبٌ غير رزين»، رافضة العِرق التوتوني. وأردفت: «السويديون ليسوا كذلك.»

«لكني أتوقَّع أنها تسعد بمبادرات الفتيات البسيطة المتمثلة في تقديمهن للزهور لها.»

«بالطبع، هي لا تُلقيها من النافذة. لكنني لاحظت أنها تفضِّل الفتيات اللائي لا يقدِّمن لها الزهور.»

«أوه؟ إذن هناك بعض الفتيات اللاتي ليس لديهن هوس؟»

«نعم. القليل. الاسكتلنديات، على سبيل المثال. لدينا هنا فتاتان اسكتلنديتان. إنهما مشغولتان جدًّا في التشاجر، بحيث لا يملكون أيَّ مشاعر إضافية.» تحدَّثَتْ عنهما كما لو كانا أرنبَين.

«التشاجر؟ لكنني اعتقدت أن الاسكتلنديين يدعم بعضهم بعضًا بغضِّ النظر عن مكان وجودهم.»

«ليس إذا كانوا ينتمون إلى مناطقَ بها رياح مختلفة.»

«رياح؟»

«إنها مسألة مناخية. نراها كثيرًا في البرازيل. فالأشخاص الذين يعيشون في مناطقَ يكون صوت الرياح فيها آ-آ-آ-آه» [فتحت فمَها المزيَّن بأحمر الشفاه وأخرجت نفسًا رقيقًا وهامسًا] «تكون لهم شخصية معينة. لكن الذين يعيشون في مناطقَ يكون صوت الرياح فيها س-س-س-س-سس» [أطلقت الزفيرَ بشراسة عبر أسنانها] «تكون لهم شخصيات مختلفة تمامًا. في البرازيل، يختلف صوت الرياح باختلاف الارتفاع، وفي اسكتلندا، يختلف صوت الرياح في الساحل الغربي عنها في الساحل الشرقي. لقد سمعت صوت الرياح خلال عطلة عيد الفصح في اسكتلندا، ففهمت طبيعة شخصية الاسكتلنديين. وكامبل تأتي من منطقة صوت الرياح فيها آ-آ-آ-آه؛ لذا فهي كسولة، وتحكي الأكاذيب، ولديها الكثير من الجاذبية المصطنَعة. أما ستيوارت فتأتي من منطقة صوت الرياح فيها س-س-س-س-سس؛ لذلك فهي صادقة ومجتهدة، ولديها ضمير يقِظ.»

ضحكت الآنسة بيم. وقالت: «وفقًا لكلامك، فإن الساحل الشرقي لاسكتلندا مأهولٌ بالكامل بالقديسين.»

«أفهم أن هناك أيضًا سببًا شخصيًّا لهذا التشاجر. وهو سبب متعلِّق بسوء استغلال الضيافة.»

«تقصدين أن إحداهن ذهبت إلى منزل الأخرى لقضاء عطلة و... أساءت التصرف؟» تخيَّلت لوسي بوضوح سيناريوهاتٍ تتضمَّن علاقات غير شرعية وملاعق مسروقة وحروق سجائر على الأثاث.

«لا، لقد حدث هذا منذ أكثر من ٢٠٠ عام. في الثلوج العميقة، عندما وقعت المجزرة.» وشدَّدت ديستيرو على كلمة «مجزرة.»

فضحكت لوسي بشدة. عجيب التفكير في أن عائلة كامبل لم تتجاوز حتى الآن مجزرة جلينكو! كم هم ضيقو الأفق هؤلاء السِّلتيون.

جلست لوسي تائهةً في التفكير مدةً طويلة بشأن السِّلتيين، حتى نظرت إليها ديستيرو وقالت: «هل أنتِ هنا لدراستنا لأغراض علمية يا آنسة بيم؟»

أوضحت لوسي أنها والآنسة هودج صديقتان قديمتان، وأن زيارتها كانت لقضاء عطلة فقط. قالت لوسي بلطف: «إلى جانب ذلك، أشك في أن تكون دراسة طالبات في كليةٍ للتدريب البدني أمرًا مثيرًا للاهتمام من الناحية النفسية.»

«لا؟ لماذا؟»

«لأن الطالبات هنا أسوياء جدًّا ولطفاء جدًّا. لا شيء غير مألوف.»

علا وجهَ ديستيرو ابتسامةٌ خفيفة، وكأنها سمعت شيئًا مضحكًا، وهو أول تعبير أظهرته حتى الآن. والمثير للدهشة أن هذا أزعج لوسي، كما لو كانت أيضًا قد أُدينت بكونها ساذجة.

«ألا تتفقين معي؟»

«أحاول التفكير في أي طالبة — أي من طالبات السنة النهائية — سوية. هذا ليس بالأمر السهل.»

«كيف؟»

«أنتِ تعرفين كيف تعيش الطالبات هنا. وتعرفين كيف يعملن. من الصعب أن تقضي الطالبات سنوات تدريبهن، وأن يظلَلن سويَّات تمامًا بحلول الفصل الدراسي الأخير.»

«هل تقصدين أن الآنسة ناش ليست سوية؟»

فأجابت ديستيرو سريعًا: «أوه، بو. إنها شخص قوي الذهن؛ لذا ربما كانت معاناتها أقل. لكن هل يمكنك القول إن صداقتها مع إينيس سوية تمامًا؟ إنها صداقة لطيفة، بالطبع، لا غبار عليها. لكن سوية، لا. فهي مثل علاقة ديفيد وجوناثان. إنها صداقة تغمرها السعادة، بلا شك، ولكنها صداقة» ولوَّحت ديستيرو بذراعها للعثور على الكلمة

المناسبة، ثم أردفت «تستبعد الأخريات. الأمر نفسه ينطبق على القرينات الأربع، غير أنهن أربع.»

«القرينات الأربع؟»

«ماثيوز، ووايمارك، ولوكاس، وليتلجون. لقد التحقنَ جميعًا بالكلية معًا بسبب أسمائهن. والآن، صدِّقيني، يا عزيزتي الآنسة بيم، فهن يفكرن سويًّا. ويُقِمن في الغرف الأربع الموجودة في السطح» — وأمالت رأسها باتجاه النوافذ الأربع في سقف الجناح — «وإذا طلبتِ من أيٍّ منهن أن تعيرك دبوسًا»، فستقول لكِ: «ليس لدينا دبوس.»

«حسنًا، وماذا عن الآنسة ديكرز؟ ما مشكلتها؟»

أجابت الآنسة ديستيرو بطريقة جافة: «توقَّفَ نموُّها.»

قالت لوسي: «كلام فارغ!» كانت لوسي مصمَّمة على الدفاع عن وجهة نظرها. وأردفت: «إنها فتاة سعيدة وبسيطة وغير معقَّدة، وتتمتَّع بالحياة والعالم. سوية تمامًا.»

ابتسمت فطيرة المكسرات فجأة، وكانت ابتسامتها حقيقية وتلقائية. قالت: «حسنًا، يا آنسة بيم، سأوافقك الرأي فيما يتعلَّق بديكرز. لكن دعيني أذكرك أن هذا هو الفصل الدراسي الأخير لهن. وكل شيء مُبالغٌ فيه مبالغة كبيرة. فالجميع مجنون قليلًا. أؤكد لكِ أن هذا صحيح. إذا كانت إحدى الطالبات تخاف بطبيعتها، فستصبح خائفةً أكثر بألف مرة هذا الفصل الدراسي. وإذا كانت طموحة، فسيتحول طموحها إلى شغف. وهكذا.» واعتدلت في جِلستها لتلخِّص ما قالته. قالت: «إن الحياة التي يعشنها هنا ليست حياةً سوية. فلا يمكن أن تتوقعي منهن أن يكُنَّ أسوياء.»

الفصل الرابع

«لا يمكنكِ أن تتوقَّعي منهن أن يكُنَّ أسوياء»، أعادت الآنسة بيم في ذهنها هذه الجملة، وهي تجلس في المكان نفسِه بعد ظهيرة يوم الأحد تنظر إلى مجموعة من الوجوه الشابة السعيدة والسوية للغاية، المجتمعة أسفلَ منها على الحشائش. وظلَّت تجول بناظريها فيهن بسرور. إذا لم تكُن أيٌّ منهن مميزة، فعلى الأقل ليس بينهن لئيمة. ولم يكن هناك أي آثار للمرض، أو حتى الإرهاق، في حيويتهن المتجلية على بشرتهن المحترقة من الشمس. هؤلاء هن الطالبات اللاتي أكملنَ بنجاح دورةً تدريبية صعبة — حتى إن هنرييتا اعترفت بذلك — وقد جعل المستوى المتميز للطالبات الآنسةَ بيم تعتقد أن الصعوبات المتكبَّدة ربما استحقَّت هذا العناء.

كانت مستمتعة بملاحظة أن القرينات الأربع، بعد أن عِشنَ معًا مدةً طويلة، بدأنَ يُصبحن متشابهات إلى حدٍّ ما؛ كما يحدث بين الأزواج والزوجات في كثير من الأحيان، مهما اختلفت الملامح. فقد بدا أن لديهن جميعًا الوجه المستدير نفسه بالتعبير ذاته الذي ينُمُّ عن الترقُّب والشغف؛ إلا أنه لا يمكن ملاحظة الفروقات في البنية الجسمانية ولون البشرة إلا في وقت لاحق.

واستمتعت أيضًا بملاحظة أن توماس، التي كانت نائمة، كانت بلا شك من ويلز؛ فهي صغيرة الحجم وذات بشرة داكنة، تمامًا مثل السكان الأصليين. ولاحظت أن أودونيل، التي ظهرت الآن بعد أن سُمع صوتها في الحمَّام، هي أيضًا بلا شك فتاة أيرلندية؛ فهي ذات رموش طويلة، وبشرة ناعمة، وعينين رمادتين واسعتين. كانت ملامح الفتاتين الاسكتلنديتين — اللتين كانتا مفصولتين بأبعد مسافة ممكنة تسمح لهما بأن يكونا جزءًا من المجموعة — أقلَّ دلالةً على كونهما من اسكتلندا. ستيوارت هي الفتاة ذات

الشعر الأحمر التي تقطع الكعكة الموجودة في أحد الصحون الموضوعة على الحشائش. كانت تقول بصوتها اللطيف بلهجة أهل إدنبرة الرائعة: «إنها من كروفوردز؛ لذلك، أنتم المساكين الذين لا يعرفون سوى بوزاردز، ستحظَون بمكافأة على سبيل التغيير!» وكانت كامبل، المستندة إلى جذع شجرة الأرز وهي تأكل خبزًا وزبدة ببطء، تتمتع بخدين ورديين وشعر بُنِّي وجمال يكتنفه غموض.

باستثناء هاسيلت، وهي فتاة من جنوب أفريقيا، ذات وجه بسيط هادئ يشبه وجوه البدائيين الأوائل، كانت بقيةُ طالبات السنة النهائية، كما قالت الملكة إليزابيث، «مجرَّد إنجليز».

وكان الوجه الوحيد المختلف إلى حدٍّ ما، قياسًا على المظهر الجذاب، هو وجه ماري إينيس، الصديقة المقرَّبة لبو ناش. وقد سُرَّت الآنسة بيم بهذا الأمر سرورًا عجيبًا. شعرت الآنسة بيم أنه من المناسب أن تتخذ بو صديقة تتمتَّع بشخصية جذابة إلى جانب مظهرها الجذاب. وهذا لا يعني أن إينيس كانت لديها جاذبية خاصة. فقد كان حاجباها المنخفضان على عينيها يعطيان وجهها تعبيرًا حادًّا وجادًّا، مما يسلب جمالَ تكوين وجهها البهاءَ الذي كان يمكن أن يمتلكه. وعلى عكس بو، المرِحة البشوشة، كانت إينيس هادئة، ولم ترَها الآنسة بيم تبتسم حتى الآن، على الرغم من أنهما قد أجْرَتا محادثة تُعَد من المحادثات الطويلة مقارنةً بما هو متوقَّع في هذا المحيط الاجتماعي. دارت هذه المحادثة الليلة الماضية، عندما كانت الآنسة بيم تبدِّل ملابسها بعد أن قضت المساء بصحبة هيئة التدريس. فسمعت طَرقًا على باب غرفتها، وقالت بو: «جئت فقط لأتأكد أن لديك كلَّ ما تحتاجينه. وأيضًا لأقدِّم لكِ ماري إينيس التي تقيم في الغرفة المجاورة لكِ. إذا أردتِ مساعدةً في أي وقت، فستكون إينيس في الخدمة.» وتمنَّت لها ليلة هانئة ورحلت تاركةً إينيس لتنهي الحديث مع لوسي. لمست لوسي في إينيس جاذبيةً وحِدَّة ذكاء، ولكنها شعرت بشيء من عدم الارتياح في وجودها. فلم تكن إينيس تكلِّف نفسها عناءَ الابتسام إذا لم تكن تشعر بالرغبة في ذلك، ورغم أنها ودودة وهادئة لم تبذل أيَّ جهد لتكون مُسلية. ففي الأوساط الأكاديمية والأدبية التي تردَّدت عليها لوسي مؤخرًا، لم يكن هذا أمرًا لافتًا للانتباه، لكن في بيئة الكلية المفعمة بالحيوية والزَّخم، كان هذا السلوك يوحي بالرفض. فهو أقرب إليه. لم تكن إينيس بالتأكيد ترفض لوسي ولا كتابها «خواطر في علم النفس».

نظرت لوسي إليها حينئذٍ وهي جالسة في ظل شجرة الأرز، وتساءلت عما إذا كانت ماري إينيس لا تجد الكثير من المتعة في الحياة. لطالما افتخرت لوسي بتحليلها لملامح الوجه،

وبدأت في الآونة الأخيرة في وضع قدرٍ كبيرٍ من الثقة في مهارتها هذه. فلم تصادف قط، على سبيل المثال، حواجبَ تبدأ من مستوًى منخفض فوق الأنف وتنتهي عاليًا في الطرف الخارجي دون أن تكتشف أن صاحبها كان لديه عقل ماكر متآمر. وشخصٌ ما — هل كان جان جوردن؟ — لاحظ أنه من بين الحشود حول الخطيب في المتنزهات كان الأشخاص ذوو الأنوف الطويلة هم مَن يبقون للاستماع، والأشخاص القصيرو الأنف هم مَن يمشون. والآن، بالنظر إلى حاجبي ماري إينيس المستقيمين وفمها المتخشِّب، تساءلت عما إذا كان التركيز الذي تُبديه الفتيات على هدفهن قد حال دون ضحكهن. لم يكن بطريقةٍ ما وجهًا معاصرًا على الإطلاق. بل كان ... كان ماذا؟

صورة من كتاب تاريخ؟ لوحة في معرض؟

إنه ليس، على أي حال، وجهَ مدرِّسة ألعاب في مدرسة للبنات. بالطبع لا. فالأشخاص الذين يمتلكون وجوهًا مثل وجه ماري إينيس هم مَن يكون لهم تأثير كبير على مجرى الأحداث.

من بين كل الوجوه التي كانت تنظر إليها باستمرار ثم تشيح ببصرها للثرثرة مع الزميلات وممازحتهن، لم يكن هناك سوى وجهين يمكن الإعجاب بهما أو الانجذاب إليهما على الفور. الأول هو وجه كامبل؛ وجه خاضع جدًّا، يفتقر إلى الثقة بالنفس، وعلى استعداد لإرضاء الجميع. والوجه الآخر هو وجه فتاة تُدعى راوس؛ كان وجهًا به كَلَفٌ وبدَت الفتاة حذِرة في التعامل ومترقبة.

جاءت راوس متأخرة إلى حفل الشاي، وتسبَّب قدومها في صمت مؤقت غريب. فذَكَّر هذا لوسي بالسكون المفاجئ الذي يحل على الطيور المُغردة عندما يحوم حولها الصقر. لكن هذا الصمت لم يكن مقصودًا، ولم يكن وراءه أي سوء نية. بدا الأمر كما لو أن الفتيات توقفن هنيهةً عن الكلام لملاحظة وجودها، لكن لم تكن أيٌّ منهن مهتمة بما يكفي لدعوتها إلى دائرة المحادثة الخاصة بهن.

قالت راوس: «آسفة على التأخير.» وخلال فترة الصمت الوجيزة، سمِعت لوسي هذا التعليق المقتضَب: «مهووسة بالمذاكرة»، واستنتجت أن الآنسة راوس كانت منهمكة في دراستها ولم تستطِع ترْكَ الكتب. قدَّمتها ناش، وجلست على الحشائش مع الجميع. وتدفقت المحادثات التي كانت قد انقطعت. شعرت لوسي، التي لطالما شعرت بالتعاطف مع أولئك الذين يُستبعَدون، في البداية بالشفقة على الآنسة راوس التي وصلت متأخرة، ولكن بعد مزيد من الملاحظة لملامحها، التي كانت تدل على أنها من المنطقة الشمالية،

اقتنعت أن تعاطفها كان في غير محله. إذا كانت كامبل ذات الوجه الوردي خاضعةً لدرجة لا يمكن معها أن تكون محبوبة، فإن راوس كانت على النقيض منها تمامًا. وشعرت لوسي أن شخصًا قويًّا وحازمًا فقط يمكن أن يترك انطباعًا على الآنسة راوس.

قالت ديكرز، التي تعاملت مع لوسي على أنها أحد معارفها القدامى دون أي تردد: «لم تُجرِّبي الكعكة التي جلبتها»، وكانت الآن جالسة وظهرها مسند إلى كرسي لوسي، ورجلاها ممدودتان أمامها، مثل الدمية.

سألت لوسي: «أيها كعكتك؟» وهي تنظر إلى المأكولات الخفيفة المختلفة في العلبة، التي برزت وسط مأكولات المدرسة التقليدية، مثل الخبز والزبد وكعك «الأحد»، مثل بدلات باهظة الثمن في معارض المقاطعة.

يبدو أن ما أحضَرَتْه ديكرز هو شطيرة الشوكولاتة مع كريمة الزبدة. قرَّرت لوسي أنه في سبيل الصداقة (وقليلًا في سبيل الشَّرَه) سوف تنسى وزنها هذه المرة.

«هل تحضرين دائمًا كعكاتك الخاصة إلى حفل الشاي يوم الأحد؟»

«أوه، لا، هذا على شرفك.»

ضحِكت ناش الجالسة إلى الجانب الآخر من الآنسة بيم. وقالت: «ما ترينَه أمامك يا آنسة بيم هو مجموعة من الطالبات اللاتي لديهن ما يخفين. لا توجد طالبة تدريبٍ بدني لا تأكل في الخفاء.»

«لم تكن هناك لحظة في مسيرتي الجامعية كلها، يا عزيزاتي، لم أكن أتضوَّر فيها جوعًا. فقط الخجل هو ما يجعلني أتوقَّف عن الأكل في الإفطار، وبعد نصف ساعة أُصبِح جائعة بما يكفي لأكل حصان القَفز في صالة الألعاب الرياضية.»

بدأت راوس في التحدُّث قائلة: «ولهذا السبب فإن جريمتنا الوحيدة هي …» عندما ركلتها ستيوارت على ظهرها بشدة لدرجة أنها كادت أن تسقط إلى الأمام.

أكملت ناش ساخرةً جملةَ راوس غير المكتملة: «وضعنا أحلامنا تحت قدميك. وهي بمنزلة سجادة غنية بالكربوهيدرات، تأكَّدي من ذلك.»

قالت ديكرز: «لقد أجرينا أيضًا نقاشًا جادًّا حول إن كان يجب أن نرتدي ملابس أنيقة لمقابلتك أم لا»، بينما كانت تقطع شطيرة شوكولاتة للآخرين، ولم تكن على دراية بأنها قالت شيئًا غير لائق اجتماعيًّا. وأردفت: «لكننا توصلنا إلى أنه لا يبدو عليكِ أنك صعبة الإرضاء للغاية.» أثار تعليقها الضحكات، فسرعان ما أضافت: «أعني ذلك بأكثر معنًى إيجابي. توصلنا إلى أنك ستحبيننا كما نحن.»

كانت الفتيات يرتدين كل أنواع الملابس؛ حسب ذوق مَن يرتديها أو ما تقتضيه المناسبة. فارتدَت بعضهن سراويل قصيرة، وارتدت أخريات ستراتٍ من الكتان الأزرق، وأخريات فساتين من الحرير القابل للغسل ذات ألوان فاتحة مناسِبة. لم تكن هناك ملابس من الحرير المزهر؛ إذ كانت ديستيرو تحتسي الشاي مع راهبات دير في لاربورو.

قالت جيدج، التي بدَت وكأنها دمية خشبية، وكانت صاحبة الشعر الأسود الذي ظهر من نافذة الفناء في الساعة الخامسة والنصف من صباح أمس، وكانت تتوسَّل إلى إحداهن أن تلقي شيئًا على توماس، ومن ثَم وضْع حدٍّ لعويل ديكرز: «علاوة على ذلك، بقدرِ ما نود أن نكرمك يا آنسة بيم، فإن كل لحظة لها أهميتها مع الاقتراب الشديد لموعد اختبارات نهاية العام. حتى طالبات السنة النهائية في التدريب البدني اللاتي يُجِدن تغيير ملابسهن بسرعة يحتجن إلى خمس دقائق كاملة لارتداء ملابس يوم الأحد الأنيقة، وبقبولكِ لنا كما نحن، بملابسنا البسيطة، تكونين قد ساهمتِ …» وتوقَّفت مؤقتًا لعدِّ الحاضرات وإجراء بعض العمليات الحسابية الذهنية «… ساهمتِ بساعة و٢٠ دقيقة في حصيلة المعرفة البشرية.»

قالت ديكرز وهي تلعق بلسانها المدرَّب قطعةً من طبقة الزبد البارزة: «يمكنكِ طرْح الدقائق الخمس الخاصة بي من هذا الرقم يا عزيزتي. لقد قضيتُ فترة الظهيرة بأكملها أذاكر القشرة الدماغية، ولم أتوصَّل إلا إلى اقتناعٍ تامٍّ بأنني شخصيًّا لا أملك قشرة دماغية.»

قالت كامبل، الفتاة الاسكتلندية التي تفهم الكلام حرفيًّا، بلهجة جلاسكو الثقيلة، التي تشبه الدِّبس الذي يسيل من ملعقة: «بالتأكيد لديك قشرة دماغية.» لكن لم ينتبه أحدٌ إلى هذا التعليق البديهي.

قالت أودونيل: «أنا شخصيًّا أعتقد أن الزغابات هي الجزء الأكثر صعوبةً في علم وظائف الأعضاء. تخيَّلي رسم مقاطع عرضية لشيء يتكوَّن من سبعة أجزاء مختلفة ويقل ارتفاعه عن ٢٠ بوصة!» سألت لوسي: «لكن هل يجب أن تَدرُسن الجسمَ البشري بكل هذه التفاصيل؟»

قالت توماس التي كانت نائمة: «نفعل ذلك صبيحة كل ثلاثاء. وبعد ذلك يمكننا أن ننسى تلك التفاصيل بقيةَ حياتنا.»

تساءلت لوسي، التي تذكَّرت قرارها بالذهاب إلى صالة الألعاب الرياضية في صباح يوم الإثنين، إن كانت الأنشطة البدنية تتوقَّف خلال أسبوع الاختبارات النهائية أم لا. أوه، لا، طمأنتها الفتيات. ليس عندما لا يبقى سوى أسبوعين فقط على العرض. وقد أُبلغت

لوسي أن العرض كان يمثل تحديًا يأتي تقريبًا في المرتبة الثانية بعد الاختبارات النهائية من حيث الصعوبة.

قالت إحدى القرينات الأربع: «يأتي جميع آبائنا، و...»

قاطعتها الثانية: «تقصدين أبوَيْ كلٍّ منا.»

«... والأشخاص من الكليات المنافسة، وجميع ...»

أكملت الثالثة: «جميع الأشخاص البارزين في لاربورو.» يبدو أنه عندما تبدأ إحدى القرينات الأربع في الكلام، تتبعها الطالبات الثلاث الأخريات تلقائيًّا.

أنهت الرابعة الجملة قائلة: «وجميع أصحاب النفوذ في المقاطعة.»

قالت الطالبة الأولى مقدمةً ملخصًا لكلِّ ما قيل: «إنه كابوس.»

قالت راوس: «أنا أحب العرض.» فعمَّ السكون الغريب مرةً أخرى.

كان السكون غير عدائي. بل هو مجرد عدم اكتراث. اتجهت أنظار المجموعة إليها، وانصرفت عنها دون ظهور أي تعبير على وجوههن. لم يُعَلِّق أحدٌ على ما قالته. وتسبَّبت هذه اللامبالاة في شعورها بالعُزلة في هذه اللحظة.

وأضافت راوس بنبرةٍ يشوبها شيء من ردة الفعل الدفاعية: «أعتقد أنه من الممتع أن نُظهِر قدراتنا للآخرين.»

تجاهلت المجموعة هذه الجملة أيضًا. لم تشهد لوسي من قبل مثل هذا الصمت التام والقاسي من الإنجليز. وبدأت تشعر بعدم الارتياح بسبب تعاطفها مع راوس.

لكن راوس لم يكن من السهل أن يصيبها الإحباط. وكانت تنظر إلى الأطباق التي أمامها، وتمد يدها لتلتقط شيئًا تأكله. سألت: «هل تبقَّى شاي في الإبريق؟»

انحنت ناش إلى الأمام نحو الإبريق البُني الكبير، بينما واصلت ستيوارت الحديث من حيث توقَّفت القرينات الأربع.

«الكابوس الحقيقي هو الانتظار لمعرفة نتيجة اليانصيب الخاص بالشواغر.»

قالت لوسي: «الشواغر؟» وأردفت: «أتقصدين الوظائف؟ لماذا اليانصيب؟ ألا تعلمون الوظائف التي تتقدمون إليها؟»

قالت ناش، وهي تسكب الشاي الأسود الفاحم: «يحتاج القليل منَّا فقط إلى التقدُّم إلى وظائف. عادةً ما توجد وظائفُ شاغرة كافية في المدارس. تُكتب فقط الأماكن التي عمِلت بها خرِّيجات لايز من قبلُ إلى الآنسة هودج عندما تكون هناك وظيفة شاغرة، وتطلب منها ترشيح إحدى الطالبات. وإذا كانت هذه الوظيفة تحتاج إلى شخصٍ ذي خبرة، فقد تعرضها

على إحدى الطالبات القدامى اللاتي يرغبن في التغيير. ولكن عادةً ما تشغل الخريجات الجدد هذه الوظائف.»

قالت إحدى القرينات الأربع: «ويحصلن على فرصة جيدة جدًّا.»

قالت الثانية: «لا أحد يعمل بجِد كشخص تسلَّم وظيفته للتو.»

أكملت الثالثة: «مقابل مبلغ أقل من المال مقارنةً بغيرهم.»

قالت الرابعة: «وبحماسة أفضل.»

قالت ستيوارت: «كما ترين، فإن أكثر اللحظات إيلامًا في الفصل الدراسي بأكمله هي عند استدعائك إلى غرفة الآنسة هودج وإعلامك بمصيرك.»

قالت توماس التي من الواضح أنها كانت تتخيَّل جلوسها مجددًا عاطلةً عن العمل في منزلها الذي يقع بين الجبال: «أو عندما يغادر قطارك لاربورو دون استدعائك على الإطلاق إلى غرفة الآنسة هودج.»».

انحنت ناش إلى الخلف وابتسمت للوسي وهي جالسة على كعبيها. «الأمر ليس قاتمًا كما يبدو. فالجميع قد ضمنوا وظائفَ بالفعل، ومن ثَم لن يشاركوا في المنافسة على الإطلاق. فهاسيلت على سبيل المثال ستعود إلى جنوب أفريقيا للعمل هناك. وقرَّرت القرينات الأربع الاشتراكَ في تقديم خدمات طبية.»

قالت إحدى القرينات الأربع: «سوف نفتتح عيادةً في مانشستر.»

«وهي مدينة تنتشر فيها الأمراض الروماتيزمية بكثرة.»

«ومليئة بالأشخاص أصحاب التشوهات.»

وأكملت الطالبات الثلاث الأخريات تلقائيًّا: «وبالآلات النحاسية.»

نظرت ناش إليهن وابتسمت بلطف. وقالت: «وأنا سأعود إلى مدرستي القديمة لأعمل مدرِّسة ألعاب. وفطيرة الـ... وديستيرو بالطبع لا تحتاج إلى وظيفة. لذا فلا يبحث الكثير منَّا عن وظائف.»

قالت توماس وعيناها البُنِّيتان الضيقتان تلمعان في ضوء الشمس: «لن أنجح حتى إذا لم أستكمل مذاكرةَ الكبد في أسرع وقت. يا لها من طريقةٍ لقضاء أمسية صيفية.»

غيَّرت الفتيات أوضاعَ الجلوس بِتَرَاخٍ، كما لو كنَّ لا يردن التحرُّك على الإطلاق، ثم بدأن في التحدُّث مرةً أخرى. ولكن بدا أن التفكير في المذاكرة يثقل كاهلهن، وبدأن في جمع متعلقاتهن والمغادرة الواحدة تلو الأخرى، كن يتحركن ببطء وحزن مثل الأطفال البائسين الذين يمشون على العشب المضاء بنور الشمس. حتى وجدت لوسي نفسَها بعد مدة قصيرة

تجلس بمفردها في الحديقة، تشم رائحةَ الورود، وتسمع طنين الحشرات، وتستمتع بدفء الحديقة المشمسة.

جلست في سعادة بالغةٍ نصفَ ساعة وهي تراقب ظلَّ الشجرة البطيءَ وهو يزحف من فوق قدميها. ثم عادت ديستيرو من لاربورو ومشت ببطء في تأنقٍ بدا غريبًا على لوسي بعد قضائها ساعةً مع الفتيات في حفل الشاي. رأت ديستيرو الآنسةَ بيم فغيَّرت اتجاهها.

وقالت للوسي: «حسنًا، هل قضيتِ فترة الظهيرة في عملٍ مفيد؟»

قالت لوسي بشيء من السخرية: «لم أكن أبحث عن الفائدة. كان واحدًا من أمتع أوقات الظهيرة التي قضيتها.»

ظلت فطيرة المكسرات تتأملها.

قالت لها دون سبب: «أعتقد أنكِ شخص لذيذ جدًّا»، ومشت الهوينا إلى داخل المبنى.

شعرت لوسي فجأةً كما لو كانت طفلةً صغيرة، ولم يرُق لها هذا الشعور على الإطلاق. كيف تجرؤ فتاةٌ وقِحة ترتدي فستانًا مزهرًا أن تجعلها تشعر أنها عديمة الخبرة وبَلهاء!

فانتفضت من مكانها لتذهب إلى هنرييتا كي تُذكِّرها هنرييتا أنها لوسي بيم مؤلِّفة كتاب «خواطر في علم النفس»، التي ألقت محاضرات للنخبة المثقفة، وظهر اسمها في كُتيب الشخصيات البارزة، وكانت من النخبة المعروفة في مجال العقل البشري.

الفصل الخامس

سألت لوسي هنرييتا بينما كانا يصعدان السُّلم بعد تناول وجبة العشاء: «ما الجريمة التي تحدُث في الكلية؟» توقَّفت السيدتان بجوار النافذة المروحية الكبيرة على الممر العلوي لتنظرا إلى الفناء الداخلي الصغير، مما جعل الأخريات يسبقنَهما إلى غرفة الجلوس.

قالت هنرييتا دون تردُّد: «استخدام صالة الألعاب ممرًّا قصيرًا إلى مسار الساحة.»

«لا، أقصد جريمة حقيقية.»

استدارت هنرييتا لتنظر إليها بحدة. وبعد لحظات قالت لها: «عزيزتي لوسي، عندما يعمل أشخاص بجِد مثل هؤلاء الفتيات، فلن يكون لديهن الوقت للتفكير في ارتكاب جريمة أو حتى الطاقة لارتكابها. ما الذي جعلك تفكرين في هذا الموضوع؟»

«شيء قالته إحدى الفتيات أثناء حفل الشاي بعد ظهر اليوم. كانت تتحدَّث عن جريمتهن الوحيدة. كان شيئًا يتعلق بكونهن جائعات دومًا.»

«أوه، أتقصدين هذا!» استرخى جبين هنرييتا. وقالت: «سرقة الطعام. نعم، يحدث ذلك هنا بين الفينة والفينة. في أي مجتمع بهذا الحجم يظهر شخص يصعُب عليه مقاومة الإغراءات.»

«أتقصدين سرقة الطعام من المطبخ؟»

«لا، سرقته من غرف الطالبات. إنها جريمة تقوم بها طالبات السنة الأولى، وهي عادةً ما تختفي من تلقاء نفسها. إنها ليست دليلًا على الشر. بل مجرد ضَعف الإرادة. فطالبةٌ لن تفكر أبدًا في سرقة المال أو الحُليِّ، لن تستطيع مقاومة سرقة قطعة من الكعك. وخاصة إذا كان كعكًا ذا مذاق حلو. فالطالبات يستهلكن طاقةً كبيرة؛ لذا تحتاج أجسادهن إلى السُّكر بشدة، وعلى الرغم من عدم وجود حدٍّ لما يمكن لهن أن يأكلن على المائدة، فإنهن جائعات باستمرار.»

«صحيح، إنهن يبذلن جهدًا كبيرًا بالفعل. في رأيك، ما النسبة المئوية للطالبات اللاتي سيجتزن السنة النهائية؟»

أجابت هنرييتا، وهي تشير برأسها إلى مجموعة طالبات السنة النهائية اللاتي يمشين عبْر الفناء إلى الحديقة: «من بين هذه المجموعة، حوالي ٨٠ بالمائة سوف ينتهين منها. هذا هو المتوسط. فأولئك اللائي يُخفِقن في الدراسة هنا، يحدث لهن ذلك عادةً خلال الفصل الدراسي الأول، أو ربما الثاني.»

«لكن بالتأكيد ليس جميعهن. فلا بد أن الحوادث تحدث في حياةٍ مثل هذه.»

«أوه، نعم، هناك حوادث.» واستدارت هنرييتا وبدأت في صعود الدَّرَج التالي.

«تلك الفتاة التي أخذت تيريزا ديستيرو مكانها، هل وقع لها حادث؟»

أجابت هنرييتا باقتضاب: «لا، لقد انهارت.»

تعرَّفت لوسي على النبرة المألوفة التي كانت تتحدث بها هنرييتا التي كان على وجهها ابتسامةٌ كبيرة وهي تصعد السلالم الصغيرة خلف صديقتها. فهي النبرة نفسها التي اعتادت هنرييتا أن تقول بها حينما كانت رئيسة للطالبات: «وتأكدوا من عدم ترك أي أغطية مطاطية للأحذية على أرضية حجرة المعاطف.» لم تترك بهذه النبرة مجالًا لأحدٍ أن يناقشها.

كان واضحًا أن هنرييتا لا تحب التفكير في كليتها العزيزة على أنها مؤسسة قاسية أو قمعية. كانت الكلية بوابةً إلى مستقبل مشرق للفتيات المستحقات لذلك؛ وإذا وجد شخص أو اثنان البوابة خطرًا وليس فرصة، فهذا أمرٌ مؤسف، لكنه لا يعني أن بناة البوابة هم المسئولون.

قالت ناش صباح أمس: «إنها أشبه بالدير. لا وقت للتفكير في العالم الخارجي.» كان هذا صحيحًا. لقد كانت شاهدة على الروتين اليومي. ورأت أيضًا صحيفتين يوميتين خاصتين بالطالبات مُلقاتين دون فتحهما في الغرفة المشتركة الليلة الماضية، أثناء ذهابهن لتناول العشاء. لكن دير الراهبات، حتى وإن كان عالمًا محدود النطاق، فهو أيضًا مكانٌ هادئ. لا توجد به منافسة. يشعر الشخص فيه بالاطمئنان. فلا يوجد في هذه الحياة المجهدة والمضنية للغاية ما يشبه دير الراهبات. فقط ظلَّ الاستغراق في الذات هو سيد الموقف؛ محدودية النطاق.

وتساءلت هل كانت الحياة في الكلية حقًّا محدودةَ النطاق بالنظر إلى الأشخاص المتجمعين في غرفة المعيشة؟ فلو كان هذا أيَّ نوع آخر من الكليات لكان التجمع متجانسًا.

فلو كانت كليةً للعلوم، لكان التجمع يتألف من علماء؛ ولو كانت كلية لاهُوتِية، لكان التجمُّع يتألف من علماء اللاهوت. ولكن داخل هذه الغرفة الممتدة والمبهجة، بأثاثها الفاخر وأقمشتها الملوَّنة، ونوافذها الطويلة المفتوحة على مصراعيها، مما يسمح لهواء المساء الدافئ المعطَّر برائحة العُشب والوَرد أن يملأ المكان؛ تجتمع عوالمُ عديدة. فقد كانت السيدة لوفِيفْر الرشيقةُ الأنيقة المستلقية على أريكة صلبة من الطراز الإمبراطور تدخِّن سيجارةً صفراء موضوعة في حاملٍ أخضرَ؛ كانت تُجسِّد العالم المسرحي المملوء بمساحيق التجميل الثقيلة والفن والتظاهر. وجسَّدت الآنسة لوكس، التي تجلس منتصبةً على كرسي صلب، العالمَ الأكاديمي؛ عالَمَ الجامعات والكتب المدرسية والمناقشات. وتجسِّد الآنسة راج، المشغولة بصب القهوة، عالَمَ الرياضة؛ وهو عالَم بدنيٌّ وتنافسيٌّ وغير مفكِّر. وجسَّدت ضيفة الأمسية الدكتورة إينيد نايت، وهي عضو تدريس زائر، العالمَ الطبي. لم يكن العالم الأجنبي حاضرًا؛ فقد عادت سيجريد جوستافسِن مع أمها التي لا تتحدث الإنجليزية إلى غرفتها لتتحدثا معًا باللغة السويدية.

اجتمعت هذه العوالم معًا لتشكيل الطالبات اللاتي سينهين دراستهن في الكلية؛ فعلى الأقل لم يكن التدريب الذي يتلقَّونه محدود النطاق.

سألت السيدة لوفِيفْر لوسي وهي توجِّه عينيها الداكنتين الواسعتين ناحيتها: «وما هو انطباعك عن طالباتنا يا آنسة بيم بعد أن قضيتِ مدةَ بعد الظهر بأكملها معهن؟»

اعتقدَت لوسي أن السؤال كان سخيفًا للغاية، وتساءلت كيف يمكن لزوجين إنجليزيين محترمين من الطبقة الوسطى أن ينجبا شخصًا يشبه، إلى حد كبير، أولَ ثعبان في الكون مثل السيدة لوفيفر. قالت لوسي وهي سعيدة بسبب قدرتها على التعبير عن رأيها بصراحة: «أعتقد أنه لا توجد واحدة منهن لا تُمثل لايز تمثيلًا إيجابيًّا.» ولاحظت لوسي أن وجه هنرييتا الجاد قد تهلَّل. فقد تمحورت حياة هنرييتا بأكملها حول لايز. وكانت مهتمة غايةَ الاهتمام بأمرها؛ لدرجةِ أن لايز كانت لها بمنزلة الأب والأم والحبيب والابن.

قالت دورين راج التي لم يمضِ على تخرُّجها من الكلية مدةٌ طويلة، ولهذا كانت تَعُدُّ طالباتِها صديقاتٍ، قالت: «جميعهن فتيات لطيفات.»

فقالت الآنسة لوكس بلهجة قاطعة: «إنهن لا يفقَهْن شيئًا. فهن يعتقدن أن بوتيتشيلي هو نوع من الاسباجيتي.» ونظرت إلى القهوة التي قدَّمتها لها الآنسة راج بحزن عميق. وأردفت: «إذا كان الأمر يتعلق بذلك، فإنهن لا يعرفن شيئًا عن الاسباجيتي. فمؤخرًا خلال محاضرة عن التغذية، وقفت ديكرز في وسط المحاضرة واتهمتني بتحطيم تصوراتها.»

قالت السيدة لوفيفر بصوتها العميق مثل قماش من القطيفة البُنية: «تفاجئني معرفة أن أي شيء يتعلَّق بالآنسة ديكرز قابل للتحطيم.»

سألت الطبيبة الصغيرة التي تجلس على الكرسي بجانب النافذة: «وما التصورات التي قمتِ بتحطيمها؟».

«لقد أبلغتهم للتو أن الاسباجيتي والأطعمة الماثلة لها مصنوعةٌ من عجينة من الدقيق. ومن الواضح أن ذلك قد حطَّم تصوُّر ديكرز عن إيطاليا تمامًا.»

«وكيف كانت تتصورها؟»

«حقول معكرونة متموجة كما وصفتها.»

التفتت هنرييتا بعد أن أضافت مكعبين من السُّكر إلى فنجان صغير جدًّا من القهوة (إنه أمرٌ جميل، تأمَّلت لوسي بشوق، أن تمتلك جسمًا يشبه كيس الطحين وألا تنزعج من ذلك!)، وقالت: «على الأقل هن لا يرتكبن أي أعمال إجرامية.»

قال الجميع في تعجُّب: «أعمال إجرامية؟»

«سألت الآنسة بيم للتو عن الجرائم التي تحدث هنا في لايز. هذا ما يشغَل بال علماء النفس.»

قبل أن تتمكَّن لوسي من الاعتراض على هذه الصيغة لسؤالها البسيط، قالت السيدة لوفيفر: «حسنًا، دعونا نحقق رغبتها. دعونا نفرغ محتويات حقيبة ماضينا المخزية. ما الأعمال الإجرامية التي حدثت هنا؟»

تطوَّعت الآنسة راج بالإجابة قائلة: «في عيد الميلاد الأخير، واجهَتْ فارثينج عقوبةً لركوبها دراجتها دون إضاءة مناسبة.»

قالت السيدة لوفيفر: «نحن نتحدَّث عن جرائم. جرائم كبيرة. لا نتحدث عن مخالفات بسيطة.»

«إذا كنتن تقصدن جريمةً حقيقية، فهناك تلك الفتاة السيئة التي كانت مهووسة بالرجال، وكانت تقضي مساء السبت في التسكع حول بوابة الثكنات في لاربورو.»

قالت الآنسة لوكس وهي تتذكر: «صحيح. وماذا حدث لها بعد أن فصلناها، هل يعرف أحد؟»

قالت هنرييتا: «تتولَّى تقديم الطعام في ملجأ البحَّارة في بليموث»، وفتحت عينيها عندما ضحِك الجميع. وقالت: «لا أعرف ما المضحك في ذلك. الجريمة الوحيدة التي حدَثت هنا خلال السنوات العشر الأخيرة كانت سرقة الساعات، كما نعلم جميعًا.» وأردفت وهي

تشعر بالغَيرة على مؤسَّستها العزيزة: «وحتى هذه لم تكن سرقةً حقيقية، بل هوسًا فقط. فلم تسرق شيئًا سوى الساعات، ولم تستفِد بها. كانت تضعهم جميعًا في درج مكتبها، يراها الجميع. كانت تسع ساعات. كان هوسًا بالطبع.»

قالت السيدة لوفيفر: «ومثل الحالة السابقة، أفترض أنها الآن مع صائغي الذهب والفضة.»

قالت هنرييتا بجدية: «لا أعلم. أعتقد أن عائلتها حبستها في المنزل. فقد كانوا عائلة ثرية جدًّا.»

«إذن فحدوث جرائم هنا أمرٌ نادر جدًّا يا آنسة بيم.» لوَّحت السيدة لوفيفر بيدها الداكنة الرفيعة. وأردفت: «نحن مجموعة غير مثيرة للاهتمام.»

وأضافت الآنسة راج: «مجموعة عادية للغاية. فحدوث فضيحة بسيطة بين الفينة والفينة أمرٌ لطيف. وهو تغيير مُرَحَّب به، بعيدًا عن الروتين المعتاد من وقوفٍ على الأيدي والتأرجح لأعلى حول العارضة.»

قالت لوسي: «أحب أن أرى بعضًا من تمارين الوقوف على الأيدي والتأرجح لأعلى حول العارضة. هل يمكنني أن آتي وأشاهد طالبات السنة النهائية في صباح الغد؟»

أجابتها هنرييتا أن بمقدورها القدوم لمشاهدة طالبات الصف النهائي. فهن مشغولات الآن بالتدرُّب على برنامج العرْض الخاص بهن، ومن ثَم تُعدُّ مشاهدتها ذلك عرضًا خاصًّا لها هي وحدَها. قالت: «إنها واحدة من أفضل المجموعات التي التحقت بالكلية على الإطلاق.»

سألت الآنسة راج: «هل يمكنني الذهاب أنا أولًا إلى صالة الألعاب الرياضية عندما تؤدي طالبات السنة النهائية اختباراتهن البدنية النهائية يوم الثلاثاء؟» وشرع الجميع في مناقشة الجداول.

توجَّهت الآنسة بيم إلى المقعد الذي بجانب النافذة وانضمت إلى الدكتورة نايت.

سألت لوسي: «هل أنت مسئولة عن تدريس المقطع العرضي لشيء يُسمى الزُّغابات؟»

«أوه، لا، علم وظائف الأعضاء هي مادة جامعية عادية؛ كاثرين لوكس هي مَن يُدَرِّسها.»

«إذن، ماذا تُدرِّسين؟»

«أوه، أشياء مختلفة في مراحل مختلفة. الصحة العامة، ما يُسمى بالأمراض «الاجتماعية». وما يُسمى أيضًا بحقائق الحياة. مجال عملِك.»

«علم النفس؟»

«نعم. الصحة العامة هي مهنتي، لكن علم النفس هو تخصصي. أحببت كتابك كثيرًا. فهو منطقي ومعقول. أحببت ذلك. من السهل جدًّا أن تُستخدم لغة معقَّدة فيما يتعلق بموضوع مجرد.»

احمرَّ وجه لوسي قليلًا. فلا يوجد مدح يثلج الصدر مثل مدح أحد الزملاء.

تابعت الدكتورة نايت، وقد بدا عليها الاستمتاع: «وبطبيعة الحال أنا المستشار الطبي للكلية. إنها خير مثال على الوظيفة العاطلة. فجميع الطالبات هنا يتمتعن بصحة جيدة على نحو يثير الدهشة.»

بدأت لوسي في الكلام قائلة: «ولكن ...» إنها الفتاة الآتية من الخارج، ديستيرو (دار ذلك في خَلَد لوسي)، هي التي تُصر على كونهن غير أسوياء. إذا كان هذا صحيحًا، فمن المؤكد أن هذه المُراقِبة المتمرسة، وهي أيضًا من خارج لايز، ستكون على دراية بذلك.

قالت الطبيبة، وقد أخطأت في فهم «ولكن» التي قالتها لوسي: «تقع حوادث بالطبع. حياتهن مليئة بالحوادث البسيطة، مثل الكدمات والالتواءات وخلع الأصابع، وما إلى ذلك ... ولكن من النادر جدًّا حدوثُ أي شيء خطير. فلم أعاصر سوى حالة بنتلي؛ تلك الفتاة التي تقيمين في غرفتها. لقد كُسرت قدمها ولن تعود إلا في الفصل الدراسي القادم.»

«لكن ... هذه تدريبات شاقة، وحياة مرهقة؛ ألا تنهار الفتيات بسبب ذلك؟»

«نعم، هذا ليس خفيًّا. كان الفصل الدراسي السابق بالتحديد صعبًا. فمن وجهة نظر الطالبات قد تركَّزت فيه الأحداث المخيفة. صفوف التقييم و...»

«دروس التقييم؟»

«نعم. يُطلب من كل طالبة تقديمُ عرض في صالة الألعاب الرياضية والرقص أمام هيئة التدريس وأمام قريناتها، ويُقَيم أداؤها بناءً على جودة العرْض. يمكن أن يكون ذلك محطِّمًا للأعصاب. انتُهي من الدروس النقدية؛ ولكن لا تزال هناك الاختبارات النهائية، والعروض، والتعيينات الوظيفية، والانتقال من الحياة الطلابية إلى العالم الواقعي، وما إلى ذلك. نعم، إنه وقت صعبٌ عليهن، هؤلاء المسكينات العزيزات. لكنهن مرِنات على نحوٍ لا يُصدق. فمن ليست بهذه المرونة لن تصل إلى هذه المرحلة. دعيني أحضِر لكِ المزيد من القهوة. سأحضر بعض القهوة لنفسي.»

أخذت فنجان لوسي وذهبت إلى الطاولة، وانحنت لوسي إلى الوراء في ثنايا الستارة ونظرت إلى الحديقة. كانت الشمس قد غربُت، وبدأت الخطوط العريضة للحديقة والمناظر المحيطة تمتزج بالظلام؛ وأخذت لوسي تشعر بأُولى قطرات الندى الذي يحمله الهواء

اللطيف على وجهها. في مكانٍ ما على الجانب الآخر من المبنى (في غرفة الطالبات المشتركة؟) كانت إحداهن تعزف على البيانو وكانت إحدى الفتيات تُغنِّي. كان صوتًا ساحرًا؛ صوتًا نقيًّا يخرج بلا مجهود، دون حِيَل احترافية، ودون اللجوء إلى نغمات الربع تون. إضافةً إلى ذلك، كانت الأغنية هي إحدى الأغاني الشعبية؛ قديمة وعاطفية، ولكنها كانت تفتقر إلى أي نوع من الشفقة على الذات أو التكلُّف. كان صوتًا حديثًا صادقًا وأغنية قديمة صادقة. فوجئت لوسي عندما أدركت أنه قد مضى وقت طويل منذ أن سمعت غناءً صوتيًّا لم تصدره الأجهزة الإلكترونية التي تعتمد في عملها على الصِّمامات المفرغة والبطاريات. في الوقت الحالي، كانت أجواء لندن تضجُّ بصوت أجهزة الراديو الصاخبة؛ ولكن، في هذه الحديقة المنعشة والعطرة، كانت الفتاة تغني بدافع الشغف.

أعتقد أنني قضيت وقتًا طويلًا في لندن؛ يجب أن أجري بعض التغيير، دار ذلك في خَلَد لوسي. ربما أبحث عن فندق في الساحل الجنوبي. أو أسافر إلى الخارج. غالبًا ما ينسى الناس أنه لا يزال هناك العديد من الأشياء الجديدة لتجربتها في العالم.

سألت لوسي، بينما كان فنجان القهوة يُعطى لها: «مَن التي تغني؟»

فأجابت الدكتورة نايت في عدم اكتراث: «ستيوارت، أعتقد». ثم أردفت: «يمكنك إنقاذ حياتي يا آنسة بيم إن أردتِ ذلك.»

قالت لوسي إن إنقاذ حياة طبيب سيمنحها شعورًا كبيرًا بالرضا.

قالت الدكتورة نايت بصوتٍ تآمري: «أريد أن أذهب إلى مؤتمر طبي في لندن. إنه يوم الخميس، ولكن هذا موعد محاضرة علم النفس التي ألقيها. تعتقد الآنسة هودج أنني لا أتوقف عن الذهاب إلى المؤتمرات؛ لذا لا يمكنني طلبُ ذلك منها مرة أخرى. لكن إذا حدث وألقيتِ المحاضرة بدلًا مني، فهذا سيكون عظيمًا.»

«لكني عائدة إلى لندن غدًا بعد الغداء.»

قالت الدكتورة نايت بصوتِ مَن خاب أملها: «لا!» وأردفت: «هل عليكِ فعلُ ذلك؟»

«الغريب في الأمر أنني كنت أفكر للتو كيف أنه عليَّ أن أكره العودة.»

«إذن لا تسافري. ابقَيْ هنا يومًا أو يومين وأنقذي حياتي. افعلي ذلك يا آنسة بيم.»

«وماذا سيكون رأي هنرييتا في أن أحل محلك؟»

«هذا بالطبع ليس عذرًا حقيقيًّا، وعليكِ أن تخجلي من نفسك. أنا لستُ مؤلِّفة كتابٍ من أكثر الكتب مبيعًا، أنا لست مشهورة، أنا لست مؤلِّفةَ أحدث الكتب الدراسية في علم النفس …»

قامت لوسي بإيماءة صغيرة معترفةً بخطئها، لكنَّ عينيها كانتا على الحديقة. لماذا عليها العودة إلى لندن الآن؟ ماذا ينتظرها هناك؟ لا شيء ولا أحد. ولأول مرة بدت حياتها الجميلة والمستقلة والمريحة والحافلة قاتمةً بعض الشيء. ضيقة النطاق بعض الشيء وباردة. هل هي كذلك؟ هل افتقرت هذه الحياة التي كانت راضية عنها جدًّا إلى الدفء؟ لم يكن نقصًا في التعامل مع البشر بالتأكيد. فقد كانت حياتها مليئة بالبشر. لكن هذه التعاملات كانت كلها ذات طبيعة واحدة، الآن بعد أن فكَّرت في الأمر. فباستثناء السيدة مونتمورنسي من إحدى ضواحي مانشستر، التي كانت تساعدها في الأعمال المنزلية يوميًّا، وعمَّتها سيليا في والبيرسويك، التي كانت تقضي عندنا أحيانًا عطلات نهاية الأسبوع، والتجار، لم تتحدَّث لوسي قط إلى أي شخص لم يكن على صلةٍ بوجه أو بآخر بعالم النشر أو الأكاديميات. وعلى الرغم من أن جميع السيدات والسادة الذين ينتمون إلى هذين العالمين كانوا، بالطبع، أذكياء ومُسلِّين، لا يمكن إنكار أن اهتماماتهم كانت محدودة. فعلى سبيل المثال لا يمكنك التحدُّث مع الشخص نفسه عن الأمن الاجتماعي والأغاني الريفية ونتائج سباقات الخيل. فلكل شخص موضوعه الخاص الذي يتحدث عنه. ومما أثار استياءها أنها اكتشفت أن موضوع محادثاتهم غالبًا ما يتمحور حول حقوق المِلْكية الفكرية. ولم تكن لوسي نفسها تعرف سوى القليل جدًّا عن موضوع حقوق المِلْكية الفكرية، ولا سيما تلك الخاصة بها، ولم يكن بوسعها قط المشاركة بثقة في مناقشات من هذا النوع.

إلى جانب ذلك، لم تكن أيٌّ منهن شابَّة.

أو على الأقل لا يعشن شبابهن كما تعيش الفتيات هنا شبابهن. فقد تكون قلةٌ من معارفها في سنٍّ صغيرة، ولكن مشكلات العالم وإحساسهن بأهميتهن قد أثقل كاهلهن. وكانت مقابلة فتياتٍ لا تثقلهن أعباءُ العالم ومتاعبه تمثِّل لها تغييرًا.

وكان شعورًا جيدًا أن تكون محبوبة.

لم تكن هناك فائدة من محاولة خداع نفسها بشأن سبب رغبتها في البقاء مدةً أطول قليلًا؛ لماذا كانت مستعدة حقًّا للتخلي عن ملذات الحضارة التي كانت مرغوبة عندها جدًّا حتى صباح أمس فقط. وكان شعورًا جيدًا أن تكون محبوبة.

على مدى السنوات القليلة الماضية، عرفت لوسي التجاهل والحقد والإعجاب والتملُّق والتودد؛ لكنها لم تشعر بالحب الدافئ لشخصها منذ أن ودَّعتها زميلاتها في السنة الأولى في المدرسة الثانوية؛ بإهدائها محفظةَ أقلام مصنوعة يدويًّا، وخطبة كتبتها فتاة تُدعى في الغالب جلاديس، بعد مدة قصيرة من حصولها على ميراثها. للبقاء في هذه الأجواء المفعمة

بالحيوية والشباب والإعجاب والدفء، كانت على استعداد للتغاضي عن مشكلة الأجراس والفاصولياء والحمامات.

قالت الآنسة راج الشابة، وهي ترفع صوتها ليصبح أعلى من المحادثة التي خلفهما: «نايت، هل طلبت منك القرينات الأربع أن تقدِّميهن لدكتور أو آخر في مانشستر؟»

«أوه، نعم، لقد طلبن مني ذلك. في صوت واحد. وقلت: نعم بالتأكيد. في حقيقة الأمر، كنت سعيدة بذلك؛ أعتقد أنهن سيحققن نجاحًا عظيمًا.»

قالت الآنسة لوكس: «كلُّ واحدة من القرينات الأربع منفردةً بلا أي قيمة. ولكن عندما يعملن معًا، فإنهن يمتلكن قوةً رباعية من شأنها أن تكون مفيدةً في لانكشاير. هذه هي المرة الأولى التي أجد فيها أن حاصل ضرب أربعة في لا شيء هو حوالي ستة ونصف. إذا لم يكن أحد يريد جريدة «صنداي تايمز» فسوف آخذها معي إلى الفراش.»

من الواضح أنه لا أحدَ يريد قراءتها. فقد ظلَّت موجودةً في غرفة المعيشة بعد الغداء دون أن يفتحها أحد، وكانت لوسي أول مَن يفتحها، وبقدرِ ما لاحظت، لم يلتقطها أحدٌ منذ ذلك الوقت باستثناء الآنسة لوكس.

قالت السيدة لوفيفر: «إن طالبات السنة النهائية هذا العام يشققن طريقَهن الخاص بفعَّالية. يكاد يكون دون مساعدة منَّا. ستكون الغَيرة الشديدة أقلَّ مما تعوَّدنا.» ولم تبدُ آسفة بشأن هذه الغَيرة الشديدة؛ إذ كانت نبرتها تهكمية لا أكثر.

قالت الآنسة هودج، ونبرتها تخلو من أيِّ تهكم: «ما يفاجئني باستمرار كيف تجد الطالبات كلَّ عام الوظائفَ المناسبة لهن. إذ تظهر الوظائف الشاغرة عندما تكون الطالبات جاهزاتٍ لشغْلها. تقريبًا مثل قطعتين من آلة واحدة. وهو أمرٌ مفاجئ ومريح جدًّا. لا أعتقد أننا أرسلنا قط طالبةً غير مناسبة طوال السنوات التي قضيتها في لايز. بالمناسبة، تلقيت رسالةً من مدرسة كوردوينرز في إدنبرة. سوف تتزوج مولكاستر ويريدون مَن تحل محلَّها. هل تتذكري مولكاستر يا ماري؟» والتفتت إلى السيدة لوفيفر التي كانت، باستثناء هنرييتا، أقدم الموجودين في لايز؛ السيدة لوفيفر التي، بالمناسبة، عُمِّدت باسم ماري.

قالت السيدة لوفيفر، التي تقيِّم الأشخاص بناءً على قدرتهم على أداء حركات الرقص مثل روندس دي جامبيس: «بالطبع أتذكرها. فتاة مملة تفتقر إلى الحيوية.»

قالت هنرييتا بهدوء: «فتاة لطيفة. أعتقد أن مدرسة كوردوينرز ستكون مكانًا مناسبًا جدًّا لشينا ستيوارت.»

سألت الآنسة راج: «هل أخبرتِها بذلك؟»

«لا، أوه، لا؛ أحب دائمًا ألا أتخذ قرارات على عجل.»

قالت السيدة لوفيفر: «هل تقصدين أنك بحاجة إلى مزيد من الوقت للتفكير في الأمر قبل اتخاذ قرار. لا بد أنكِ علمتِ بأمر مدرسة كوردوينرز قبل وقت الغداء بالأمس؛ لأن ذلك كان آخر موعد لوصول البريد، وقد عرفنا ذلك الآن فقط.»

قالت هنرييتا في ردة فعل دفاعية: «لم يكن ذلك ذا أهمية كبيرة»؛ ثم أضافت بابتسامة متكلِّفة: «لكني سمعت شائعات عن فرصة عظيمة جدًّا لواحدة من الطالبات.»

قلن: «أخبرينا بها.»

لكن هنرييتا قالت لا؛ إنه لم يأتِ أي إشعار رسمي، وإنه قد لا يأتي أي إشعار رسمي أو استمارة تقديم على الإطلاق، وحتى يحدث ذلك فإنه من الأفضل عدم التحدُّث في هذا الموضوع. لكن ما زال يبدو على وجهها السعادة والغموض.

قالت الآنسة لوكس، وهي تأخذ جريدة «صنداي تايمز» متجاهلةً محاولة هنرييتا الخرقاء بأن تكون كتومة: «حسنًا، سأذهب للنوم.» وأردفت: «لن تغادري لايز قبل الغداء غدًا يا آنسة بيم، أليس كذلك؟»

قالت لوسي، إذ اضطُرَّت فجأةً إلى اتخاذ قرار: «حسنًا، كنت أتساءل إن كان بإمكاني البقاء هنا يومًا أو يومين؟» وأردفت مُذكِّرة هنرييتا: «لقد طلبتِ مني ذلك. فمن اللطيف للغاية ... من الممتع جدًّا مشاهدة عالَم مختلف تمامًا ... عالم جميل جدًّا، لذا ...» يا إلهي، لماذا يجب أن تبدوَ خرقاء هكذا. ألن تتعلم أبدًا التصرف على أساس كونها لوسي بيم الشهيرة؟

لكن غطَّى على تلعثُمها هذا موجةً عارمة من الترحيب. تأثَّرت لوسي لملاحظة شيء من الاستمتاع على وجه الآنسة لوكس.

قالت الدكتورة نايت كما لو كانت الفكرة قد طرأت في ذهنها للتو: «ابقَي حتى يوم الخميس ويمكنك أن تحلِّي محلِّي في محاضرة علم النفس لطالبات السنة النهائية حتى يتسنَّى لي حضور مؤتمر في لندن.»

قالت لوسي، وهي تتظاهر بالتردُّد: «أوه، لا أعلم إذا كانت ...» ونظرت إلى هنرييتا.

قالت الآنسة هودج باستنكار، ولكن دون مشاعر قوية: «إن الدكتورة نايت تهرب دائمًا إلى المؤتمرات. ولكن بالطبع سيُسعدنا ويشرفنا يا لوسي موافقتك على إعطاء الطالبات محاضرة ثانية.»

«أود ذلك. سيكون من الجيد أن أشعر بأنني عضو مؤقَّت في هيئة التدريس، بدلًا من كوني مجرَّد ضيفة. أود أن أفعل ذلك بشدة.» واستدارت وهي تنهض لتغمز في وجه

الدكتورة نايت، التي كانت تضغط على ذراعها في نشوة شديدة. وأردفت لوسي: «والآن أعتقد أنه عليَّ أن أعود إلى جناح الطالبات.»

وتمنَّت للجميع ليلةً هانئة وخرجت مع الآنسة لوكس.

أثناء سيرهما معًا إلى الجزء الخلفي من المبنى، ألقت لوكس نظرةً جانبية على لوسي، لكن لوسي شعرت ببعض الود في عيون لوكس الرمادية الجليدية.

سألت لوكس: «هل حقًّا تحبين معرض البشر هذا؟» وأردفت: «أم أنكِ تبحثين فقط عن أشياء لتثبيتها على الورق المقوى بالدبابيس؟»

كان هذا هو السؤال الذي سألته فطيرة المكسرات بعد ظهر يوم أمس. هل جئت تبحثين عن نماذج؟ حسنًا، ستجيب الإجابة نفسها وترى ردَّ فعل لوكس.

«أوه، سأبقى هنا لأنني أحبُّ هذا المكان. فلن تكون كليةٌ للتدريب البدني مكانًا مناسبًا للبحث عن أشياءَ غير طبيعية، على أي حال.» قالت ذلك بإقرار وليس بسؤال، وانتظرت.

سألت الآنسة لوكس: «ولمَ لا؟». وأردفت: «قد يؤدي الإرهاق الجسدي إلى جعل الشخص أقلَّ قدرة على التفكير بصفاء ذهني، ولكنه لا يقضي بالضرورة على مشاعر الفرد أو عواطفه.»

قالت لوسي في تعجُّب: «حقًّا؟». وأردفت: «إذا كنت مرهقة للغاية، فأنا متأكدة من أنني لن يكون لدي أيُّ مشاعر تجاه أي شيء، باستثناء الحاجة إلى الذهاب للفراش سريعًا.»

«لا بأس بالذهاب إلى الفراش عندما يكون الشخص مرهقًا للغاية؛ إنه أمرٌ طبيعي ومريح وآمن. تظهر المشكلة عندما يستيقظ وهو يشعر بالإرهاق الشديد.»

«أي مشكلة؟»

قالت لوكس بسلاسة: «المشكلة الافتراضية التي نتحدَّث عنها.»

«أتقصدين أن استيقاظ الطالبات وهن يشعرن بإرهاق شديد أمرٌ شائع هنا؟»

«حسنًا، أنا لست مستشارتهن الطبية؛ لذا لا يمكنني التنقُّل في المكان بسمَّاعة طبية وتوجيه أسئلة طبية إليهن، لكن يمكنني القول إن خمسًا من بين كل ست طالبات في السنة النهائية يشعرن بالإرهاق الشديد في الفصل الدراسي الأخير؛ لدرجةٍ تجعل من الاستيقاظ في كل صباح أشبه بالكابوس الخفيف. فعندما يشعر الشخص بهذه الدرجة من الإرهاق، تتوقَّف حالته العاطفية عن كونها طبيعية. فتبدو العقبة الصغيرة وكأنها عائق هائل بطول جبل إيفرست في الطريق؛ ويمكن أن تتسبَّب ملاحظة طائشة يقولها شخص في حدوث أزمة نفسية يجب معالجتها؛ وتصبح خيبة الأمل الطفيفة فجأةً حدثًا كارثيًّا.»

تذكَّرت لوسي مجموعة الوجوه التي كانت موجودة أثناء حفل الشاي. وجوه سمراء بسبب الشمس، وضاحكة، وسعيدة؛ فتيات لا يحملن همًّا وتغلب عليهن الثقة الشديدة. فأين توجد أي علامة على المشقة أو سوء المزاج في هذه المجموعة الهادئة الصحيحة؟ لا توجد. لقد اشتكت الفتيات من حياتهن الصعبة بالتأكيد، لكن كان ذلك على سبيل الدعابة؛ إذ كانت شكوى غير جادة.

ربما يكُنَّ متعبات؛ في حقيقة الأمر كُن متعبات ... ستكون معجزة لو لم يكُنَّ كذلك؛ لكن ليس تعبهن تعبًا لدرجة الاضطراب. لم تصدِّق لوسي ذلك.

قالت لوكس: «هذه غرفتي» وصمتت. وسألت لوسي: «هل معكِ شيء لقراءته؟ لا أفترض أنك أحضرت أيَّ شيء لو كنتِ نويتِ العودةَ بالأمس. هل يمكنني إعطاؤك شيئًا تقرئينه؟»

فتحَت الباب، وكشفت عن غرفة نوم وجلوس مرتَّبة ومزيَّنة بثلاثة زخارف فقط: نقش، وصورة فوتوغرافية، وجدار كامل من الكتب. ويمكن سماع صوت محادثة باللغة السويدية قادمًا من الغرفة المجاورة.

قالت لوكس فجأة: «مسكينة يا فروكن»، بينما كانت لوسي تصغي جيدًا إلى المحادثة.

وأردفت: «لقد كانت تشعر بالحنين إلى الوطن. لا بد أنه شعور رائع أن تتمكَّن من التحدُّث عن شئون أسرتها بلغتها الخاصة مرة أخرى.» وبعد ذلك، لاحظت لوكس أن لوسي كانت تنظر إلى الصورة، فقالت: «هذه أختي الصغرى.»

قالت لوسي: «إنها جميلة جدًّا»؛ وتمنَّت على الفور ألا يكون قد بدا على نبرتها أنها متفاجئة.

أجابت لوكس وهي تغلق الستائر: «أجل. أنا أكره العثَّ. وماذا عنكِ؟ لقد وُلدت أختي عندما كنت أنا في سن المراهقة، وأنا عمليًّا مَن توليت مهمةَ تربيتها. وهي الآن في سنتها الثالثة في كلية الطب.» اقتربت لوكس ووقفت بجانب لوسي ونظرت إلى الصورة لحظةً. وسألت: «حسنًا، ماذا يمكنني أن أعطيك لقراءته؟ أي شيء، من دامون رونيون إلى مارسيل بروست.»

أخذت لوسي كتاب «الزائرون الشباب.» لقد مرَّت مدةٌ من الوقت منذ أن قرأته لوسي آخرَ مرة، لكنها لم تستطِع إلا أن تبتسم لمجرد رؤية الكتاب. كانت ردة فعلها تلقائية وغير واعية. وعندما رفعت نظرها، لاحظت أن لوكس كانت تبتسم هي الأخرى.

قالت لوسي بأسف: «حسنًا، هذا شيء لن أفعله أبدًا.»

«ما هو؟»

«أن أكتب كتابًا يجعل العالم كلَّه يبتسم.»

أجابت لوكس، وقد ازدادت ابتسامتها اتساعًا: «ليس العالم كله. كان لديَّ ابنة عم توقَّفت عن قراءته عند منتصفه. وعندما سألتها لماذا، قالت: كتاب لا يمُت إلى الواقع بصلة.»

سارت لوسي إلى غرفة نومها وعلى وجهها ابتسامة، وكانت تشعر بالارتياح لأنها لن تُضطر إلى ركوب القطار في اليوم التالي، وظلَّت تفكر في الآنسة لوكس غير الجذابة، التي تحب أختها الجميلة ولديها ولَعٌ بالأشياء السخيفة. وعندما وصلت لوسي إلى الممر الطويل للجناح إيه، رأت بو ناش تقف عند زاوية الدَّرَج في نهاية الممر، وهي تحمل جرسًا يدويًّا إلى ارتفاع الكتف، وفي ثانيةٍ ملأ صوته الجامح أرجاء الجناح. فتوقَّفت في مكانها، واضعة يديها على أذنيها، بينما ضحكت بو عليها وبدأت في قرع الجرس بكل قوَّتها. كانت تقف في بهاء هناك وهي تمسك بأداة التعذيب هذه في يدها.

سألت لوسي عندما توقَّفت بو أخيرًا عن قرع الجرس: «هل قرع جرس الذهاب إلى غرفة النوم مهمة رئيسة الطالبات؟»

«لا، تتناوب طالبات الصف النهائي في هذه المهمة؛ تصادف أن يكون دوري هذا الأسبوع. نظرًا لأن اسم عائلتي في ترتيب متأخر في الحروف الأبجدية، فلا أؤدي المهمةَ أكثرَ من أسبوع واحد في كل فصل دراسي.» نظرت إلى الآنسة بيم وخفضت صوتها متظاهرةً بالثقة بطريقة مرحة. قالت: «أتظاهر بالسعادة حيال ذلك … يعتقد الجميع أنه من الممل للغاية أن يُضطر إلى متابعة ساعة الحائط؛ لكنني أحب إثارةَ الضجيج.»

أجل، هكذا فكَّرت لوسي؛ فاحتفاظها بهدوئها دائمًا وصحة بدنها هما السببان وراء استمتاعها بضجيج الجرس. ثم، تقريبًا بطريقة لا إرادية، بدأت تفكِّر فيما إذا كانت لا تستمتع بالضجيج، ولكن ما تستمتع به هو شعور السيطرة. ولكن لا، رفضت لوسي هذه الفكرة لأن بو ناش دائمًا ما كانت تتمتع بحياة سهلة؛ فطوال حياتها لم يكن عليها سوى أن تطلب أو تأخذ حتى تحصل على ما تريد. لم تكن الآنسة ناش بحاجة إلى الإحساس بالرضا بشكل غير مباشر من خلال الآخرين؛ إذ كانت حياتها مليئة بالرضا الدائم. لقد استمتعت بصوت الجرس العالي؛ هذا كلُّ ما هنالك.

قالت ناش وهي تلحق بها: «على أي حال، إنه ليس جرس الذهاب إلى غرفة النوم. إنه جرس إطفاء الأنوار.»

«لم أكن أعلم أن الوقت متأخر لهذه الدرجة. هل ينطبق هذا عليَّ؟»

«بالطبع لا. فَعِلية القوم يفعلون ما يحلو لهم.»

«حتى عِلية القوم الذين من خارج الكلية؟»

قالت ناش: «ها هي ذي غرفتك الصغيرة»، وهي تضغط على مفتاح الإضاءة وتتنحى جانبًا لتفسح الطريقَ أمام لوسي للدخول إلى الغرفة الصغيرة المضاءة جيدًا، بنظافتها وبهجتها وسطوعها. فبعد قضاء الأمسية السابقة في غرفة المعيشة الفاخرة ذات الطراز الجورجي، بدت غرفتُها وكأنها صفحة مأخوذة من مجلة أمريكية فاخرة. قالت ناش: «أنا سعيدة أنني قابلتك؛ لأن لديَّ اعترافًا لكِ. أنا لن أُحضِر لكِ وجبة الإفطار غدًا.»

قالت لوسي: «أوه، لا بأس، عليَّ أن أستيقظ في كل الأحوال ...»

«لا، أنا لا أقصد ذلك. بالطبع لا أقصد ذلك. كلُّ ما في الأمر هو أن موريس الصغيرة طلبت مني أن تُحضِر لكِ الطعام ... إنها واحدة من طالبات السنة الأولى ... و...»

«الفتاة التي خطفت جورج؟»

«أوه، نعم، نسيتُ أنك رأيتِها. نعم، هي. وبدا أنها تعتقد أن حياتها لن تكتمل ما لم تحضِر لكِ الإفطار في صباحك الأخير معنا؛ لذلك قلت إنه ما دامت لن تطلب توقيعك أو تزعجك، يمكنها ذلك. آمُل أنك لا تمانعين. إنها فتاة لطيفة، وسوف يسعدها ذلك حقًّا.»

قالت لوسي، التي لم تكن تمانع إن أَحضَر لها زنجيٌّ أحولُ قاتلٌ فطورَها ما دامت تستطيع أن تأكل الخبزَ المحمص الشبيه بالمطاط في سلام وهدوء، إنها شاكرة لموريس الصغيرة، وعلى أي حال فلن يكون هذا صباحها الأخير معهن. فسوف تبقى وتلقي محاضرةً يوم الخميس.

«حقًّا! أوه، هذا رائع. أنا سعيدة جدًّا. سيكون الجميع سعداء. أنتِ مفيدة جدًّا لنا.»

«مثل الدواء؟» جعَّدت لوسي أنفها احتجاجًا.

«لا، مثل الماء المنعش.»

قالت لوسي: «علاج لكل شيء»؛ لكنها كانت مسرورة.

كانت مسرورة للغاية، لدرجةِ أنه حتى المهمة المتمثلة في وضع دبابيس الشعر الصغيرة في أماكنها الصحيحة في شعرها لم تسبِّب لها الملل المعتاد. ووضعت كريم الوجه وفحصت بشرتها الدهنية غير المزيَّنة في الضوء الساطع مع إحساس غير معتاد بالقبول. لا يمكن إنكار أن امتلاك وجه ممتلئ قليلًا يمنع ظهور الخطوط في الوجه؛ فإذا كان لدى الشخص وجه يشبه الكعكة، فمن المطمئن على الأقل أن تكون كعكة ناعمة. والآن، عند التفكير في الأمر، أدركت لوسي أن ملامحها مناسبةٌ جدًّا لها؛ فلو كان لديها أنف مثل أنف جاربو،

لاضطُرت إلى ارتداء ملابسَ تتناسب مع هذا الأنف، وإن كانت لديها عظام خد كالتي لدى الآنسة لوكس، فسيتعين عليها أن ترقى إلى مستوًى عالٍ من الثقة والحضور. ولم تكن لوسي قادرة مطلقًا على تلبية أي توقعات أو معايير. ولا حتى فيما يتعلق بكتابها «خواطر في علم النفس».

تذكَّرت في الوقت المناسب أنه لم يكن هناك ضوء بجانب الفراش — فقد ثُبِّطت الطالبات عن العمل في الفراش — فأطفأت النور ومشت عبْر الغرفة لإزاحة ستائر النافذة التي تطل على الفِناء. ووقفت هناك بجانب النافذة المفتوحة على مصراعيها، تشم رائحة الليل البارد. عمَّ السكونُ التام لايز. فكل الثرثرة، ورنين الأجراس، وأصوات الضحكات، والصراخ، ووقْع الأقدام، وماء الاستحمام المنهمر، والحركة المستمرة، تجمَّدت في سكون هائل وغريب، مما أدى إلى اشتداد ظلمة الليل الهادئ.

«آنسة بيم.»

جاء الهمسُ من إحدى النوافذ المقابلة.

هل يمكنهن رؤيتها إذن؟ لا، بالطبع لا. لقد سمعت إحداهن الصوت الخفيف الذي أصدرته إزاحة ستائرها.

«نحن سعداء لأنك ستبقين معنا يا آنسة بيم.»

لم يمر سوى ١٥ دقيقة منذ أن تمنَّت لها ناش ليلة سعيدة، لكن الأخبار قد وصلت بالفعل إلى الجناح المقابل.

قبل أن تتمكَّن من الإجابة، سمعت همسات آتية من النوافذ غير المرئية للمبنى الصغير. صحيح يا آنسة بيم. نحن سعداء. سعداء يا آنسة بيم. نعم. نعم. سعداء يا آنسة بيم.

قالت لوسي: «تصبحون على خير جميعًا.»

قالت لها الفتيات تصبحين على خير. تصبحين على خير. نحن سعداء جدًّا. تصبحين على خير.

أدارت مقبض ساعتها وسحبت كرسيًّا لتضعها عليه — أو بالأحرى الكرسي، فلا يوجد سوى كرسي واحد في الغرفة — وذلك حتى لا تُضطر إلى البحث عن الساعة تحت الوسائد في الصباح؛ وتعجَّبت لكونها حتى صباح أمس كانت تتوق إلى مغادرة هذا المكان.

وربما لأنه لا يوجد عالِم نفسٍ يحترم ذاته يؤمن بموضوعٍ عفا عليه الزمن كالهواجس؛ فلم تسمع لوسي صوت عفريت صغير يريد أن يساعدها، وقد أتى من العالم غير القابل للتفسير، ليهمس في أذنها الناعسة قائلًا: «ارحلي من هنا. اذهبي بعيدًا بينما تسير الأمور على ما يرام. ارحلي. بعيدًا عن هنا.»

الفصل السادس

تردَّد صدى صوت احتكاك الكراسي بالأرضية الخشبية عندما نهضت الطالبات من وضع الركوع، واستدرن انتظارًا لخروج هيئة التدريس بعد أن فرغن من أداء الصلاة الصباحية. حضرت لوسي، التي كانت عضوةً مؤقتة، هذه الصلاة الصباحية في الساعة التاسعة إلا ربعًا عوضًا عن تناولها وجبةَ الإفطار في الفراش، وهو سلوك غير معتاد لهيئة التدريس؛ وقد أمضت الدقائق القليلة الماضية في التفكير في أرجل الفتيات الراكعات أمامها، وفي التعجُّب من فردانية كل رِجل. في هذه الساعة من الصباح، كان الجميع يرتدي ملابسَ موحدة، وكان الجميع في وضعية الصلاة، رءوسهن منحنية في أيديهن المطيعة، ولكن لوسي لاحظت أنه من السهل التعرُّف على شخص من أرجله، كما هي الحال من خلال وجهه. كانت هناك مجموعة متنوعة من الأرجل: أرجل عنيدة، وأرجل تافهة، وأرجل أنيقة، وأرجل مملة، وأرجل مثيرة للريبة ... بمجرد إلقاء نظرة خاطفة على رَبْلة الساق أو الكاحل، تمكَّنت بالفعل من معرفة إلى مَن تنتمي الرِّجل: ديكرز أم إينيس أم راوس أم بو، أم أي فتاة أخرى. هذه الأرجل الأنيقة في نهاية الصف هما رِجلا فطيرة المكسرات. ألم تعترض الراهبات على استماع ربيبتهن للصلاة الأنجليكانية؟ وهذه الأرجل التي تشبه العصا هما رِجلا كامبل، وهذه ...

قالت هنرييتا بخشوع: «آمين.»

غمغمت طالبات لايز: «آمين»، ووقفن بينما كانت الكراسي تحتكُّ بالأرض. وخرجت لوسي مع هيئة التدريس.

قالت هنرييتا: «تعالي وانتظري حتى أفرغ من فرز بريد هذا الصباح، وبعد ذلك سأرافقك إلى صالة الألعاب الرياضية»، وشرعت في دخول غرفة الجلوس الخاصة بها؛ حيث وجدت بالفعل سكرتيرة وديعة تعمل بدوام جزئي، على استعداد لتلقي التعليمات.

جلست لوسي على المقعد بجانب النافذة تقرأ صحيفة «التليجراف»، وتستمع في اهتمام جزئي إلى المحادثة الخاصة بالعمل التي أعقبت ذلك. كتبت إحدى السيدات لسؤالها عن تاريخ العرض؛ وأرادت سيدة أخرى معرفةَ ما إذا كان هناك فندق قريب يمكن أن تقيم فيه هي وزوجها عندما يأتيان لرؤية ابنتهما في العرض، ويجب العثور على فاتورة الجزار وتقديمها له؛ والمُحاضر الخاص بيوم الجمعة الأخيرة من الفصل الدراسي اعتذر عن عدم الحضور؛ ويطلب ثلاثةُ آباء لطالباتٍ محتملاتٍ معلوماتٍ عن الكلية.

قالت هنرييتا: «كل الخطابات بسيطة على ما أعتقد.»

قالت السكرتيرة الصغيرة الخجول: «نعم. سأتواصل معهم في الحال. كانت هناك رسالة من أرلينجهيرست. لا يبدو أنها هنا.»

قالت هنرييتا: «لا. يمكن الرد عليها في نهاية هذا الأسبوع.»

حدَّثت لوسي نفسها، قائلة أرلينجهيرست. أرلينجهيرست. إنها مدرسة الفتيات بالطبع. مدرسة مشابهة لإيتون ولكن للإناث. يقولون «كنت أدرس في أرلينجهيرست»، وهذا من شأنه أن يحسم الأمر. لقد صرف الاسم انتباهها مدة قصيرة عن المقال الرئيسي بصحيفة «التليجراف»، وفكَّرت في أنه إذا كانت هنرييتا تقصد أرلينجهيرست بالفرصة العظيمة التي تنتظرها، فإن مثل هذه الأخبار من شأنها أن تولِّد مستوًى استثنائيًّا من الإثارة والاهتمام بين طالبات السنة النهائية المهتمات بالأمر. وكانت على وشْك التساؤل عما إذا كانت أرلينجهيرست هي في الواقع الفرصة العظيمة، ولكنها توقَّفت بسبب، من بين أسباب أخرى، وجود السكرتيرة الصغيرة الوديعة، ولكن السبب الأهم هو التعبير على وجه هنرييتا. هنرييتا — لم يكن هناك مَن ينكر ذلك — ظهر على وجهها تعبيرٌ بالحذرِ وشبه شعور بالذنب. نظرة شخص يخطط لشيءٍ ما.

أوه، حسنًا، فكَّرت لوسي، إذا كانت هنرييتا ببساطة تحاول التكتُّم على سرِّها الرائع، فلأدعها تفعل ذلك. لن أفسد عليها الأمر. وسارت خلف صديقتها في الممر الطويل الممتد على طول الجناح، وخرجت إلى الممشى المُغطى الذي يمتد من الممر إلى صالة الألعاب الرياضية. كانت صالة الألعاب الرياضية تقع بموازاة المبنى الرئيس والجناح الأيمن، بحيث تُكَوِّن المباني شكل حرف E كاملًا عند النظر إليها من الأعلى؛ تمثِّل الخطوط الأفقية الثلاثة «المبنى القديم» والجناح الأيمن وصالة الألعاب الرياضية، وتُمثِّل الخطوط العمودية الجناح المتصل والممشى المُغطى.

كان الباب الذي يؤدي إليه الطريق المغطى مفتوحًا، ومن داخل صالة الألعاب الرياضية، يمكن سماع أصوات الفتيات وهن يقُمن بنشاطات مختلفة؛ ملأت الأصوات،

والضحكات، وضربات الأقدام الأجواء. وتوقَّفت هنرييتا عند الباب المفتوح وأشارت نحو الباب المغلق حينئذٍ على الجانب الآخر. قالت: «هذه هي جريمة الكلية. عبور صالة الألعاب الرياضية إلى مسار الحقل بدلًا من استخدام الممشى المُغطى المخصَّص لذلك حول المبنى؛ لهذا السبب اضطُررنا إلى إغلاقه. لن يظن أحدٌ أن بضع خطوات إضافية قد تهم الطالبات اللاتي يبذلن مجهودًا كبيرًا على مدار اليوم، ولكن لم يكن هناك سببٌ أو خطر يمنعهن من استخدام الطريق المختصر. لذا أزلنا الإغراء تمامًا.»

ابتعدت هنرييتا عن الباب المفتوح ووجَّهت لوسي إلى الجانب الآخر من المبنى؛ حيث توجد منطقة مغطاة صغيرة بها دَرَج يؤدي إلى المعرض. وبينما كانتا تصعدان الدَّرج، توقَّفت هنرييتا وأشارت إلى أداة غريبة على عربة صغيرة موضوعة في بئر السُّلم. وقالت: «هذه هي أكثر الشخصيات شهرةً في الكلية. إنها المكنسة الكهربائية الخاصة بنا، والمعروفة على طول الطريق من هنا إلى نيوزيلندا باسم «البغيضة»».

سألت لوسي: «لماذا هذا الاسم؟»

«كانت تُعرف في البداية باسم بغضاء الطبيعة، وتحوَّلت في النهاية إلى البغيضة. أتذكرين هذا القول المأثور في المدرسة: «الطبيعة تُبغِض المساحات الفارغة». وحدقت في الشيء الهائل لحظة، وتأمَّلته بحنان بعينيها. وأردفت: «هذه البغيضة كلَّفتنا مبلغًا ضخمًا، لكنه أُنفق في محله. فأيًّا كانت جودة تنظيف صالة الألعاب الرياضية سابقًا، فهناك دائمًا طبقة باقية من الغبار تتطاير في الهواء من أقدام الطالبات، وبطبيعة الحال، تُستنشق، ومن ثَم تسبِّب التهابًا في القنوات التنفسية. على الرغم من أنها لم تكن مشكلة تؤثِّر على كل الطالبات بالطبع، فإنها كانت تحدث باستمرار على مدار العام، سواء كان ذلك في الصيف أو الشتاء؛ حيث تعاني طالبة واحدة على الأقل نوبةً من نوبات التهاب القنوات التنفسية. كانت مَن سبقت الدكتورة نايت هي مَن اقترحت فكرة أن الغبار غير المرئي قد يكون السبب في ذلك، واتضح أنها كانت على صواب. فمنذ أن أنفقنا هذا المبلغ الهائل على البغيضة لم يحدث أيُّ نزلات زكام أخرى. وأضافت بسعادة: «بطبيعة الحال، اتضح أنه إجراء موفِّر للتكلفة في النهاية؛ لأن جيدي البستاني هو المسئول الآن عن كنس صالة الألعاب الرياضية، ولم يعُد يتعيَّن علينا دفع المال لعمال النظافة المحترفين.»

توقَّفت لوسي عندما وصلتا إلى أعلى الدَّرج، ونظرت من فوق الدرابزين إلى بئر السُّلم مرة أخرى. وقالت: «لا أعتقد أنها تروق لي. يبدو لي أنها اسمٌ على مسمًّى. يوجد شيء كريه بها.»

قالت هنرييتا: «إنها قوية جدًّا. وهي سهلة الاستخدام. يقضي جيدي نحو عشرين دقيقة فقط كل صباح في التنظيف، وبمجرد الانتهاء من ذلك، لا يتبقى شيء لإزالته، باستثناء الإنشاءات والمعدَّات، على حد قوله. إنه فخور جدًّا بالبغيضة. وهو يعتني بها كما لو كانت حيوانه الأليف.» فتحت هنرييتا الباب في أعلى الدَّرج ودخلتا المعرض.

لا يرتكز مبنى صالة الألعاب الرياضية على الجماليات المعمارية. فتصميمه عمليٌّ تمامًا. إنه يشبه صندوقًا مستطيلًا، مضاءً بنوافذَ في السقف أو أعلى الجدران. إن صالة الألعاب الرياضية في لايز بها نوافذُ عند ملتقى الجدران بالسقف، وهو ما لم يكن منظرًا مناسبًا من الناحية الجمالية؛ ولكن، الألواح الزجاجية البعيدة تضمن عدم دخول ضوء الشمس المباشر في أي ساعة من أي يوم، الأمر الذي قد يؤثِّر على رؤية الطالبات، ومن ثمَّ وقوع الحوادث. امتلأ المبنى الذي يأخذ شكل مستطيل كبير بإشعاع منعكس لصباح صيفي؛ ذهبي وناعم. وانتشرت طالبات السنة النهائية في جميع أنحاء الصالة؛ إذ شاركن في أنشطةٍ مختلفة؛ مثل الإحماء، والتدريب، والانتقاد، وفي بعض الحالات المبهجة، الانغماس في أفعال مرِحة.

سألت لوسي بينما كانتا تجلسان: «هل تمانع الفتيات في وجود متفرجين؟»

«لقد اعتَدْن على ذلك. فلا يكاد يمر يوم من دون أن يأتي زائر لأي سبب.»

«ماذا يوجد أسفل المعرض؟ ما الذي تنظرن إليه طوال الوقت؟»

أجابت هنرييتا بإيجاز: «أنفسهن. الجدار بأكمله أسفل المعرض عبارة عن مرآة واحدة طويلة.»

أُعجبت لوسي بتعبيرات الفتيات الموضوعية أثناء متابعتهن لأدائهن في المرآة. إن امتلاك القدرة على تقييم أداء جسدك بموضوعية هو شيء جيد بالتأكيد.

قالت جيدج التي تشبه الدمية الخشبية وهي تتفحص ذراعيها الممتدتين لأعلى: «من أكثر الأشياء التي تزعجني في حياتي هو هذا الانحناء في ذراعيَّ عند المرفقين.»

قالت ستيوارت، وهي تواصل تمارين ليِّ جسدها دون توقُّف: «لو اتبعتِ نصيحةَ صديقنا الذي جاء يوم الجمعة واستخدمت قوة إرادتك، لكانت ذراعاك مستقيمتين الآن.»

قالت بو ناش ساخرة، وجسدها محنيٌّ إلى الأمام على قضبان الجدار: «من المحتمل أن ينحنيا في الاتجاه الآخر.»

خلصت لوسي إلى أن هذا الصديق هو المُحاضر الضيف الذي حضر أمسيات يوم الجمعة، وتساءلت بفتور عما إذا كان قد ناقش موضوعاتٍ مثل «الإيمان» أو «العقل فوق المسألة»، وهل تحدَّث عن لورد أم عن إيميل كوي؟

حملت هاسيلت، الجنوب أفريقية ذات الوجه البدائي البسيط، كاحلَي إينيس في الهواء، بينما وقفت إينيس على يديها. قالت هاسيلت: «اعتمدي على ذراعيك يا آنسة إينيس»، محاولة الكلام بلهجة سويدية تبدو بوضوح وكأنها اقتباس من فروكن؛ وضحكت إينيس وسقطت على الأرض. فبملاحظتهما وهما مبتهجتان ومبتسمتان (اعتقدت لوسي أن هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها ماري إينيس تبتسم)، شعرت لوسي مرةً أخرى كيف أن هذين الوجهين ليسا في المكان المناسب لهما. بدا وجه هاسيلت مناسبًا لرداءٍ أزرق، مع وجود رسم صغير للتلال والقلاع والطرق في مكانٍ ما بجانب أذنها اليسرى. وبدا وجه إينيس كما لو كان ينتمي إلى صورة معلَّقة على دَرَج من العهد القديم، ربما من القرن السابع عشر! لا، إنه وجهٌ مرح للغاية، ومرن للغاية، مع حاجبَين مقوَّسين تمامًا. من القرن السادس عشر، بالأحرى. بدت منعزلة وعنيدة ولا ترحم؛ ولا تقبل الحلول الوسطى.

كانت راوس تجلس في ركنٍ بعيد بمفردها، تبذل جهدًا كبيرًا في مد أوتار ركبتها عن طريق تحريك راحتيها نحو قدميها. بدا من غير المحتمل أنها لا تزال بحاجة إلى شد أوتار الركبة، خاصة بعد سنوات من ممارسة تمارين الاستطالة باستمرار؛ لذلك ربما كانت مجرد عادة محلية في الشمال لضمان الاستفاضة واليقين. كانت الآنسة راوس جادة ومتفانية، ولم تخصِّص وقتًا للأمور التافهة؛ فالحياة عندها جادة وذات مغزًى؛ كان الأمر يتعلَّق بالعمل الجاد على أوتار الركبة وتأمين وظيفة واعدة في المستقبل. تمنَّت لوسي لو أنها أحببت الآنسة راوس أكثر، وتفحَّصت المكان بحثًا عن ديكرز ترياقًا لها. لكن لم تكن هناك فتاة بشعر أشقرَ فاتح ووجه مبتهج يشبه وجه المُهر وسط المجموعة.

وبعد ذلك، فجأةً تلاشى الضجيج المتقطع والثرثرة تدريجيًّا.

لم يدخل أحدٌ من الباب المفتوح في آخر الصالة، لكن لا يمكن إنكار أنه يمكن الشعور بدخول أحد إلى المكان. إذ شعرت لوسي بدخول أحد من أسفل أرضية الشرفة تحت قدميها. وتذكَّرت أن هناك بابًا في أسفل الدَّرج، حيث توجد البغيضة. وقد دخل شخصٌ ما من هذا الباب.

لم ينطِق أحدٌ بشيء مسموع، لكن الطالبات اللاتي كن قبل لحظة مبعثراتٍ على الأرض مثل خرزٍ من عِقْد منقطع، أصبحن الآن، كما لو كان سحرًا، يقفن في طابور في سكون منتظرات.

خرجت فروكن جوستافسِن من أسفل الشرفة وألقت نظرةً شاملة على الفتيات.

سألت بصوتٍ هادئ وبارد: «أين الآنسة ديكرز؟» وبمجرد أن قالت ذلك، اندفعت ديكرز مرتبكةً عبْر الباب المفتوح وتوقَّفت فجأة عندما رأت المشهد الذي ينتظرها.

صرخت: «أوه، مصيبة!» وأخذت على عَجَل مكانها في الفجوة التي تركتها لها إحدى الزميلات. وأردفت: «أوه، أنا آسفة يا فروكن. آسفة جدًّا. كلُّ ما هنالك أن ...»

سألت فروكن باهتمام يشبه اهتمام العلماء: «هل تنوين التأخُّر على العرض؟»

«أوه، لا، بالطبع لا يا فروكن. كلُّ ما هنالك هو أن ...»

«نعلم ذلك. نعلم ذلك. لقد ضاع منك شيء أو كُسر. إذا كان من الممكن القدوم إلى هذا المكان عارية، فستظل الآنسة ديكرز تجد شيئًا تضيِّعه أو تكسره. انتباه!»

وقفت الفتيات متيقظات، بلا حَراك باستثناء تنفسهن السريع.

قالت فروكن: «أعتقد أنه إذا شدَّت الآنسة توماس بطنها، فسيتحسن الصف.»

امتثلت توماس على الفور.

«والآنسة أَبِليارد تُظهِر ذقنها أكثرَ من اللازم.»

أدخلت الفتاة الممتلئة ذات الخدين الأحمرين ذقنها في رقبتها. «جيد جدًّا!»

انعطفت الفتيات إلى اليمين، واصطففن في صف واحد، وسرن بصمتٍ في صالة الألعاب الرياضية؛ كانت خطواتهن خفيفة للغاية على الأرضية الخشبية الصلبة لدرجةِ أنهن كن بالكاد مسموعات.

«أهدأ. أهدأ. أخف، أخف!»

هل هذا ممكن؟

لكن على ما يبدو، كان ذلك ممكنًا. ضربت تلك الأقدام المدرَّبة مدةً طويلة الأرضَ بهدوءٍ أكثر، حتى إنه كان من الصعب تصديقُ أن مجموعة من الشابات القويات، تزن كلٌّ منهن ما يصل إلى ٦٣٫٥ كيلوجرامًا، يسِرن بصمت في أرجاء القاعة.

ألقت لوسي نظرةً خاطفة على هنرييتا، ثم أشاحت ببصرها عنها على الفور. كان مزيج الحب والفخر الذي ظهر على وجه هنرييتا الضخم الشاحب مؤثرًا للغاية، لدرجةِ أنه يكاد يكون مزعجًا للناظرين؛ وللحظة، تحوَّل انتباه لوسي بعيدًا عن الطالبات بالأسفل، وبدأت تفكر في هنرييتا. هنرييتا ذات الجسم الذي يفتقر إلى المنحنيات، وطبيعتها الدءوبة والمسئولة. هنرييتا التي كان لديها أبوان مسنان وليس لديها أخوات، ولديها مَيل طبيعي نحو الأمومة. لم يسبق لأحد أن ظل مستيقظًا في الليل يفكر في هنرييتا، أو كان يسير ذهابًا وإيابًا خارج منزلها في الظلام، أو ربما أرسل إليها الزهور. (جعل هذا لوسي تتذكر آلان وتتساءل أين هو الآن؛ كانت هناك أسابيع قليلة في الماضي خلال فصل الربيع، عندما كانت لوسي تفكر بجدية في قبول آلان حبيبًا، على الرغم من تفاحة آدم البارزة. لقد اعتقدت أنه

سيكون من الجيد أن يعتنيَ رجل بها على سبيل التغيير. ومع ذلك، فإن ما جعلها تغيِّر رأيها هو إدراك أن هذا الاهتمام حريٌّ به أن يكون متبادلًا. كان يعني أنها ستُضطر في النهاية، على سبيل المثال، إلى إصلاح جواربه. وفكرة التعامل مع القدمين لم ترُق لها. حتى وإن كانتا قدمَي آلان). بدا أن هنرييتا مقدَّر لها أن تعيش حياة رتيبة، لكنها ذات أهمية كبيرة. ومع ذلك، لم تسِر الأمور على هذا النحو. فإذا كان على المرء أن يحكم من خلال تعبيرات وجهها التي تخفي مشاعرها، فيبدو أن هنرييتا قد أوجدت حياةً ثرية ومُرضية ومجزية. خلال محادثتها مع لوسي عند أول لقاء جمع بينهما، قالت هنرييتا للوسي إنه قبل ١٠ سنوات، عندما تولَّت إدارة كلية لايز، كانت مؤسسة متواضعة وغير معروفة نسبيًّا، ومع ذلك، فقد شهدت هي والكلية نموًّا ونجاحًا كبيرًا منذ ذلك الحين؛ أعلنت هنرييتا بفخر أنها لم تكن فقط مديرة الكلية، بل كانت أيضًا شريكةً في ازدهارها. فقد ازدهرت هي ولايز معًا، وأصبحت هنرييتا جزءًا لا يتجزأ من إنجازات الكلية. لكن لوسي لم تدرك عمقَ ارتباط صديقتها القديمة بعملها قبل تلك اللحظة التي شاهدت فيها هذه التعبيرات على وجه هنرييتا. لقد تمحور عالم هنرييتا حول الكلية، وكانت لوسي تدرك ذلك جيدًا؛ نادرًا ما تحدَّثت هنرييتا عن أي شيء آخر. ومع ذلك، فإن الانغماس العميق في عمل الفرد شيء، والعاطفة الشديدة التي تنعكس على وجه هنرييتا شيء آخر.

قطع حبل أفكارها صوتُ المعدَّات وهي تُسحب للخارج. كانت الطالبات قد توقفن عن ثَنْي أجسادهن كالأقواس على الهياكل؛ إذ كن يشبهن التماثيل في مقدمة السفينة، وكن حينئذٍ يُخرجن الرافعات. فشعرت لوسي بألمٍ في قصبة ساقها؛ إذ تذكَّرت بوضوح المرات التي لا تُعد ولا تُحصى التي اصطدمت فيها عظامها بجسم خشبي صلب؛ لا شك أن إحدى مزايا بلوغ منتصف العمر أنها لن تُضطر إلى أداء أنشطة غير مريحة.

في منتصف القاعة، وُضع العمود الخشبي منتصبًا، وأُدخلت العارضتان الطويلتان في الأخاديد الموجودة على جانبي العمود، ورُفعتا عاليًا بحيث تصلان إلى أبعدِ ما يمكن أن تصل إليه أيدي الطالبات. لتثبيت العارضتين في مكانهما، أُدخلت مساميرُ حديدية بمقابضَ خشبية في فتحات على العمود، وهذا من شأنه أن يخلق هيكلًا يبدو مهيبًا تمامًا، مثل أداة التعذيب. لم يكن هذا وقت الاصطدام المؤلم مع قصبة الساق؛ سيحدث ذلك لاحقًا. في الوقت الحالي، سيؤدين تمرينًا مختلفًا يُعرف باسم «السفر». في هذا التمرين تتناوب الطالبات في أزواج، مع وجود طالبة واحدة في نهاية كل عمود، ويمسكن العمودَ بأيديهن، يشبهن في ذلك تأرجحَ القرود من الفروع. تتحرَّك الفتيات أولًا حركةً جانبية على طول العمود،

ثم يتَّجهن للخلف، وأخيرًا يقمن بحركة دوَّارة، مثل الخُذْرُوف. استمرَّت الحركات بسلاسة حتى حان دورُ الآنسة راوس لأداء حركة الدوران. كانت راوس قد ثنَت ركبتَيها للقفز على العمود، ثم أنزلت يديها ونظرت إلى مدرِّبتها في ذعرٍ يعتري القلقُ وجهَها المنمَّش.

قالت: «أوه، فروكن، لن أتمكن من فعل ذلك.»

قالت فروكن، مشجِّعة، ولكن دون أن تبدو متفاجئة (من الواضح أن هذا الموقف قد حدَث من قبل): «هذا هراء يا آنسة راوس، لقد أديتِها بإتقان في السنوات الأولى. وبالطبع يمكنك أداؤها الآن.»

في صمتٍ يشوبه التوتُّر، قفزت راوس على العارضة وبدأت تتحرَّك على طولها. بمهارةٍ ملحوظة، نفَّذت الحركات على العارضة حتى وصلت إلى منتصفها، ثم، لسببٍ غير واضح، انزلقت يدها من العارضة وهي تستدير، مما تسبَّب في تأرجح جسدها بعيدًا، ممسكة بيدها الأخرى فقط. حاولت استعادة توازنها من خلال سَحب نفسها بيدها الداعمة، لكن الاضطراب أعاق إيقاعها، وانتهى بها الأمر بالهبوط على قدميها.

قالت: «كنت أعرف أن ذلك سيحدث. سوف أصبح مثل كينيون يا فروكن. تمامًا مثل كينيون.»

«آنسة راوس؛ لن تصبحي مثل أي شخص آخر. إنها مسألةُ مهارة، كما ترين. لقد فقدتِ ببساطة مهارتك للحظة، هذا كل شيء. فلتحاولي مرة أخرى.»

قفزت راوس مرةً أخرى إلى العارضة التي فوق رأسها.

قالت السويدية بحزم: «لا!» فنزلت راوس على الأرض وعلى وجهها تعبيرٌ استفهامي.

«لا تقولي: أوه، لا يمكنني فِعل ذلك. لكن قولي: أفعل هذا كثيرًا وبسهولة، والآن أيضًا يمكنني فعل ذلك. ابدئي!»

حاولت راوس مرتين أُخرَيَين، لكنها فشلت.

«حسنًا يا آنسة راوس. هذا يكفي الآن. سيُثَبَّت نصف ذراع العارضة في وقت متأخر من الليل، كما هو الآن، وستأتي مبكرًا في الصباح من أجل التدريب حتى تستعيدي مهارتك.»

قالت لوسي: «مسكينة راوس»، بينما كانت الدعامات تنقلب من أجل تمارين التوازن، مع توجيه الجانب المسطَّح لأعلى بدلًا من الجانب الدائري.

قالت هنرييتا: «صحيح، إنه أمر مؤسف. إنها واحدة من أكثر الطالبات نبوغًا هنا.»

سألت لوسي في تعجُّب: «نبوغ؟» لم تكن لتنسب هذه الصفة لراوس.

«في العمل البدني، على الأقل. موهوبة للغاية. ولكنها تجد صعوبةً في المهام الكتابية، لكنها تعوِّضها بالاجتهاد. إنها طالبة مثالية وإضافة عظيمة للايز. إنه لأمر مؤسف بشأن

هذه المشكلة العصبية البسيطة. بسبب القلق المفرط بالطبع. يحدث هذا في بعض الأحيان. والمثير للدهشة أنه غالبًا ما يكون مرتبطًا بسبب بسيط إلى حدٍّ ما.»

«وماذا كانت تقصد بقولها: «سأصبح مثل كينيون»؟ هذه هي الفتاة التي أخذت تيريزا ديستيرو مكانها، أليس كذلك؟»

«نعم. كم أنتِ ذكية لتذكرك ذلك. فهذا مثال مناسب. فقد أصبح عند كينيون فجأةً اعتقاد بأنها لا تستطيع الحفاظ على توازنها. كانت تتمتع دائمًا بتوازن جيد جدًّا؛ لذلك لم يكن ثمة تفسير منطقي لفشلها المفاجئ. لكنها بدأت تصبح غير مستقرة، وتتوقَّف فجأةً في منتصف الطريق خلال التمرين، ووصلت في النهاية إلى نقطةٍ لم تستطِع حتى الوقوف فيها من وضعية الجلوس على ذراع العارضة. جلست هناك، ممسكةً بالعارضة بإحكام، مثل الطفلة الخائفة. وظلت تبكي.»

«إنه قصور داخلي.»

«بالتأكيد. لم يكن التوازن هو ما كانت تخاف منه. لكن كان علينا أن نعيدها إلى منزلها. نأمُل أن تعود لإنهاء تدريبها بعد راحةٍ طويلة. لقد كانت سعيدة جدًّا هنا.»

دار في خَلَد لوسي، هل كانت سعيدة حقًّا؟ كانت سعيدة لدرجة أنها انهارت. ما الذي جعل الفتاة، التي كانت ذات يوم ماهرة في التوازن، تبكي وترتجف وهي تتشبث تشبثًا شديدًا بالعارضة؟

أخذت لوسي تشاهد باهتمام جديد المحاولات الجارية لتحقيق التوازن الذي كان عقبةً صعبة لم تتمكن كينيون المسكينة من تخطيها. أدَّت الطالبات تمرين الشقلبة في أزواج، صعودًا إلى العارضة العالية، بمجرد وصولهن إلى العارضة، استدرن بأجسادهن للاضطجاع على جُنُوبهن، ثم نهضن بحذر من أجل الوقوف على الحافة الضيقة. رفعن ساقًا واحدة ببطء، وتموَّجت العضلات في الضوء، بينما نفَّذت الذراعان حركتهما المحدَّدة. بدت على وجوه الفتيات تعبيراتٌ هادئة وثابتة العزم. وطاوعتهن أجسامهن بثقة وأُلفة. عند الانتهاء من التمرين، أنزلت الفتيات أنفسهن في وضع الجلوس على أعقابهن، وحافظن على وضع مستقيم ومريح، مع مد الأيدي للإمساك بذراع العارضة التي لا يرونها، وعُدن إلى وضع الجلوس الجانبي قبل أداء شقلبة أمامية، والعودة إلى الأرض.

لم تخطئ أيٌّ منهن أو تخفق. ظلت الأوضاع على أفضل حال. حتى فروكن لم تجد ما تعلِّق عليه. أدركت لوسي أنها كانت تحبس أنفاسها. وانحنت إلى الوراء، واسترخت، وأخذت نفسًا عميقًا.

قالت: «كان هذا رائعًا. في المدرسة، كان مستوى تمارين التوازن أقلَّ صعوبة، مما جعلها أقل إثارة.»

بدت هنريبيتا سعيدة. وقالت: «أحيانًا آتي إلى هنا لمجرد مشاهدة تمارين التوازن لا غير. ينجذب الكثير من الناس إلى التمارين الأكثر إثارة. تمارين مثل القفز وما إلى ذلك. لكن أنا شخصيًّا أجد أن التحكم الهادئ والدقيق، الذي ينطوي عليه تحقيق التوازن، رائع للغاية.»

عندما بدأت الفتيات في تمارين القفز، ثبت أنها مذهلة للغاية. بالنسبة إلى لوسي، بدت العقبات مروعة؛ وتابعت، بتعجب مَن لا يفهم، ما يُحدث تعبيرات الطالبات المبتهجات. كن مستمتعات. كن يدفعن أنفسهن إلى الفراغ، محلقات في الهواء نحو أماكن غير معلومة، ويؤدين حركات الشقلبة. بدا أن الشعور السابق بضبط النفس الذي حدَّد سلوكهن اختفى تمامًا؛ وحل محله وفرةٌ من الطاقة والحيوية واضحة في كل حركاتهن، مصحوبة بإحساس مُعدٍ بالبهجة؛ كان الأمر كما لو أنهن اكتشفن البهجة المطلقة لكونهن على قيد الحياة، ووجدت هذه الوفرة مظاهرها الجسدية في أفعالهن. وفي حالة من الذهول، لاحظت راوس، التي عانت سابقًا وتعثَّرت خلال تمرين العارضة البسيط، وهي الآن تنفِّذ حركات مذهلة بدقة لا تشوبها شائبة، تطلَّبت هذه العروض المذهلة شجاعةً هائلة وتحكمًا استثنائيًّا وموهبة طبيعية رائعة. (كانت براعة راوس الجسدية رائعة بلا شك، كما أشارت هنريبيتا. فقد امتلكت مهاراتٍ استثنائية في مختلف الرياضات، وأظهرت دقة فائقة في التوقيت والتنسيق. ومع ذلك، لم تستطِع لوسي إلا أن تشعر بعدم الارتياح تجاه مصطلح «نابغة». فبالنسبة لها، «المذهل» يشمل أكثرَ من مجرد القدرات الجسدية؛ إنه ينطوي على مزيج متناغم من التميز في الجسد والعقل والروح، مثل بو، التي جسَّدت العظمة الشاملة.)

«آنسة ديكرز! حرِّري يدك اليسرى حالًا. هل تتسلقين جبلًا؟»

«لم أقصد تركها كلَّ هذه المدة يا فروكن. حقًّا لم أقصد.»

«أنا أفهم ذلك. لكن هذا ليس عذرًا. حاولي مرةً أخرى بعد الآنسة ماثيوز.»

أقدمت ديكرز على محاولة أخرى، وهذه المرة نجحت في جعل يدها العنيدة تحرِّر قبضتها في الوقت المناسب.

قالت: «لقد أحسنت!» وهي سعيدة بنجاحها.

قالت فروكن: «بالتأكيد أحسنت»، وهي تبتسم. وأردفت: «التنسيق. أهم ما في الأمر هو التنسيق.»

قالت لوسي لهنرييتا، بينما كانت الطالبات يرتبن المعدَّات التي يستخدمنها في تدريبهن: «إنهن يُحبِبن فروكن، أليس كذلك؟».

أجابت هنرييتا، بنبرةٍ تشبه إلى حدٍّ ما نبرتَها حينما كانت رئيسة للطالبات: «الطالبات يُحبِبن جميعَ هيئة التدريس.» وأردفت: «ليس مستحسنًا أن يكون لديكِ عضوة غير محبوبة بهيئة التدريس، مهما بلغت مهارتها. ومن ناحية أخرى، يجدُر بالطالبات احترام هيئة التدريس.» وابتسمت ابتسامةً أقرب إلى ابتسامة كبار رجال الدين عندما يُلقون نكتة؛ فهنرييتا لا تلقي النكات بسهولة. وتابعت: «إن فروكن والآنسة لوكس والسيدة لوفِيفْر جميعهن يُثِرن رهبة صحية بطرقهن المختلفة.»

قالت لوسي: «السيدة لوفيفر؟ لو كنت طالبة، لا أعتقد أنني سأشعر بالرهبة؛ سأكون مرعوبة.»

أوضحت هنرييتا: «أوه، ماري تصبح إنسانية تمامًا بمجرد التعرُّف عليها. إنها تستمتع بكونها إحدى الشخصيات الأسطورية في الكلية.»

ماري والبغيضة، فكَّرت لوسي؛ الشخصيتان الأسطوريتان في الكلية. كلتاهما تمتلكان صفاتٍ متشابهة: كلتاهما مرعبتان وآسرتان.

وقفت الطالبات في صف، يأخذن أنفاسهن عميقةً وهن يرفعن ويخفضن أذرعهن. انتهت ٥٠ دقيقة من النشاط المركَّز، ووقفن هناك: متوهجات، ومنتصرات، وراضيات.

وقفت هنرييتا مشيرةً إلى أنها تنوي المغادرة، وعندما استدارت لوسي لتتبعها، لاحظت أن والدة فروكن كانت جالسة خلفهما في المعرض. كانت امرأة صغيرة الحجم ممتلئة الجسم، وشعرها مصفَّف على هيئة كعكة خلف رأسها، وقد ذكَّرت لوسي بامرأة نوح، كما صوَّرها صانعو لعبة «آرك» (سفينة نوح). حَنَت لوسي رأسها وابتسمت الابتسامة المُبالغ فيها التي يظهرها المرء للغرباء من أجل كسر حاجز الصمت، وبعد ذلك، أدركت أنه على الرغم من أن هذه المرأة الصغيرة لا تتحدَّث الإنجليزية، فإنها قد تفهم اللغة الألمانية، وجرَّبت إحدى العبارات، وتهلل وجه المرأة الضئيلة الحجم.

قالت المرأة: «إن الحديث معك يا آنسة شيء ممتع حتى إنني سأتحدث الألمانية كي تتسنى لي محاورتك. تقول لي ابنتي إنك شخصية مميزة جدًّا.»

قالت لوسي إنها حقَّقت بعض النجاح، وهو أمرٌ يختلف عن التميز للأسف؛ وأعربت عن إعجابها بما شاهدته لتوها. هنرييتا، التي درست الكلاسيكيات بدلًا من اللغات الحديثة في المدرسة، نأت بنفسها عن تبادل المجاملات هذا، وسبقتهما إلى أسفل الدَّرج. عندما

خرجت لوسي والسيدة جوستافسِن إلى ضوء الشمس، كانت الطالبات يخرجن من الباب في الجهة المقابلة، كن يركضن أو يتسكعن عبر الممر المغطَّى باتجاه المبنى. وكانت راوس آخر مَن خرج، ولم تستطِع لوسي إلا أن تشتبه في أن توقيت خروجها كان مقصودًا، ليتزامن مع مرور هنرييتا. لم يكن هناك سبب يجعلها تتخلف بضع خطوات عن الآخرين بهذه الطريقة؛ فهي بالتأكيد لاحظت أن هنرييتا كانت تقترب منها. لو كانت لوسي مكان راوس، لكانت أسرعت بعيدًا، لكن راوس كان مُتباطئة. فزاد عدم إعجاب لوسي بالآنسة راوس أكثر من المعتاد.

لحِقت هنرييتا بالفتاة وتوقَّفت للحديث معها؛ وعندما مرَّت لوسي والسيدة جوستافسِن بهما، لاحظت لوسي التعبير الذي بدا على وجه الآنسة راوس المتوتر والمنمَّش، وقد نظرت لأعلى لتستمع إلى نصائح مديرة الكلية، وتذكَّرت المصطلح الذي كانوا يستخدمونه لوصف مثل هذا السلوك في المدرسة. التملُّق. وشعرت لوسي بشيء من الابتذال حيال مشاهدة راوس تفعل ذلك بطريقة صريحة ومبالغ فيها.

قالت بحزن: «لطالما أحببت النمش أيضًا.»

«عفوًا ماذا؟»

ولكن هذا لم يكن موضوعًا يمكن التحدُّث فيه بإطناب باللغة الألمانية. دلالة النمش. يمكنها تخيُّل ذلك: مجلد ضخم مليء بالمصطلحات المعقدة والجادة. لا، الأمر يتطلب استخدام اللغة الفرنسية. كتاب صغير مليء بالسخرية الودودة. وبعض العبارات الموجزة البارعة التي تحمل معانيَ مؤثرة.

سألت لوسي: «هل هذه زيارتك الأولى لإنجلترا؟» وبدلًا من الانضمام إلى الأخريات داخل المبنى، تسكَّعن عبر الحديقة باتجاه واجهة المبنى.

نعم، كانت هذه هي الزيارة الأولى للسيدة جوستافسِن إلى إنجلترا، وقد أدهشها أن الأمة التي زرعت حدائق مثل هذه لا بد أنها هي نفسها التي بنَت هذه المباني الموجودة فيها. قالت «لا أقصد هذا المبنى بالطبع؛ فهذا المبنى القديم رائع للغاية. وهو ينتمي إلى حقبة جيدة، أليس كذلك؟ لكن ما يراه المرء من القطار وسيارة الأجرة؛ يبدو الأمر مروعًا بعد أن كنت في السويد. من فضلك لا تعتقدي أنني انتقادية. إنها ...»

«انتقادية؟»

«نعم. ساذجة، وجاهلة، ومقتنعة بأنه لا يمكن لأحد أن يفعل أي شيء مثل ما تستطيع دولتي فعله. لقد اعتدت فقط المنازلَ الحديثة التي يروق لي النظر إليها.»

قالت لوسي إنه يمكنهما أيضًا الحديث عن المطبخ الإنجليزي بهذه المناسبة.

قالت المرأة الضئيلة الجسم في تعجُّب: «أوه، لا. الأمر ليس كذلك. قد أخبرتني ابنتي. ففي الكلية هن يتَّبعن حِميةً غذائية» — اعتقدت لوسي أن «يتَّبعن حمية غذائية» هي عبارة مهذَّبة من شخص لبِق — «ولهذا فالطعام في الكلية لا يمثل المطبخ الإنجليزي. تقول ابنتي إن الأكل في الفنادق لا يمثل المطبخ الإنجليزي هو الآخر. لكنها أقامت في منازل خاصة وقت الإجازات، وتقول إن الأطباق الإنجليزية شهية. لم تحب كل الأطباق. ففي النهاية، لا يحب جميع الناس الرِّنجة النيئة التي نتناولها في بلدنا. ولكن اللحم المشوي في الفرن، وفطيرة التفاح بالكريمة، ولحم الخنزير البارد الوردي الطَّري جميعها أطباق شهية. شهية جدًّا.»

بينما كانت لوسي تتجوَّل في الحديقة المشمسة، بدأت تسهب في الحديث عن أنواع مختلفة من الأطعمة؛ مثل سمك الرنجة المقلي مع دقيق الشوفان، وفطيرة الشعير والزنجبيل والعسل الأسود، وكعك ديفونشاير الحلو، وحساء اللحم والخضراوات، وشرائح اللحم، والعديد من الأطباق المحلية الأخرى. ولكنها لم تذكر فطيرة لحم الخنزير، التي اعتقدت في داخلها أن أكلَه يُعد وحشية.

وعندما انعطفتا عند زاوية المبنى واقتربتا من الباب الأمامي، مرَّتا بنوافذ غرفة المحاضرات حيث تجلس طالبات السنة النهائية منشغلاتٍ بالاستماع إلى محاضرة الآنسة لوكس. كانت النوافذ مفتوحة بالكامل من الأسفل لتظهر الغرفة بأكملها بكل تفاصيلها، وألقت لوسي نظرةً فاترة على وجوه الطالبات أثناء جلوسهن في الداخل.

صرفت بصرها عنهن، ثم أدركت أن هذه لم تكن نفس الوجوه التي رأتها قبل ١٠ دقائق فقط. فنظرت إليهن مرةً أخرى وهي تشعر بالذهول. لقد اختفت الحماسة والوجه الذي يصيبه الاحمرار من أثر التمرين وشعور الرضا بسبب الإنجاز. وحتى مظهرهن الشبابي اختفى. وبدت وجوههن مرهقة وتفتقر إلى الطاقة.

ليس جميعهن بالطبع. فلا تزال هاسيلت تتمتع بمظهر هادئ. ولا يزال وجه بو ناش جميلًا ومشرقًا. ولكن بدا معظمهن مرهقات ومتعبات إلى حدٍّ لا يُصدق. فماري إينيس، التي كانت تجلس بالقرب من النافذة، كان لديها تجعُّد ملحوظ من أنفها إلى ذقنها؛ تجعُّد لا يُفترض أن يظهر على وجهها قبل ٣٠ عامًا.

شعرت لوسي بشيء من الحزن وعدم الارتياح، كما هي الحال عندما يحدث شيء محزن خلال وقت سعيد، فصرفت بصرها عنهن. وكان آخر شخص رأته أثناء مرورها هو وجه الآنسة راوس. ذكَّرتها النظرة على وجه الآنسة راوس بقرية والبرسويك.

لكن لماذا والبرسويك؟

لم يكن لوجه الآنسة راوس الحذِر المنمش أيُّ علاقة بعمة لوسي القوية.

بالطبع لا.

إذن لماذا ... مهلًا! لم تكن تشبه عمَّتها. كانت قطة عمَّتها. كان التعبير الذي ظهر على وجه فتاة المقاطعة الشمالية تلك في غرفة المحاضرات هو التعبير نفسه الذي كان لدى فيلادلفيا عندما وضعت لها الكريمة بدلًا من الحليب في طبقها. وهناك كلمة واحدة فقط تصف ذلك التعبير. هذه الكلمة هي: «متعجرفة».

شعرت لوسي، وهو شعور ليس مستغربًا، أن الفتاة التي فشلت لتوها في أداء تمرين عاديٍّ لا يحق لها أن تبدو متعجرفة. واختفى تمامًا أيُّ ميل متبقٍّ للشعور بالأسى على الآنسة راوس.

الفصل السابع

قالت فطيرة المكسرات، التي ظهرت فجأة بجوار لوسي: «هيا نهرب معًا يا آنسة بيم.»

في صبيحة يوم الأربعاء غشي الكلية السكون التام الذي يُصاحب الاختبارات النهائية. كانت لوسي تقف مُتكئة على بوابةٍ ذات خمسة قضبان أفقية خلف صالة الألعاب الرياضية، وهي تُحَملق في حقلٍ من نبات الحَوْذان. كانت واقفة عند نهاية حديقة لايز، تلك النقطة التي ابتدأ الريف من عندها، الريف الذي نعرفه، والذي لم تَطُله يد لاربورو، والذي لم يُمَس ولم يُلَوَّث. انحدر الحقل نحو جدول، كان على الجانب الآخر منه ملعب الكريكت، امتد بعده سياجٌ طويل من الأشجار والمروج في نسيج ممتد يجمع الألوان الأصفر والأبيض والأخضر، وبدا كل شيء ساكنًا تحت أشعة شمس الصباح.

أخذت لوسي تدير عينيها بصعوبة عن الحوذان الأصفر البرَّاق الذي أطار لبَّها وفتنها، وتساءلت عن عدد الفساتين الحريرية المزهرة التي تمتلكها فطيرة المكسرات. وها هي ذي الآن ترتدي فستانًا آخر يتميز في مظهره المبهرج وألوانه المزركشة عن الملابس الإنجليزية الهادئة الأنيقة.

سألت لوسي: «إلى أين تقترحين أن نذهب؟»

«لنذهب إلى القرية.»

«هل توجد قرية قريبة؟»

«إن القرى منتشرة في أرجاء الريف الإنجليزي؛ فإنجلترا من الدول التي تتميز بذلك. ولكن على وجه التحديد، فإن القرية القريبة من هنا تُسمى بيدلينجتون. فخلف تلك الأشجار، يمكنك رؤية جزء من دوَّارة الرياح أعلى برج الكنيسة.»

قالت لوسي، التي لم تَعْتَد المشي مسافاتٍ طويلة، وكانت راضية جدًا عن المكان الذي تقف فيه حاليًّا؛ إذ لم تحظَ منذ وقت طويل بفرصة تَأَمُّل حقل من الحوذان وبوقت غير محدود للاستمتاع به: «تبدو القرية بعيدة. هل هي مكان مميز؟»

قالت ديستيرو، وكأنها تقدِّم دليلًا على أهمية القرية: «أوه، نعم. إن بيدلينجتون قرية بها حانتان.» وأردفت: «علاوة على ذلك، فإن بها كل ما يتوقع المرء وجوده في قرية إنجليزية. فقد نامت الملكة إليزابيث هناك، واختبأ بها تشارلز الثاني؛ ووجد الصليبيون راحتهم الأبدية في كنيستها — واحد منهم يشبه شبهًا كبيرًا مديرَ مزرعتنا في البرازيل — ويمكنك العثور على بطاقات بريدية لجميع أكواخ القرية في المتجر الذي يوجد بها، وتظهر القرية كذلك في الكتب، إن القرية …»

«هل تقصدين كتب الإرشاد السياحي؟»

«لا، لا. هناك مؤلِّف متخصِّص في الكتابة عن بيدلينجتون. عندما وصلتُ أولَ مرة إلى لايز، قرأت أحدَ كتبه. كان عنوان الكتاب «المطر فوق السماء». كان الكتاب مليئًا بالحكايات المثيرة للشهوة والعلاقات المحرَّمة. ويوجد أيضًا شهداء بيدلينجتون … وهم مجموعة مكوَّنة من ستة رجال كانوا قد ألقوا الحجارة على قسم الشرطة في وقتٍ ما خلال القرن الماضي، وانتهى بهم المطاف في السجن. تخيلي أن تتذكر دولة مثل هذه الحوادث! في بلدي، نستخدم السكاكين — عندما لا نستطيع شراء المسدسات — ونغطي الجثث بالورود، ونذرف الدمع، لكن سرعان ما ننسى كل شيء بحلول الأسبوع التالي.»

«حسنًا …»

«يمكننا احتساء بعض القهوة في «ذا تي بوت».»

«يبدو لي وكأنه مقهًى ذو طابع أيرلندي إلى حدٍّ، أليس كذلك؟»

ولكنه كان من الصعب لشخص غريب عن البلاد، حتى وإن كان ذكيًّا، استيعابه. قالت ديستيرو: «ما يمكنني أن أقوله هو أنه يقدِّم قهوة حقيقية. حقيقية في الرائحة والمذاق. أوه، هيا بنا يا آنسة بيم. إن المقهى لا يبعُد سوى ١٥ دقيقة سيرًا على الأقدام، ولم تبلغ الساعةُ العاشرةَ بعد. ولا يوجد ما نفعله هنا حتى موعد أكل الفاصولياء في الواحدة.»

سألت لوسي، وهي تسير باستسلام عبر البوابة المفتوحة لها: «أليس لديكِ أي اختبارات؟»

أجابت فطيرة المكسرات: «أعتقد أنني سأخضع لاختبار التشريح. هذا لمجرد الاستمتاع به. لقد حضرت جميع المحاضرات؛ لذلك سيكون من الممتع أن أرى مقدار ما تعلمت. إن التشريح علم قيِّم. إنه يتطلب جهدًا كبيرًا بالطبع، وهو ليس من العلوم التي تُقَدِّر الخيال، لكن المعرفة التي سأكتسبها تستحق العناء.»

«أظن ذلك. فلا يريد المرء أن يشعر بأنه جاهل في حالة الطوارئ.»

قالت ديستيرو، التي بدا ذهنها منشغلًا بشيء آخر: «طوارئ؟» وأردفت: «أوه، نعم، أفهمك. ولكن ما قصدته هو أن علم التشريح لا يتقادم أبدًا. فمجال دراستك، سامحيني يا آنسة بيم، يصبح قديمًا بمرور الوقت، أليس كذلك؟ قد يكون الاستماع إليه رائعًا، لكن العمل به أمرٌ غير حكيم على الإطلاق. فالأفكار الصالحة اليوم قد تصبح غير منطقية غدًا، ولكن الترقوة ستظل دائمًا هي الترقوة. هل تفهمين وجهة نظري؟»

لاحظت لوسي هذه القدرة على الاقتصاد في الجهد وغبطتها.

«إذن، عندما تخضع غدًا طالبات السنوات الأولى لاختبار التشريح النهائي، سأنضم إليهن. إنه علم يجلب الاحترام؛ وسيروق ذلك لجَدتي. ولكن اليوم، بينما هن مشغولات بحل الألغاز، سأذهب أنا إلى بيدلينجتون مع الآنسة بيم، وسنستمتع بقهوتنا.»

«حل الألغاز؟»

أخرجت فطيرة المكسرات ورقة مطوية من الجيب الصغير في فستانها وبدأت في القراءة: «إذا رُكلت الكرة إلى خارج خط التماس، ولكنها لم تلمس الأرض، وأقدَمَ لاعبٌ يقف في الملعب على ركل الكرة أو الإمساك بها وإعادتها إلى الملعب مرة أخرى، فما هو القرار الذي ستتخذه؟»

في صمتٍ أبلغَ من الكلام، طوت فطيرة المكسرات الورقة المنسوخة وأعادتها إلى جيب الفستان.

«كيف تمكنتِ من الحصول على نسخة من ورقة الاختبار والطالبات ما زلن في اختبار الألعاب الرياضية؟»

«أعطتني الآنسة راج نسخة. لقد اعتقدت أن ذلك قد يسليني. وهو كذلك بالفعل.»

وفي الطريق بين الحقل الأصفر والسياج المزيَّن بزهور شهر مايو البيضاء سارت الآنسة بيم وديستيرو إلى الجدول. وتوقَّفتا على الجسر الصغير لتأمُّل المياه التي تُظِلها أشجار الصفصاف.

أشارت ديستيرو عبْر الجدول نحو اليابسة، قائلة: «يوجد الملعب هناك. خلال فصل الشتاء، يغمره الوحل، وتلصق اللاعبات قضبانًا بأحذيتهن لمنع الانزلاق.» دار بخَلد لوسي أن اللهجة المُستخدمة لوصف أحذية اللاعبات كانت مشابهة تمامًا لتلك المستخدمة لقول: «اللاعبات يرتدين الخواتم في أنوفهم لزيادة جاذبيتهن.» وأردفت ديستيرو: «والآن سوف نسير في اتجاه مجرى الجدول إلى الجسر الصغير التالي حتى نصل إلى الطريق هناك. إنه ليس طريقًا بالضبط؛ مجرد ممر ضيق.» سارت ديستيرو في صمت على طول المسار المظلل،

كانت أشبه باليعسوب الزاهي، تسير في خفة وأناقة وكأنها من عالم آخر. واندهشت لوسي من قدرة ديستيرو على الاحتفاظ بهذا الهدوء طوال سَيرهما.»

عندما وصلتا إلى الطريق أخيرًا، سألت فطيرة المكسرات: «هل معكِ أيُّ نقود يا آنسة بيم؟»

توقفت لوسي وهي تجيب في حيرة: «لا.»

«وأنا أيضًا ليس لدي أي نقود. لكن لا بأس. فالآنسة نيفيل ستتولى الأمر.»

«ومَن هي الآنسة نيفيل؟»

«إنها السيدة التي تدير المقهى.»

«هذا غريب إلى حدٍّ ما، أليس كذلك؟»

«ليس غريبًا في رأيي. فأنا أنسى إحضار النقود معي دومًا. لكن الآنسة نيفيل إنسانة رائعة. لا تشعري بالسوء حيال ذلك يا عزيزتي الآنسة بيم، فأنا أتمتع بسمعة طيبة في القرية، وسترَين ذلك.»

كانت القرية تمامًا كما وصفتها ديستيرو؛ وكذلك كانت الآنسة نيفيل. ومن ثَم يمكن قول الشيء نفسه على «ذا تي بوت» بالتأكيد. كان المقهى أحدَ تلك المقاهي التي غالبًا ما يزدريها أولئك الذين يفضِّلون الخبز والجبن والبيرة، ويُرحب بها جيل مُحبِّي الشاي، الذين لا يزالون يتذكرون الغرف المليئة بالذباب الموجودة خلف مخابز القرية، والكعك البسيط المليء بالزبيب الذي يشبه الحشرات الميتة، والأكواب المشققة السيئة التنظيف، والشاي الداكن غير المستساغ.

يمتلك المقهى جميعَ العناصر التي ينتقدها أولئك الذين يتردَّدون على الحانات في القرى لأغراض أدبية: الخزف الصيني المزيَّن بنمط الأشجار الهندية، والطاولات من خشب البلوط الداكن، وستائر الكتان ذات التصميم اليعقوبي، والباقات العشبية المعروضة في أباريقَ بنية غير مصقولة؛ نعم، وحتى الأعمال الفنية واليدوية في النافذة. ولكن، في نظر لوسي، التي كانت لها تجربة خلال الفترة التي عرفت فيها آلان في الحانات المتربة، كان المقهى مكانًا ساحرًا بلا شك. امتلأ الهواء بالرائحة الزكيَّة للكعك المُنَكَّه الذي خرج للتو من الفرن، كما توجد، إضافةً إلى النافذة الطويلة المواجهة للشارع، نافذةٌ أخرى تُطلُّ على حديقةٍ نابضة بالحياة والألوان؛ كانت الأجواء مليئة بالسلام والروعة والترحيب.

استقبلت الآنسة نيفيل، وهي امرأة ضخمة ترتدي مريلةً من قماش قُطني مطبوع، ديستيرو استقبالَ المعارف القدامى المهمِّين، وسألت عما إذا كانت ديستيرو قد «تسللت من الكلية كما يقولون في الجانب الآخر من المحيط الأطلسي.» لم تكترث فطيرة المكسرات

بتشبيه الآنسة نيفيل لها بمن يعيشون في الشوارع الخلفية لبروكلين. قدَّمت ديستيرو لوسي بأدب قائلة: «أُقدِّم لكِ الآنسة بيم، التي تؤلف كتبًا في علم النفس، وهي ضيفتنا في لايز. لقد قلتُ لها إنه يمكننا هنا احتساءُ القهوة الحقيقية، وتجربة جوٍّ متحضر عمومًا. ليس لدى أيٍّ منا نقودٌ على الإطلاق، لكننا سنتناول الكثير وسندفع لكِ ثمن ما تناولناه لاحقًا.»

بدا هذا الطلب منطقيًّا جدًّا في نظر الآنسة نيفيل وذهبت إلى المطبخ لإحضار القهوة من دون إبداء أي علامات دهشة أو اعتراض. كان المقهى فارغًا في هذه الساعة من الصباح، مما سمح للوسي بالتجوُّل فيه وتفقُّد المطبوعات القديمة والأعمال اليدوية الجديدة — كان من دواعي سرورها أن لاحظت أن الآنسة نيفيل لم تستخدم مقارعَ أبواب نحاسية رخيصة، حتى مع وجود حصائر الرافيا — ثم جلست مع ديستيرو على طاولة تطل على شارع القرية. وقبل وصول قهوتهما، وصل ثنائيٌّ في منتصف العمر، زوج وزوجة، في سيارة كما لو كانا يبحثان عن المقهى. تشبه السيارة تلك السيارات الذي قد يقودها طبيب إقليمي؛ فهي مصمَّمة لتحقيق الكفاءة في استهلاك الوقود، وتظهر عليها علامات كونها في عامها الثالث أو الرابع من الاستخدام. ولكن المرأة التي خرجت من المقعد الأبعد للسيارة، والتي تبادلت ابتسامةً مع زوجها، لم تكن تشبه زوجات الأطباء. كان لها شعر رَمادي، وقوام رشيق، وسيقان طويلة، وأقدام صغيرة تلبس فيهما حذاءً أنيقًا. راقبتها لوسي بسرور. كان من النادر هذه الأيام أن تصادف أفرادًا يتمتعون بجسد متناسق؛ فقد حلَّت مسايرةُ الموضة محل الذوق العام.

قالت ديستيرو، وهي تتأمل المرأة وترمق السيارة بنظرة ازدراء: «في بلدي، يكون لدى امرأة مثلها سائق وخادم.»

وعِلاوة على ذلك، رأت لوسي، بينما كانت تشاهدهما يدخلان المقهى، أنه من غير المألوف رؤية زوج وزوجة في منتصف العمر كلٌّ منهما مستمتع بصحبة الآخر. بدا عليهما وكأنهما يقضيان عطلة. دخلا المقهى وبدا على وجهيهما الترقب والتساؤل.

قالت المرأة: «نعم، هذا هو. تلك هي النافذة التي تطل على الحديقة التي تحدثت عنها، وهناك صورة جسر لندن القديم.»

كانا يتنقَّلان في المقهى في هدوء ودون تكلُّف، يفحصان ما به، قبل أن يستقرَّا على طاولة بجوار النافذة الأخرى. شعرت لوسي بالارتياح عندما رأت أن الرجل هو الشريك المثالي الذي كانت ستختاره لمثل هذه المرأة؛ كان جادًّا إلى حدٍّ، وربما مستغرقًا في ذاته أكثر من زوجته، لكنه كان مثيرًا للإعجاب بلا شك. لقد ذكَّرها بشخصٍ ما، مع أنها لا تستطيع

أن تتذكَّر مَن هو، شخصٍ هي معجبةٌ به. السبب في ذلك حاجباه. الحاجبان الداكنان المستقيمان فوق عينيه. لاحظت أن بذلته، مع أنها قد كويت وحُفِظت جيدًا، قديمةٌ جدًّا، وتحمل علامات التنظيف الكثير التي غالبًا ما تتميز بها الملابس القديمة. وبدت بذلةُ المرأةِ، الصوفُ الخشنة، باليةً ومتهالكة، وكانت جواربها مرتوقة بعناية عند الكعبين. كانت يداها أيضًا بها علاماتٌ تدل على اعتيادها الأعمالَ المنزلية، وكان شعرها الرمادي الناعم مغسولًا في المنزل وغير مصفَّف. ما الذي جلب مثل هذه السعادة إلى هذه المرأة التي واجهت قيودًا مالية؟ هل كانت مجرد متعة أن تكون في إجازة مع زوج تحبه؟ هل كانت هذه الصحبة هي التي أضاءت عينيها الرماديتين اللامعتين، ومنحتهما سعادةً تكاد تكون طفولية؟

أتت الآنسة نيفيل حاملةً القهوة وطبَقًا كبيرًا من الكعك المنكَّه، الذي بدا طازجًا وذا حواف مُقرمشة. قررت لوسي تجاهل أمر وزنها هذه المرة فقط والاستمتاع بوقتها. كان هذا قرارًا تتخذه كثيرًا بكل أسف.

بينما كانت لوسي تصب القهوة، سمعت الرجل يقول: «صباح الخير. لقد قطعنا مسافة طويلة من الغرب لتذوق الكعك المخبوز على الصاج. هل بإمكانك أن تعُدِّي لنا بعضًا منه، أم إنك مشغولة جدًّا في هذا الوقت من الصباح؟»

وأضافت المرأة ذات الأيدي الكادحة: «إذا كنتِ مشغولة للغاية، فلا بأس في ذلك. يمكننا تناول بعض من هذا الكعك الذي نشم رائحته الزكية.»

ولكن الأمر لا يستغرق وقتًا طويلًا حتى تجهِّز الآنسة نيفيل الكعك المخبوز على الصاج. قالت إنها ليس لديها عجينة جاهزة؛ فالكعك لا يكون مطلوبًا عادة خلال الصيف؛ ولذلك لن يكون الكعك رائعًا كحالته عندما يُترك العجين بعض الوقت ليتخمَّر ويهدأ.

«لا، أعتقد أنه لا يُطلب عادةً في الصيف، لكن ابنتنا في لايز تحدَّثت عنه كثيرًا، وقد تكون هذه فرصتنا الوحيدة لتذوُّقه.» وابتسمت المرأة، وبدا أن ذلك بسبب التفكير في ابنتها وبسبب شوقها الطفولي إلى الكعك.

إذن، فهما والدا إحدى الفتيات في لايز.

تساءلت لوسي في نفسها، وهي تنظر إليهما من خلف فنجان القهوة، والدا مَن؟

ربما هما والدا بو. أوه، لا؛ إن بو ثرية بالطبع. والدا مَن إذن؟

لم تكن ضد فكرة أنهما والدا ديكرز، لكن كانت هناك أسباب تجعلها تشك في ذلك. فلا يمكن أن تكون ديكرز ذات الشعر الفاتح ابنةَ هذا الرجل الجاد الداكن البشرة، ولا يمكن لهذه المرأة الذكية والناضجة أن تلد ديكرز الحمقاء.

وفجأة، تذكَّرت صاحبة هذين الحاجبين.

إنهما حاجبا ماري إينيس.

إنهما والدا ماري إينيس. وقد أظهرت شخصيتهما بطريقة غريبة شخصيةَ ماري إينيس. جِديتها، وشعور مَن يراها أنها تنتمي إلى قرن آخر، وعدم شعورها بأن الحياة ممتعة. فالعيش بمعاييرَ عالية وعدم امتلاك المال الكافي لتوفير هذه المعايير ليسا الوضع المثالي لفتاةٍ أثقلتها الحاجة إلى النجاح في دراستها.

وفي السكون الذي أعقب رحيل الآنسة نيفيل، وجدت لوسي نفسها تقول: «سامحاني، هل اسم عائلتكما هو إينيس؟»

فالتفتا إليها وقد أصابتهما الحيرة للحظة؛ ثم ابتسمت المرأة. وقالت للوسي: «نعم. هل تقابلنا من قبل؟»

أجابت لوسي المسكينة التي بدأت تشعر ببعض التوتر الذي دائمًا ما يصيبها عندما يضعها اندفاعها في موقفٍ غير مُخطَّط له: «لا. لكني تعرَّفت حاجبي زوجك.»

قال السيد إينيس: «حاجبيَّ!»

ولكن زوجته التي تتفوق عليه في سرعة البديهة ضحكت. وقالت: «بالتأكيد. ماري! إذن أنت من لايز؟ هل تعرفين ماري؟» وتهللت أساريرها وأصبحت طريقة كلامها أشبه بالغناء وهي تقول ذلك. هل تعرفين ماري؟ هل سبب سعادتها هو أنها سترى ابنتها اليوم؟

شرحت لوسي مَن تكون، وقدَّمت ديستيرو التي كانت سعيدة لكون هذين الزوجين الرائعين يعرفان كل شيء عنها. قالت السيدة إينيس: «لا يوجد سوى القليل جدًّا الذي لا نعرفه عن لايز، حتى وإن كنا لم نرَ المكان من قبل.»

«لم تريا المكان من قبل؟ بالمناسبة، ألن تأتيا لتناول القهوة معنا؟»

«إن المسافة الطويلة لم تمكِّنَّا من القيام بذلك قبل التحاق ماري بكلية لايز. لذا، قررنا الانتظارَ حتى انتهاء تدريبها والمجيء لمشاهدة العرض.» استنتجت لوسي أنه لو لم تكن تكاليف السفر مشكلة، لما انتظرت والدة إينيس هذه السنوات حتى تأتي لزيارة لايز؛ كانت ستأتي حتى لمجرد مشاهدة ابنتها في هذه البيئة.

«لكنكما في طريقكما إلى هناك الآن، أليس كذلك؟»

«لا. من الغريب أننا لسنا ذاهبين إلى هناك. نحن في طريقنا إلى لاربورو حيث يحضُر زوجي، الذي يعمل طبيبًا، اجتماعًا. سنذهب إلى لايز بالتأكيد، لكن هذا هو أسبوع

الاختبارات النهائية، وسوف يصرف انتباه ماري عن الاختبارات مجيءُ أبويها فجأةً ودون سبب. من الصعب إلى حدٍّ ما عدمُ زيارتها ونحن بهذا القرب منها الآن، ولكننا انتظرنا فترةً طويلة، بإمكاننا الانتظار ١٠ أيام أخرى، أو ما يقرُب من ذلك. ما لم نستطِع مقاومته هو أن نحيد عن الطريق الغربي الرئيسي والقدوم إلى بيدلينجتون. لم نتوقَّع أن نلتقي مصادفةً بأحدٍ من الكلية في هذه الساعة من الصباح، وخلال أسبوع الاختبارات خاصة، وأردنا رؤية المكان الذي تحدَّثت ماري عنه كثيرًا.»

قال الدكتور إينيس: «علِمنا أنه لن يكون أمامنا متَّسع من الوقت في يوم العرض. سيكون هناك الكثير لمشاهدته في هذا اليوم. إنه تدريب متنوِّع تنوعًا مذهلًا، أليس كذلك؟»

وافقت لوسي على ما قاله، وبدأت في وصفِ انطباعها الأول عن غرفة هيئة التدريس والعوالم المتنوِّعة بها.

«صحيح. لقد دُهشنا إلى حدٍّ ما عندما اختارت ماري هذا المجال، فلم تُبدِ من قبلُ أيَّ اهتمام بالألعاب الرياضية، وكنت أظنها ستختار المجال الطبي، لكنها قالت إنها تريد مجالًا يوفر لها مجموعةً واسعة من الخبرات؛ ويبدو أنها وجدته!»

تذكَّرت لوسي الصمود الظاهر على هذه الحواجب المستقيمة؛ لقد كانت محقة في قراءة وجه ماري؛ إذا كان أمام ماري هدفٌ ما، فلن تتخلى عنه بسهولة. حقًّا، إن الحاجبين يخبران بالكثير من المعلومات المفيدة عن الشخص. إذا ما أصبح علم النفس علمًا قديمًا في يوم من الأيام، فسوف تؤلف كتابًا عن قراءة الوجوه. سوف تستعين وقتها باسمٍ مستعار بالطبع. فقراءة الوجوه ليست مجالًا ذا قيمة وسط المفكرين.

قالت ديستيرو فجأة: «ابنتكما رائعة الجمال.» والتهمت قطعة كبيرة من الكعك المنكَّه، وعندما شعرت بدهشة الجميع الذين صمتوا، نظرت إليهم. قالت: «أهو من غير اللائق في إنجلترا الإشادة أمام والدين بجمال ابنتهما؟»

سرعان ما قالت السيدة إينيس: «أوه، لا، الأمر ليس كذلك، كلُّ ما في الأمر هو أننا لم نرَ ماري فتاةً جميلة. إنها ذات مظهر جيد بالطبع؛ أو على الأقل هذا ما نراه، ولكن عادةً ما يكون الآباء مفتونين بابنتهم الوحيدة. إنها …»

قالت ديستيرو وهي تلتقط كعكة أخرى من الطبق (كيف حافظت على وزنها؟!): «عندما وطِئت قدماي هذا المكان للمرة الأولى، كانت السماء تمطر، وكانت جميع الأوراق المتسخة تتدلى من الأشجار مثل الخفافيش النافقة، تقطر على الجميع، وكان جميع الفتيات يتجولن سريعًا في الكلية، ويتبادلن التحيات: أوه، كيف حالك يا عزيزتي؟ هل قضيتِ عطلة

سعيدة؟ عزيزتي، لن تصدقي ذلك، لكنني نسيت عصا الهوكي الجديدة على رصيف سكة حديد كرو! وبعد ذلك، لمحت فتاة لا تتجول سريعًا أو تشارك في أي محادثة، كانت تشبه إلى حدٍّ ما جَدة جدتي، التي كنت أراها في غرفة الطعام في منزل حفيد شقيق جدتي، فقلت في نفسي إن المكان ليس بربريًّا كما يبدو في البداية. فلو كان الأمر كذلك، لما وُجدت تلك الفتاة هنا. سأبقى. هل يوجد المزيد من القهوة من فضلك يا آنسة بيم؟ إن ابنتكما ليست جميلة فحسب؛ بل هي الفتاة الوحيدة الجميلة حقًّا في لايز.»

سألت لوسي، مُظهِرة ولاءها: «وماذا عن بو ناش؟».

«خلال موسم أعياد الميلاد في إنجلترا — أريد كمية قليلة جدًّا من الحليب يا آنسة بيم من فضلك — تصبح المجلات احتفالية، وتمتلئ بالصور الملونة الجميلة التي يمكن وضعها في إطار وتعليقها فوق رف المطبخ لإضفاء البهجة على قلوب الطهاة وأصدقائهم. تكون الصور ملونة جدًّا، وبها ...»

قالت السيدة إينيس: «هذا ليس حقيقيًّا! إن بو جميلة، جميلة للغاية، وأنتِ تعلمين ذلك»، والتفتت إلى لوسي قائلة: «لقد نسيتُ أنكِ تعرفين بو أيضًا، إنكِ في الحقيقة تعرفينهم جميعًا. نحن لم نقابل أحدًا سوى بو؛ لأنها قضت معنا ذات مرة إحدى العطلات؛ خلال عيد الفصح، عندما يكون غرب إنجلترا أكثر ترحيبًا من بقية إنجلترا؛ وقد زارت ماري ذات مرة بو وأهلها بضعة أسابيع في الصيف. لقد أثارت بو إعجابنا جدًّا.» ونظرت إلى زوجها للتأكيد؛ لكنه بدا منطويًا على نفسه للغاية.

انتبه الدكتور إينيس — كانت لديه نظرة مرهَقة لطبيب مرهَق عندما يسكن — واتخذ وجهه الجاد تعبيرًا صبيانيًّا خبيثًا إلى حدٍّ ما، ولكنه حنون في الوقت نفسه. قال: «كان من الغريب أن نرى ابنتنا ماري القوية والمستقلة يُعتَنى بها.»

كان واضحًا أن ما قاله السيد إينيس هو ما لم تكن زوجته تود سماعَه، لكنها قررت استغلال الموقف. قالت وكأن الأمر لم يَجُل بخَلَدها من قبل: «ربما نكون قد أفرطنا في ترك ماري تعتمد على نفسها للدرجة التي جعلتها تستمتع باعتناء أحد بها.» والتفتت إلى الآنسة بيم قائلة: «أعتقد أن سبب كونهما صديقتين مقربتين هو أن كلتيهما تكمِّل الأخرى. وأنا سعيدة بهذا لأننا معجبان ببو بشدة، ولأن ماري لم تستطِع قط تكوين صداقات حميمية بسهولة.»

قال السيد إينيس: «إن الفتيات يقُمن بعملٍ مضنٍ، أليس كذلك؟» وأردف: «أحيانًا أُلقي نظرة على دفاتر ابنتي وأتساءل لماذا يشغلن أنفسهن بدراسة أشياء ينساها حتى الطبيب بمجرد التخرُّج من كلية الطب.»

قالت لوسي متذكرة: «المقطع العرضي للزغابات.»

«نعم، أشياء مثل هذه. يبدو أنك تعلمتِ الكثير عن جسم الإنسان في أربعة أيام.»

أحضرت الآنسة نيفيل الكعك، وحتى دون التحضير التقليدي للعجين، كانت الفطائر تستحق أن تأتيا من الغرب، على افتراض أن هذا صحيح، من أجلها. لقد كان تجمعًا بهيجًا. في الواقع، شعرت لوسي أن الغرفة بأكملها تعجُّ بالسعادة، السعادة التي أتت من الخارج كأشعة الشمس. حتى وجْهُ الطبيب المُتعَب بدا راضيًا ومرتاحًا. وأظهرت السيدة إينيس مستوًى من السعادة نادرًا ما رأته لوسي على وجه امرأة، يبدو أن مجرد وجودها في هذه الغرفة، التي كانت ابنتها تتردد عليها كثيرًا، يمنحها إحساسًا بالتواصل معها، وفي غضون أيام قليلة، سترى ابنتها أخيرًا بشحمها ولحمها، وستشهد على إنجازاتها.

فكَّرت لوسي في أنها لو كانت عادت إلى لندن، لحُرمت من كل هذا. ماذا كنت سأفعل؟ إنها الساعة الحادية عشرة. ربما كانت ستخرج في نزهة في الحديقة وتفكِّر في كيفية رفض دعوة لتكون ضيفَ شرف على عشاء أدبي. لكن بدلًا من ذلك، فأنا هنا. كل ذلك لأن الدكتورة نايت أرادت حضور مؤتمر طبي غدًا. لا، السبب أنه منذ سنوات عديدة دافعت هنرييتا عني في المدرسة. من الغريب التفكير في أن هذه اللحظة الجميلة في المقهى المشمِس في شهر يونيو بإنجلترا لها جذورها في الغرفة المدرسية المخصَّصة للأغراض الشخصية، تلك الغرفة المظلمة والمزدحمة، حيث كانت الفتيات الصغيرات ينخرطن في وضع أغطية الأحذية. ما الأسباب الحقيقية على أي حال؟

قالت السيدة إينيس: «لقد كان وقتًا ممتعًا للغاية»، بينما كانا خارجَين إلى شارع القرية. ثم أردفت: «وتسرُّنا معرفة أننا سيرى بعضُنا بعضًا مرة أخرى قريبًا جدًّا. ستظلين في لايز عندما يُقدَّم العرض، أليس كذلك؟»

أجابت لوسي: «أتمنى ذلك»، وتساءلت في نفسها إن كانت ستستطيع إقناعَ هنرييتا بتوفير سرير لها طوال هذه الفترة.

قال الدكتور إينيس: «وقد أعطيتُمانا كلمةَ شرف أنكما لن تخبرا أحدًا برؤيتكما إيانا اليوم.»

فأجابتا: «نعدكما»، وهما تنتظران دخول صديقيهما الجديدين إلى سيارتهما.

قال السيد إينيس مُفكرًا: «هل تعتقدين أنه يمكنني أن أنعطف انعطافًا حادًّا بالسيارة دون أن أصطدم بمكتب البريد؟».

قالت زوجته: «لا أريد إثارةَ المزيد من المشكلات لأهل بيدلينجتون. فإن التعامل معهم صعبٌ للغاية. ولكن ما قيمة الحياة دون بعض المخاطرة.»

شغَّل الدكتور إينيس محرِّكه، وأقدم على هذه المناورة الخطِرة. فترك مركز العجلة الأمامية علامةً باهتة على الجدار الأبيض المطلي حديثًا لمكتب البريد.

قالت السيدة إينيس: «هذه علامة جيرفاس إينيس»، ولوَّحت بيدها إليهما. وقالت: «حتى نلتقي يوم العرض، نأمُل أن يكون الطقس جيدًا! إلى اللقاء!»

وشاهدا السيارة وهي تصغُر تدريجيًّا على طول شارع القرية، ثم انعطفت ناحية مسار الحقل ولايز.»

قالت ديستيرو: «إنهما لطيفان.»

«رائعان. من الغريب التفكير أننا لم نكن لنلتقي بهما لو لم تشتهِ احتساء قهوة جيدة هذا الصباح.»

«هؤلاء هم الإنجليز، دعيني أقولها لك بثقة يا آنسة بيم، الذين تحسدهم جميعُ دول العالم. هادئون جدًّا، وراقون جدًّا، والنظر إليهم متعةٌ بدرجةٍ كبيرة. إنهم فقراء أيضًا، هل لاحظت ذلك؟ فتنُّورتها باهتة تمامًا من كثرة الغسيل. كان لونها أزرق؛ كان هذا واضحًا عندما انحنت إلى الأمام وارتفعت ياقتها قليلًا. من الظلم أن يكون أشخاص مثلهم فقراء للغاية هكذا.»

قالت لوسي متأملة: «لا بد أنه كان من الصعب عليها ألا ترى ابنتها وهي قريبة جدًّا منها.»

«لكن تلك المرأة شخصيتها قوية. اتخذت القرار الصائب بعدم الذهاب إلى لايز. فليس لدى أحد من طالبات السنة النهائية أي وقت، ولو قليلًا، لإضاعته هذا الأسبوع. فإن أضاعت القليل من الوقت فسينهار كل شيء.» التقطت ديستيرو واحدة من أقحوان المروج من الضفة بجوار الجسر وأطلقت الضحكة الأولى التي سمِعتها لوسي منها على الإطلاق. قالت: «أتساءل ماذا تفعل زميلاتي بألغازهن التي تنطوي على عبور الخط بساقٍ واحدة.»

تساءلت لوسي في نفسها كيف ستُوصف في رسالة ماري إينيس يوم الأحد إلى أبويها. قالت السيدة إينيس: «سيكون أمرًا ممتعًا، أن أعود إلى المنزل وأقرأ كلَّ شيء كتبته ماري عنكِ في رسالتها يوم الأحد. الأمر أشبه بالعودة بالزمن إلى الوراء. مثل العودة الليلة السابقة.»

قالت لديستيرو: «من الغريب كيف ذكَّرتك ماري إينيس بشخصٍ ما في إحدى اللوحات. لقد بدَت لي كذلك بالضبط.»

أجابت ديستيرو: «آه نعم، جَدة جَدتي.» وتركت زهرة الأقحوان تسقط على سطح الماء، وراقبت التيار وهو يحملها تحت الجسر بعيدًا عن الأنظار. وتابعت: «لم أذكر ذلك أمام والدَي إينيس، لكن جَدة جَدتي لم تكن تحظى بشعبية كبيرة بين معارفها.»

«أوه؟ ربما كانت خجولًا. ما نسميه في وقتنا الحالي عقدة النقص.»

«ليس لديَّ معلومة. لقد تُوفي زوجها في وقتٍ مناسب جدًّا. إنه أمرٌ مؤسف دائمًا للمرأة عندما يموت زوجها في وقتٍ مناسب جدًّا بطريقة تثير الريبة.»

وقفت لوسي متجمِّدة ومذعورة وسط المناظر الطبيعية الصيفية، وقالت: «هل تقصدين أنها قتلته؟».

فقالت ديستيرو مستنكرة: «أوه لا، لم تكن هناك فضيحة. كلُّ ما هنالك أن وفاة زوجها كانت أمرًا مريحًا. فقد كان يشرب الخمر كثيرًا، كما كان مقامرًا شغوفًا، ولم يكن جذابًا البتة. وكانت هناك درجة متقلقلة في أعلى الدَّرج. مجموعة طويلة جدًّا من السلالم. وحدث أن وطِئها ذات يوم عندما كان في حالة سُكر. هذه هي القصة كلها.»

سألت لوسي، بعد أن استوعبت ما قالته: «وهل تزوجت مرةً أخرى؟»

«أوه، لا. لم تحب أيَّ شخص آخر. كان لديها ابنها وقد انشغلت بتربيته، والآن بعد أن مات مَن كان يُهدِر ممتلكات العائلة في لعب القمار، أصبحت الممتلكات آمنة. لقد كانت مديرة تركة ماهرةً للغاية. وهي مَن ورِثت جَدتي موهبتَها منها. فعندما أتت جَدتي من إنجلترا لتتزوج جَدي، لم تكن قد خرجت قط من مقاطعتها، باستثناء شارع تشارلز، ويست وان؛ وفي غضون ستة أشهر، كانت تشرف على التركة.» تنهَّدت ديستيرو بإعجاب. «رائعون، هؤلاء الإنجليز.»

الفصل الثامن

بينما كانت الآنسة بيم تراقب الطالبات أثناء امتحان علم الأمراض النهائي لطالبات السنة النهائية، وذلك حتى تتيح للآنسة لوكس الفرصةَ لتصحيح الأبحاث السابقة للطالبات ووضع الدرجات عليها؛ دخلت سكرتيرة هنرييتا الصغيرة الوديعة إلى القاعة في حذر، ووضعت خطابات اليوم بهدوء على المكتب أمام الآنسة بيم. كانت الآنسة بيم تنظر بامتعاضٍ إلى نسخة من ورقة الامتحان وتفكِّر في مدى تعارض كلمات؛ مثل التهاب المفصل السيلاني، والتهاب زَليلِ الوَتَر التقرُّحي، مع الهواء النظيف الذي ينتشر في هذا الصباح الصيفي بعد الإفطار. لم تكن كلمة Emphysema (التي تعني الانتفاخ الرئوي) بمثل هذا السوء؛ فهي تشبه الأسماء التي يطلقها البستاني على إحدى الزهور. نوع من النباتات الحوضية. وكانت تتخيَّل كلمة Kyphosis (التي تعني الحُداب) أنها زهرة تشبه زهور الداليا. ومن الممكن أن يكون Myelitis (الذي يعني التهاب النخاع الشوكي) نباتًا زاحفًا صغيرًا شديد الزُّرقة، يميل إلى اللون الوردي في حال عدم رعايته. ومن الواضح أن Tabes Dorsalis (الذي يعني التابِس النخاعي) كان نباتًا غريبًا باهظ الثمن به بعض الإثارة وأشبه بالزَّنبق المُرَقَّط.

الزَّفَن. التصلُّب. القدم الفحجاء.

يا إلهي! هل تعرف هذه الفتيات الصغيرات كلَّ هذا؟ ميِّز بين علاج مرض أو آخر طبقًا لكونه إما (أ) خلقيًّا (ب) رَضْحِيًّا (ج) هستيريًّا. حسنًا، حسنًا. كم كانت مخطئة حتى الآن لشعورها بالتعالي تجاه هذه الفتيات الصغيرات؟

نظرت بحبٍّ من منصتها لأسفل إلى الفتيات؛ كن جميعهن يكتبن كما لو كانت حياتهن تعتمد على ما يكتبنَه. كانت وجوههن جادة، لكن لم يبدُ على وجوههن القلق بوجه عام. هذا باستثناء راوس التي بدا على وجهها القلق، ولكن لوسي رأت أن وجهها القلِق أجمل

من وجهها المتعجرف، ولم تتعاطف معها. وكانت ديكرز منكبَّة على الورقة وهي تُخرِج لسانها من فمها قليلًا وتتنهَّد عفويًّا كلما انتهت من كتابة سطر وبدأت في سطر آخر. أما بو فقد بدت واثقةً ومتماسكة كما لو كانت تكتب دعوات؛ فلم يساورها الشك مطلقًا طوال حياتها؛ فلم يكن حاضرها ولا مستقبلها في خطر. وبدا وجه ستيوارت أسفل شعرها الأحمر الزاهي باهتًا، لكن ظهرت ابتسامة باهتة على فمها؛ فمستقبل ستيوارت هو أيضًا في مأمن؛ فهي ذاهبة إلى مدرسة كوردوينرز وستعود إلى وطنها اسكتلندا جالبةً معها نجاحاتها، وستحضُر لوسي الحفل الذي تقيمه ستيوارت في غرفتها مساء السبت ابتهاجًا بهذه النجاحات. («نحن لا ندعو هيئةَ التدريس إلى الحفلات الشخصية، ولكن بما أنك لستِ عضوةً دائمة من هيئة التدريس فسنعتبرك مجرد صديقة.») أما القرينات الأربع فقد جلسن في الصف الأول، وأخذن يتبادلن النظرات التشجيعية الجماعية بين الفينة والفينة؛ فهذه المادة هي تخصُّصهن، ومن الواضح أن ما لا تعرفه هذه الفتيات عن هذه المادة لم يكن ذا قيمة؛ إن مانشستر ستستفيد من خبراتهن. أما إينيس التي كانت تجلس بجوار النافذة، فقد رفعت رأسها بين الفينة والفينة لتلقي نظرة على الحديقة، كما لو كانت تريد بعض الانتعاش؛ كان من الواضح من عدم تسرُّعها في كتابة إجابات الأسئلة أن إينيس لم تكن تبحث عن الإلهام؛ لقد تأملت الحديقة بحثًا عن بعض الراحة النفسية؛ كان الأمر كما لو كانت تقول: «آه، نعم، أنت ما زلتَ هنا أيها الجمال؛ ثمة حياة أخرى خارج قاعة المحاضرات هذه.» وبدأ يظهر على وجه إينيس أن متطلبات الدراسة قد أثقلت كاهلها. فلا يزال الخط بين جانب أنفها وفمها الذي ينُم عن التعب واضحًا.

أمسكت لوسي بفاتحة الخطابات الموجودة على مكتب الآنسة لوكس المُرتَّب، وبدأت في فحص الخطابات. كان هناك ثلاث فواتير لم تُرِد فتحها وإزعاج الطالبات. وإيصال تسلُّم. وتقرير سنوي. وظرفٌ كبير مربَّع متين وغالي الثَّمن، لونه أزرق داكن، مزركشٌ على طرفه باللون الأحمر كلمتا «ميليسنت كراي» (حقًّا لا توجد نهاية لمحاولات الممثلات التسويق لأنفسهن)، توقَّعت أن يكون مكتوبًا فيه بقلمٍ ذي طرف عريض خمسةُ أسطر بحروف كبيرة لشكر الآنسة بيم على الإسهامات التي قدَّمتها للصندوق الخيري. ولم يتبقَّ سوى خطاب السيدة مونتمورنسي. ففتحته بفتاحة الخطابات.

سيدتي (كتبت السيدة مونتمورنسي)،

لقد فعلتُ كما قلتِ لي وأرسلت إليكِ الطرد العاجل بالبريد السريع. إنه مسجَّل. سلَّمه فريد في شارع ويجمور وهو في طريقه إلى العمل، وأرفقتُ الإيصال به، وقد

أرسلت إليكِ الفستان الأزرق والبلوزات كما قلتِ لي، ولكن ملابس النوم الوردية ما زالت في المغسلة؛ لذا أرسلت إليك البيج بدلًا منها. آمل ألا يكون هناك مشكلة.

أرجو منك يا سيدتي ألا تعتقدي أني أتجرأ، لكن ما تقومين به شيء مفيد. فلا يكفي أن تكتب المرأة الكتب دون أي صحبة صغيرة السن، ومن فضلك لا تظني أني أتدخَّل في شئونك، أنا فقط حريصة عليك، فأنت واحدة من ألطف السيدات اللاتي عملت لديهن، ولدى فريد الشعور نفسه. إنه يقول إنك امرأة لطيفة، وعند مقارنتك بما يراه من حوله خاصة، وأرجوك لا تعتقدي أن هذه جرأة مني.

ملحوظة: لقد وضعت الفرشاة السلكية في الجزء الأمامي من الحذاء السويدي.

المخلصة

السيدة مونتمورنسي

قضت لوسي الدقائق الخمس عشرة التالية في حالة تأثُّر من الاهتمام الذي أبدته السيدة مونتمورنسي بها، ومن الغضب بسبب المغسلة، وتساءلت في نفسها: لماذا كانت تقدِّم الدعم المادي للمنشآت التعليمية؟ فلم تكن المدارس العامة هي ما يحتاج إليه الجميع، بدلًا من ذلك، فإن الفصول الدراسية الابتدائية الجيدة التي لم تضم أكثر من ١٢ طالبة هي المطلوبة؛ حيث يُعتنى بتعليم أشخاص مثل السيدة مونتمورنسي الموادَّ الأساسية، وهي القراءة والكتابة والحساب. فقد ترك البُستاني، الذي يعمل في حديقة منزلها بدوام جزئي، ماكلين العجوز، المدرسة عندما كان عمره ١٢ عامًا، ومع ذلك فبإمكانه كتابة خطاب في مثل جودة أيٍّ من معارفها في الجامعة؛ ولماذا؟ لأنه درس في مدرسة بها فصول ذات كثافة طلابية منخفضة في قرية صغيرة، وكان للمدرسة ناظر ذو كفاءة.

هذا بالطبع لأنه عاش في زمن كان يُعَد فيه تعلُّم القراءة والكتابة والحساب أهمَّ من توفير الحليب المجاني. وقد جعله تعلُّم هذه المهارات غيرَ أمي وأخذ على عاتقه تعلُّم الباقي. كان نظامه الغذائي عبارة عن الكعك المصنوع من الطحين الأبيض والشاي المطبوخ، ومات في سن الثانية والتسعين وهو قوي وبصحة جيدة.

استوقفت نظرات الآنسة راوس لوسي وتوقَّفت عن التفكير فيما كانت تفكِّر به. فقد ظهر تعبير جديد على وجه الآنسة راوس، ولم يرُق للوسي هذا التعبير الجديد قط. لقد

رأت راوس بائسة ومتملقة ومتعجرفة وقلِقة، لكنها لم ترها قط حتى الآن وكأنها تخفي شيئًا.

لماذا يبدو عليها وكأنها تخفي شيئًا؟

ظلت تراقبها بفضول لحظةً أو اثنتين.

رفعت راوس عينيها من الورقة والتقت عيناها بعينَي لوسي ونظرت بعيدًا بسرعة مرة أخرى. كانت النظرة الماكرة قد تلاشت؛ وحلَّ محلَّها نظرةٌ يُطلَق عليها «خُلُوُّ البال المُتَعَمَّد». كانت لوسي تعرف جيدًا هذه النظرة. فهي لم تكن رائد الصف الرابع من فراغ. فهي نفس نظرة جميع آكلات الحلويات في الخفاء. وهي نفس نظرة مَن كنَّ يكتبن واجب الحساب أثناء حصة اللغة الفرنسية.

وهي نفس نظرة مَن كنَّ يغششن أثناء الامتحانات.

ما الذي قالته هنرييتا؟ لقد قالت: «إن راوس تواجه صعوبةً في الأعمال الكتابية.»

هكذا إذن.

إن الانتفاخ الرئوي وكل هذه المصطلحات التي تبدو وكأنها أسماء زهور هي مصطلحات صعبة على الآنسة راوس؛ لذلك استعانت ببعض الأدوات لتذكُّرها. السؤال: ما نوع هذه الأدوات وأين هي؟ ليست على ركبتيها. فالمكاتب كانت مفتوحة من الأمام، ما يجعل الركبة مكانًا غيرَ آمن لوضع ورقة للغش. ومن الصعب كتابة مصطلحات مادة علم الأمراض على الأظافر بحيث تكون مفيدةً للغش؛ فالأظافر مفيدة فقط لكتابة الصيغ. الإجابة الوحيدة هو أنها تخبِّئ ورق الغش في كمِّها، سواء باستخدام أشرطة مرنة أو دونها، ولكن لا توجد في ملابس هذه الفتيات أكمام تمتد إلى ما بعد المِرْفقين. إذن، ماذا؟ أين؟ أم إنها كانت تُلقي مجرد نظرات خاطفة على ورقة أودونيل التي تجلس أمامها؟ أو ورقة توماس التي تجلس على يمينها؟

عاودت لوسي النظرَ في خطاباتها لحظةً أو اثنتين، وانتظرت. فجميع رائدات الفصول يعرفن هذا التكتيك. ورفعت نظرها في غير اهتمام إلى طالبات السنة النهائية بوجه عام، ثم عاودت النظر إلى خطاباتها. وعندما رفعت نظرها بعد ذلك كانت تصوِّب نظرها تجاه راوس مباشرة. كانت راوس مُنكبَّة على الورقة وفي يدها اليسرى منديل. ولكنه لم يكن من الممكن حتى أن تكتب مصطلحات مادة بحجم علم الأمراض على منديل، ولم يكن استخدام المنديل بهذه الطريقة أمرًا سهلًا؛ وعلى الجانب الآخر، فوجود مناديل داخل لايز ليس أمرًا معتادًا، وبالتأكيد لم يكن أحد غيرها يمسك بمنديل ويمسح أنفه به بين الفينة والفينة.

أدركت لوسي أن مصدر المعلومات التي تحصل عليها راوس متعلِّق بيدها اليسرى. فمكتبها يقع في الخلف ناحية النافذة، بحيث يوجد الحائط على يسارها؛ ولا يمكن أن يلحظ أحد أي شيء تفعله بيدها اليسرى.

حسنًا، سألت لوسي نفسها، ماذا يفعل المرء في موقف كهذا؟

الذهاب إلى راوس التي تجلس في آخر الغرفة وطلب المنديل منها، فقط لتكتشف أنه ما هو إلا قطعة مربَّعة من القماش الأبيض مقاسها تسع بوصات في تسع بوصات، ومطرَّز على جانبه بإتقان الأحرف الأولى من اسم راوس، ونظيف كما هو متوقَّع من أي مغسلة حسنة السُّمعة؟

طلب المنديل والكشف عن فضيحة من شأنها أن تزلزل الصف النهائي مثل الإعصار في واحدة من أكثر اللحظات الحرِجة لهن؟

العمل على عدم إعطاء راوس الفرصةَ للاستفادة من هذا المصدر للمعلومات، مع عدم التفوُّه ببنت شفة؟

إن الحل الأخير هو الحل الأكثر منطقيةً بكل تأكيد. فراوس لم تستفِد كثيرًا من هذه الأداة حتى الآن؛ وسيكون من العدل التغاضي عن هذه المعلومات البسيطة التي حصلت عليها بالفعل.

تركت لوسي مكتبها ومضت في اتجاه نهاية الغرفة، حيث وقفت مستندةً على الحائط، على يمينها توماس وعلى يسارها راوس. توقفت توماس عن الكتابة هنيهةً ورفعت عينيها عن الورقة لتنظر إلى لوسي مع ابتسامة خاطفة. لكن راوس لم ترفع عينيها من الورقة. ولاحظت لوسي الدماء الساخنة تحوِّل عنق راوس الرملي اللون إلى اللون الأحمر الباهت. وبعد ذلك وضعت راوس المنديل — وما كانت ممسكة به في تلك اليد — في جيب سترتها.

حسنًا، لقد أحبطت محاولة الغش، لكنها لا تشعر بالرضا حيال ذلك. فقد أدركت للمرة الأولى أن ما كان يعد سلوكًا مشاغبًا ومستهجنًا في الصف الرابع هو سلوك كارثي في الاختبارات النهائية للصف النهائي. كانت سعيدة أن مَن فعل هذا هو راوس وليست أي طالبة أخرى. وفي الحال، عادت لوسي أدراجها إلى المكتب المرتفع، ولم ترَ — بحسبِ ما استطاعت أن ترى — راوس تحاول مجددًا الاستعانة بالورقة التي لديها. بل — على النقيض من ذلك — بدا واضحًا جدًّا أنها تواجه مشكلة كبيرة. وغضبت لوسي عندما وجدت نفسها تشفق عليها. نعم، تشفق عليها. تشفق على راوس. ففي النهاية، الفتاة قد بذلت جهدها. بذلت جهدًا كبيرًا جدًّا؛ إذا كانت التقارير صحيحة. فلم يكن الأمر أنها تتبع الطريقَ

السهل لتدخر جهدًا. كلُّ ما في الأمر هو أن اكتساب المعرفة النظرية أمرٌ يصعب عليها، أمرٌ يكاد يكون مستحيلًا، وقد رضخت لهذا الإغراء في لحظة يأس.

جعلت وجهة النظر هذه لوسي تتقبل الأمر لدرجة كبيرة، وقضت الوقت المتبقي من الإشراف على الاختبار تخمِّن طبيعة ورقة الغش من دون أي انزعاج. كانت تعاود النظر إلى ورقة الأسئلة، وتفكر في الكم الهائل من المعلومات الموجودة بها، وتتساءل كيف تمكَّنت راوس من أن تبتكر شيئًا يساعدها ويكون غير مرئي في نفس الوقت. كانت تتُوق إلى أن تسألها.

التفسير الأوقع هو أن راوس كانت تخاف من موضوعين أو ثلاثة بالتحديد، وقد كتبت على قصاصة من الورق ما يساعدها في هذه الموضوعات.

كانت إينيس أولَ مَن يعيد ترتيب أوراقها ويربطها جميعًا من طرفها العلوي بالمشبك الموجود على المكتب. ألقت إينيس نظرةً على الصفحات وأصلحت بعضَ الأخطاء هنا وهناك، وبعد ذلك، وضعت الأوراق على مكتبها، وجلست لحظاتٍ تستمتع بجمال الحديقة، ثم وقفت بهدوء ومشت لتترك أوراقها على مكتب الآنسة بيم في مقدمة الغرفة.

انتحبت ديكرز: «أوه، كارثة! هل انتهى أحد من الامتحان؟ لا يزال أمامي سؤال ونصف بالضبط!»

قالت لوسي، قائمةً بواجبها: «هدوء يا ديكرز.»

فابتسمت لها ديكرز ابتسامةً عريضة وعادت إلى عملها الدءوب.

تبِعت إينيس مباشرةً كلٌّ من ستيوارت وبو ناش، وبعد فترة قصيرة بدأت رِزمة الورق أمام الآنسة بيم تتزايد. وعندما لم يتبقَّ سوى خمس دقائق من الوقت المخصَّص للاختبار لم يبقَ سوى ثلاث طالبات في قاعة الاختبار: توماس الويلزية الصغيرة الحجم السمراء البشرة، المعروف عنها أنها تنام أكثرَ من اللازم؛ لذا فهي لا تذاكر بجِد، وديكرز المتماسكة التي لا تزال تجيب بتركيز، وراوس غير السعيدة التي احمرَّ وجهها، والتي كان واضحًا أنها تجد صعوبةً بالغة في إجابة الاختبار. وعندما لم يتبقَّ سوى دقيقتين، لم يكن هناك سوى راوس؛ كانت تبدو مُرْتَبِكة ويائسة؛ تقلِّب الأوراق في عُجالة وتُجري بعض التعديلات، تحذف أجزاءً وتعدِّل وتضيف أجزاءً أخرى.

وضعت دقَّات الجرس القادمة من بعيد حدًّا لتردُّد راوس ولأي فرصة متبقية كانت لديها؛ وأصبح عليها أن تكتفي الآن بما استطاعت أن تكتبه. فلملمت أوراقها في عجالة، مدركةً أن دقات الجرس تعني أنه حان التوجُّه فورًا إلى صالة الألعاب الرياضية، وأن

فروكن لن تقبل أن تعتبر هذا الاختبارَ مسوغًا للتأخير، فأحضرت الأوراق إلى لوسي على الفور. توقَّعت لوسي أن تتجنب راوس النظر في عينيها أو أن تُظهر أيَّ علامة على الإحراج أو الخجل. ولكن راوس فاجأتها بابتسامة صادقة وبتعليق أكثر صدقًا.

قالت راوس، وهي تتنفس الصُّعداء: «يا له من اختبار شديد الصعوبة!» وغادرت على عجل لتلحق بقريناتها.

فتحت لوسي ورقة الاختبار الخاصة براوس التي امتلأت بالعلامات والتعديلات وفحصتها، وإذا بشعور بالندم ينتابها. فقد اكتشفت أن ظنونها لم تكن سوى أوهام. ففي واقع الأمر، لم تكن راوس تغش. أو حتى إن كانت تغش فلم يكن ذلك ممنهجًا. فقد خطر على بال لوسي حينئذٍ أنه ربما تكون نظرة راوس السرِّية تلك نشأت من جرَّاء شعورها بالذنب لعدم كفاءتها في الاختبار؛ أو ربما، في أسوأ الأحوال، كانت محاولة لاختلاس نظرة إلى ورقة إحدى الطالبات المجاورات لها. أما الحُمرة التي كست رقبةَ راوس، فمن المحتمل أنها بسبب إدراكها أنها محطُّ اشتباه؛ إذ تذكَّرت لوسي بوضوحٍ أيامَ دراستها عندما كان مجرد معرفة احتمالية أن يُساء فهْم أحدِ أفعالها البريئة من شأنه أن يسبِّب لها شعورًا زائفًا بالذنب. حقًّا، كانت لوسي مَدينة لراوس بالاعتذار. وعقدت العزم على إيجاد طريقة للتقرب منها.

لملمت لوسي الأوراق بعناية، ورتَّبتها أبجديًّا كما تعوَّدت أن تفعل، وراجعت عددها ثم شرعت في حملها إلى الطابق العلوي حيث حجرة الآنسة لوكس، وهي تشعر بالسعادة؛ إذ لم تكن هي المسئولة عن تصحيحها. ونظرًا لعدم وجود أي شخص في الحجرة، تركت لوسي الأوراق على المكتب وتوقَّفت لحظة، وهي تتساءل في نفسها عن كيفية قضاء الساعة التي تسبق موعد الغداء. دارت في رأسها فكرة مشاهدة تدريب الجمباز، لكنها قرَّرت ألا تجعل العرض يصبح مألوفًا لها، ومن ثمَّ خاليًا من الإثارة، قبل يوم العرض الفعلي. فبعد أن أقنعت هنرييتا بالبقاء حتى يوم العرض — حقيقي أن هنرييتا لم تحتَج إلى الكثير من الإقناع — فهي لم تكن على استعداد بأن تفسد على نفسها هذه المتعة في ذلك اليوم بحضور الكثير من التدريبات قبل يوم العرض. عادت لوسي إلى الطابق الأسفل، وتباطأت عند بسطة الدَّرَج بجانب النافذة الطويلة ... يا لبراعة معماري القرن الثامن عشر في فهم كيفية بناء المنازل؛ أما الآن فبسطات الدَّرَج لم تَعُد أماكنَ من الممكن التباطؤ بها، فما هي إلا رَدهات ضيقة خطِرة ومضاءة، إن كانت مضاءة أصلًا، بفتحة دائرية صغيرة تشبه فتحات الإضاءة في السفن؛ ومن هناك، وراء الفناء والجناح المقابل يمكنها رؤية أشجار الدردار في الحقول

المؤدية إلى الجدول. ستذهب لتشاهد نبات الحوذان بعض الوقت. فلم تكن هناك طريقة أفضل لقضاء ساعة صيفية من التحديق في حقل من نبات الحوذان. لذا نزلت، ومشت على طول الجناح، ومن ثَم خرجت إلى الممر المغطَّى المؤدي إلى صالة الألعاب الرياضية؛ إذ كان الحوذان خلف صالة الألعاب الرياضية.

وبينما كانت تمضي في الممر المغطى، لفَت انتباهها شيء ملون في الحشائش المحيطة بالممر. في البداية ظنَّت أنها بَتلة وكانت على وشْك تجاهلها، ولكنها لاحظت أنها مربَّعة وأنها ليست بالتأكيد بَتلة. فعادت والتقطتها. كانت مجرَّد دفتر عناوين صغير الحجم لونه أحمر باهت. بدا أنه أحد إكسسوارات حقيبة يد؛ حقيبة يد من طراز قديم على الأرجح؛ إذ لم يَعُد هناك حقائب من الجلد كهذه أو حقائب مصنوعة بهذه الحِرفية. فتحت لوسي دفتر العناوين، في عدم اكتراث؛ إذ كانت تفكِّر في الطابع الأنثوي للحقيبة المفقودة بإكسسواراتها الصغيرة — كانت الإكسسوارات بالطبع زجاجةَ عطر صغيرة، وقلمًا ذهبيًّا، ومفكرة صغيرة من العاج لتدوين المواعيد — وقرأت إحدى صفحاتها المليئة بالكتابة بخط صغير جدًّا: «تغيُّرات تشريحية مَرضية مشابهة لتلك التي تسببها الإصابة. وجود الفايبرين في الغشاء الزليلي. الأنسجة المتأثرة بالفايبرين وطيات المحافظ المفصلية المتصلة بالعظم. الالتحام العظمي. الحُمَّى.»

لم يكن ذلك يعني أيَّ معلومات للوسي، لكن سببُ كتابته كان واضحًا. فقلبت الصفحة، لتجدها كلَّها تقريبًا مليئة بالمعلومات الموجزة نفسِها. وحتى الصفحة X — التي يخصِّصها المحتفظون بدفاتر العناوين لتدوين قياسات الستائر الجديدة، أو كتابة أحد خطابات معهد المرأة الريفية الثلاثاء القادم — فقد كُتبت فيها ملاحظات غامضة عن الأشعة. ما أذهل لوسي هو شمولية الملاحظات؛ التفكير المسبق. فلم يكن هذا المجهود هو نتاج ذعر اللحظات الأخيرة؛ بل هي معلومات كُتبت بهدوء أعصاب للتأمين ضد الفشل في الاختبار. فترتيب الملاحظات والأسلوب المُتَّبَع في تدوين المعلومات أوضح أن الملاحظات قد كُتبت أثناء مذاكرة كل مادة. ففي الحقيقة، كان الدفتر ذا حجم طبيعي، كان من الممكن اعتباره ملخصًا وافيًا لمادة لا أكثر. ولكن لن يختار أحدٌ دفترًا حجمه لا يزيد كثيرًا عن حجم طابع بريد جيد الحجم، بينما يسهُل شراءُ دفترٍ يمكن حمله أيضًا وذي حجم طبيعي ببضعة بنسات. فلا يوجد سوى تفسير واحد فقط لاستخدام دفتر بهذا الحجم بحيث يكون من الضروري الكتابة فيه باستخدام قلم رسم خرائط لجعل الملاحظات مقروءة.

فهمت لوسي جيدًا ماذا حدث. فقد أخرجت راوس منديلها أثناء ركضها. فلم يسبق لها قط أن وضعت الدفتر الصغير في جيبها، وكان ذهنها مشتتًا بين ورقة الاختبار التي

لم تُبلِ فيها بلاءً حسنًا وبين خشيتها التأخُّر على تدريب الجمباز؛ لذا لم تكن منتبهةً حين أخرجت المنديل. ولذلك سقط الدفتر الصغير على الحشائش على حافة الممر.

واصلت لوسي السيرَ إلى ما وراء صالة الألعاب الرياضية وعبَرت البوابة ذات القضبان الخمسة المؤدية إلى الحقل، لكنها لم تكن منتبهة إلى الحوذان. أخذت تتمشَّى ببطء عبر الحقل نحو ظل أشجار الصفصاف والمياه الخضراء الساكنة. كانت متكئة على درابزين الجسر، تشاهد الأعشاب المتموجة والأسماك المندفعة من حين لآخر، وظلَّت تفكر في راوس. لم يكن يوجد اسم على الغلاف ولا أي وسيلة لتحديد الهوية داخل الدفتر نفسه بحسب ما ترى. في الوقت الحاضر، تدرس معظم المدارس الكتابة بالحروف المتصلة، وكذلك بالحروف المنفصلة؛ ومن السهل جدًّا التعرُّف بكاتب الحروف المتصلة مقارنةً بكاتب الحروف المنفصلة. يمكن بلا شك أن يتعرَّف خبير الخطوط بسهولة على هوية الكاتب، ولكن ما الغرض من ذلك؟ فليس ثمة دليل يشير إلى استخدام هذا الدفتر لهدف غير مشروع، ولا أي مؤشرات على كتابة هذه الملاحظات لنوايا شريرة، على الرغم من قوة هذا الافتراض. وإذا سلَّمت الدفتر إلى هنرييتا باعتباره من المفقودات، فماذا سيحدث؟ لن يأتي أحد لأخذه، وستواجه هنرييتا حقيقة أن إحدى طالبات السنة النهائية في مدرستها قد أعدَّت ملخصًا يمكن إخفاؤه بسهولة أثناء الاختبار.

إذا لم يُدلِ أحد بأي شيء عن الدفتر، فإن الشكوك ستراود راوس طَوال حياتها حول مصيره؛ عقوبةً لها. وشعرت لوسي أن مثل هذه العقوبة تناسب الجريمة تمامًا. ألقت لوسي مرة أخرى نظرة سريعة على صفحات الدفتر الصغيرة المصنوعة من ورق هندي دقيق، وتساءلت في نفسها مرة أخرى عن أناقة صُنع هذا الدفتر خلال العصر الإدواردي، وانحنت، وتركته ينزلق من قبضتها في المياه.

وأثناء عودتها إلى المنزل، فكَّرت لوسي فيما فعلته راوس في الاختبارات النهائية الأخرى. فعلم الأمراض، مثل علم الحركة وغيرها من الموضوعات الغامضة التي عكف معلمو التدريب البدني الطموحون على دراستها، لم يكن من السهل حفظه. كيف تعاملت راوس، التي تجد صعوبةً في المهام الكتابية، مع هذه المواضيع؟ هل كان الكتاب الجلدي الأحمر الصغير واحدًا فقط من بين خمسة أو ستة كتب متشابهة؟ هل يستثمر أحد في قلم رسم الخرائط من أجل مادة واحدة فقط؟ اعتقدت لوسي أنه يمكن شراء دفاتر عناوين صغيرة للغاية إذا بُحث عنها جيدًا، على الرغم من أنها قد لا تتطابق مع الجودة الرائعة أو الحجم الصغير للدفتر الأحمر. ربما كان امتلاكها لهذا الدفتر الأحمر الصغير هو الذي زرع في البداية فكرةَ التأمين ضد الفشل في ذهن راوس.

تذكَّرت لوسي أن نتائج الاختبارات السابقة ستُعرض على لوحة الإشعارات بالقرب من مدخل الطالبات، فبدلًا من المشي إلى مقدمة المبنى كما كانت تنوي، دخلت من باب الفناء. ثُبتت قوائم متعددة لطالبات السنوات الأولى على الجوخ الأخضر، بالإضافة إلى ثلاث قوائم لطالبات السنة النهائية. اطلعت لوسي على القوائم باهتمام شديد.

علم وظائف الأعضاء النهائي.

مرتبة الشرف

ماري إينيس	٩٣

المرتبة الأولى

فيلهلمينا هاسيلت	٨٧
باميلا ناش	٨٦
شينا ستيوارت	٨٢
بولين لوكاس	٧٩
جانيت جيدج	٧٩
باربرا راوس	٧٧

المرتبة الثانية

دوروثي ليتلجون	٧٤
بياتريس أبِليارد	٧١
جوان ديكرز	٦٩
إيلين أودونيل	٦٨
مارجريت كامبل	٦٧
روث وايمارك	٦٦
ليليان ماثيوز	٦٥

وبقية الطالبات اللائي حصلن على درجاتٍ أقل من هذه، حصلن فقط على درجات النجاح.

حسنًا، يبدو أن راوس قد نجحت بالكاد في تحقيق المرتبة الأولى بفارق درجتين.

وتفحَّصت لوسي القائمة التالية.

الفحوصات الطبية النهائية.

المرتبة الأولى

بولين لوكاس	٨٩
باميلا ناش	٨٩
ماري إينيس	٨٩
دوروثي ليتلجون	٨٧
روث وايمارك	٨٥
فيلهلمينا هاسيلت	٨٢
شينا ستيوارت	٨٠
ليليان ماثيوز	٧٩
باربرا راوس	٧٩

المرتبة الثانية

جيني بيرتون	٧٣
جانيت جيدج	٧٢
إيلين أودونيل	٧١
جوان ديكرز	٦٩

وبقية الطالبات حصلن فقط على درجات النجاح.
ومرةً أخرى نجحت راوس بالكاد في تحقيق المرتبة الأولى.

علم حركات الجسم النهائي.

مرتبة الشرف

ماري إينيس	٩٦

المرتبة الأولى

بولين لوكاس	٨٩
باميلا ناش	٨٨
شينا ستيوارت	٨٧
فيلهلمينا هاسيلت	٨٥

روث وايمارك	٨٠
جانيت جيدج	٧٩
جوان ديكرز	٧٨
باربرا راوس	٧٨

المرتبة الأولى مجددًا! ثلاث مرات في ثلاث محاولات. الفتاة التي تجد صعوبة في الأعمال الكتابية؟ أهذا دليل قوي على وجود المزيد من الدفاتر الصغيرة؟

أوه، حسنًا، نظرًا لأن اليوم هو يوم الجمعة، فإن غدًا هو نهاية الاختبارات، ومن غير المرجَّح أن تُحضِر راوس أي مساعدة خارجية في اختبار صباح الغد بعد التجربة التي حدثت هذا الصباح. فإن كانت قد أعدَّت دفترًا صغيرًا ليوم غد، فسيكون بلا جدوى.

وبينما كانت لوسي تتفحص القوائم (كان من دواعي سرورها أن ترى أن ديكرز حصلت على المرتبة الأولى في اختبارٍ واحد على الأقل)، وصلت الآنسة لوكس ومعها نتائج الاختبارات النهائية لليوم السابق.

قالت الآنسة لوكس: «أشكرك على إحضار أوراق اختبار علم الأمراض. وشكرًا على مراقبتك الاختبار. لقد ساعدني ذلك في الانتهاء من تصحيح هذا.»

وثبتت دبوس الرسم في اللوحة وتراجعت للخلف لتلقي نظرةً على القائمة.

علم التَّصَحُّح النهائي.

مرتبة الشرف

ماري إينيس	٩١

المرتبة الأولى

باميلا ناش	٨٨
فيلهلمينا هاسيلت	٨٧
شينا ستيوارت	٨٦
بولين لوكاس	٨١
باربرا راوس	٨١

قالت لوسي، قبل التفكير في كلماتها: «باربرا راوس، إحدى وثمانون.»

قالت الآنسة لوكس بهدوء: «نعم، مذهل حقًّا، أليس كذلك؟» وأردفت: «لكنها تعمل بلا كلل. إنها بارعة في الأعمال الجسدية؛ لدرجة أني أعتقد أنه يحبطها أن تحتل المرتبة الأخيرة في أي اختبار آخر.»

«يبدو أن إينيس تتصدر القوائم باستمرار.»

«أوه، إن إمكانات إينيس مهدرة هنا.»

«لماذا؟ فكلما زاد ذكاء الشخص في مهنته كان ذلك أفضل، أليس كذلك؟»

«بلى، ولكن مع ذكاء مثل ذكاء إينيس الاستثنائي، يمكن للشخص أن يتفوق في مساعيَ أكثر إثارةً من هذه. إن إمكاناتها مهدرة.»

قالت لوسي، بينما كانتا تبتعدان عن اللوحة: «لدي شعور بأن راوس لن تحصل على ٨١ في اختبار اليوم.»

«لماذا؟ هل واجهت صعوبات؟»

قالت لوسي: «كانت مرتبكة»، وتمنَّت ألا تبدو سعيدة للغاية. وأضافت: «يا لها من حياة مختلفة يعِشنها»، دقَّ جرس الخمس دقائق، واندفعت طالبات السنة النهائية من صالة الألعاب الرياضية، وخلعن ملابسهن على عجل، وأسرعن إلى الحمامات للاستحمام السريع قبل أن يدق الجرس التالي. أكملت لوسي: «عندما أفكِّر في مدى استرخاء سعينا وراء المعرفة. في الجامعة أقصد. إذا كان لدينا اختبار نهائي، فعادةً ما يكون باقي اليوم بشكل شبه أكيد ملكًا لنا للتعافي. أما هؤلاء الصغيرات، فقد أُدرجت الاختبارات في جدولهن الزمني.»

انبعث من الحمَّامات مزيج من الشتائم والفوضى. «أوه، دوني، أيتها البلهاء، كان ذلك الدش الخاص بي!» «مارك، أيتها الخرقاء، ابتعدي عن قدمي!» «أوه، لا ترتديها يا فتاة، فهذه الجوارب خاصة بي!» «يا إلهي، انظري إلى هذه البثور!» «اركلي لي حذائي يا جرين جيدج، فالأرض غارقة.» «هل يجب أن ترشي الماء البارد هكذا، أيتها الحمقاء!»

قالت الآنسة لوكس: «إنهن يستمتعن بذلك، كما تعلمين. في أعماقهن، يستمتعن بالاندفاع وعبء العمل المفرط. فهذا يعطيهن شعورًا بأهميتهن. فقلةٌ منهن سيكون لديهن سببٌ حقيقي للشعور بأهميتهن؛ لذا فإن وجود هذا الوهم أمرٌ مريح.»

قالت لوسي: «هل أنت من مدرسة المتشككين؟»

«لا، أنا عالمة نفس.» وأشارت برأسها إلى الطالبات وهن يبتعدن. «يبدو الأمر وكأنه شجار، أليس كذلك؟ يبدو الجميع يائسًا وغاضبًا. لكن الأمر كله مجرد تمثيل. ففي غضون

خمس دقائق، ستجلس الفتيات مثل الأطفال المطيعات في غرفة الطعام، ولن توجد شعرة في غير مكانها.»

وهذا ما حدث بالفعل. عندما ذهبت هيئة التدريس إلى الطاولة العلوية بعد خمس دقائق، كانت الطالبات اللاتي كن يتدافعن في الحمَّام يقفن مذعنات خلف كراسيهن، كن هادئات ومُمشَّطات الشعر ومهندمات، وقد كان ذهنهن مشغولًا بالطعام. كن حقًّا مثل الأطفال. فمهما كانت الأحزان التي يحملنها، فسيجلب الغد مصادر تشتيت وتسلية جديدة تُنسيهن هذه الأحزان. وكان من السخف اعتبارهن بالغاتٍ مرهقات على وشْك الانهيار. فقد كن مثل الأطفال متقلبات المزاج، وكان حزنهن صاخبًا وصريحًا ولم يدُم طويلًا. على مدار الأيام الخمسة الماضية، منذ أن أظهرت فطيرة المكسرات هذه الفطنةَ الشديدة تحت شجرة الأرز بعد ظهر يوم السبت الماضي، ظلت لوسي تبحث عن أي علامة على الغرابة أو الخلل أو فقدان السيطرة، فماذا وجدت؟ مجرد خداع عادي جدًّا نُفِّذ بدقة؛ بصرف النظر عن تنظيمه الاستثنائي، كان غير استثنائي.

قالت هنرييتا، أثناء تقديمِ ما بدا أنها فطيرة من الجبن والخضراوات: «أليس هذا رائعًا، لدي وظيفة في ويلز للآنسة توماس الصغيرة. بالقرب من أبيريستويث. أنا مسرورة للغاية.»

قالت السيدة لوفيفر، بعد تفكير متأنٍّ: «تتمتع ويلز بجوٍّ يحفز على النوم»، مفسدةً فرحة هنرييتا بالكامل بالكلمات الخمس البسيطة هذه.

قالت الآنسة لوكس: «صحيح، مَن سيبقيها مستيقظة؟»

قالت راج: «لا يهم مَن سيبقيها مستيقظة؛ التحدي الحقيقي يكمُن فيمن سيوقظها في المقام الأول»، وهي تنظر نظرة شغوفة إلى الفطيرة. كانت راج قد أنهت للتو دراستها الجامعية؛ لذا فهي تمتلك شهية كبيرة، ولكنها تفتقر إلى القدرة على اتخاذ قرارات جيدة فيما يتعلق بالطعام.

ردَّت هنرييتا بنبرة قمعية: «ويلز هو وطنها، وأنا متأكدة من أنها ستعرف كيفية التعامل مع الأمر. وعلى أي حال، أشك أنها ستحقق نجاحًا كبيرًا خارج ويلز. فالويلزيون يفضلون تمامًا البقاء في موطنهم. لقد لاحظت كيف يميلون إلى الانجذاب مرة أخرى إلى منطقتهم. من الأفضل لهم البقاء هناك إذا أُتيحت لهم الفرصة. ولحسن الحظ، أُتيحت الفرصة فعلًا. وظيفة مدربة جمباز مبتدِئة لأطفال في الثالثة من العمر. هذا يناسب الآنسة توماس تمامًا. ولكنها للأسف تفتقر إلى روح المبادرة.»

سألت راج، وهي تلتهم الفطيرة بلهفة: «هل وظيفة الآنسة توماس هي الوظيفة الوحيدة الجديدة؟»

«لا، هناك وظيفة أخرى أردت إخباركن بها.»

آها، فكَّرت لوسي، أخيرًا موضوع أرلينجهيرست.

«تبحث لينج آبي عن فتاة لتكون مسئولة مسئوليةً كاملة عن الأطفال الأصغر سنًّا وتعلِّم جميع التلميذات الرقص أيضًا. أي إنه يجب أن يكون مستوى المدربة في الرقص عاليًا. أردت أن أعطي هذه الوظيفة للآنسة ديكرز؛ فهي ممتازة في التعامل مع الأطفال الصغار، لكني أردت سماع رأيك في مهاراتها في الرقص يا ماري.»

قالت السيدة: «إنها مثل البقرة.»

قالت راج: «ولكنها تجيد حقًّا التعامل مع الأطفال الصغار.»

ردَّت السيدة: «إنها مثلُ البقرة الثقيلة الوزن.»

أوضحت هنرييتا: «لا يهم أداؤها الشخصي. ما يهم هو قدرتها على إلهام الآخرين في الرقص. هل هي على دراية كافية بالرقص، هذا ما أعنيه؟»

«أوه، إنها بالتأكيد تعرف الفرق بين ثلاثة أرباع الوقت وأربعة أرباع الوقت.»

قالت راج: «رأيت ديكرز تعلِّم الأطفال الصغار في غرب لاربورو الرقصَ لمناسبة خاصة في عيد الميلاد الماضي، وكانت رائعة. كان من المفترض أن أقيِّم أداءها، لكنني كنت مذهولة جدًّا لدرجة أنني نسيت تدوين أي ملاحظات. أعتقد أنها ستكون مثالية لهذه الوظيفة.»

«حسنًا، ماري.»

قالت السيدة: «لا أفهم لماذا يهتم أحدٌ بذلك. الرقص في لينج آبي مخيفٌ على أي حال.»

على الرغم من طبيعتها السلبية، فقد بدا لهذا الهروب من المسئولية تأثير إيجابي على كلِّ من يهمه الأمر. وأصبح من الواضح أن ديكرز ستذهب إلى لينج آبي. وبما أن لينج آبي تعتبر مدرسة جيدة — إذا كان على المرء الذهاب إلى مدرسة — فقد شعرت لوسي بالسعادة من أجل ديكرز. نظرت لوسي عبر الغرفة وسمعت صوت ديكرز العالي بوضوح وسط الضوضاء، كانت ديكرز تؤكد رأيها في اختبار علم الأمراض. «لقد ذكرتِ أن المفصل أصبح لزجًا، يا عزيزتي، وأنا متأكدة من أن هذا ليس المصطلح الصحيح.»

سألت راج لاحقًا: «هل عليَّ أن أحذِّرهما يا آنسة هودج؟»

(تحذِّريهما؟)

«لا، الآنسة توماس فقط اليوم أعتقد. سوف أخبر الآنسة ديكرز غدًا. فمن الأفضل نشر البهجة على عدة أيام.»

عندما نهضت هيئة التدريس من طاولتها وغادرت، خاطبت راج الطالبات اللاتي وقفن بأدبٍ في صمت مؤقت وقالت: «الآنسة هودج ستلتقي الآنسة توماس في مكتبها بعد الغداء.»

بدا الأمر وكأنه إعلان مألوف؛ إذ انطلقت الثرثرة المتحمسة على الفور تقريبًا، حتى قبل أن تصل هيئة التدريس إلى الباب. «وظيفة يا تومي!» «مبروك يا تومي!» «أحسنتِ يا توماس.» «أدعم الويلزيين!» «أتمنى أن يكون الراتب ١٠٠٠ في السنة.» «أليس هذا حظًّا وفيرًا!» «في صحتك يا تومي!»

ولم يذكر أحد أرلينجهيرست حتى الآن.

الفصل التاسع

عندما سمِعت لوسي أولَ مرة أحدًا يذكر أرلينجهيرست، لم يكن مصدرها أيًّا من هيئة التدريس، ولكن من الطالبات أنفسهن. قضت لوسي ظهيرة يوم السبت مع فروكن ووالدتها، للمساعدة في إكمال الأزياء الشعبية السويدية لطالبات السنوات الأولى اللاتي سيؤدين بعضًا من رقصات الريف يوم العرض. لقد كان يومًا جميلًا، وقد أخذن أكوامًا من القماش المُلَوَّن ذي الألوان الأساسية الزاهية إلى الزاوية البعيدة من الحديقة، حيث يمكنهن الجلوس والاستمتاع بمنظر الريف الإنجليزي. من المقرر أن تُقام مباريات الكريكت والتنس في مكان آخر في ذلك الأسبوع؛ لذا كانت الحديقة فارغة، ولم يكن هناك أحد من اللاعبين ليفسد جمال المساحات الخضراء الخالية الممتدة على الجانب الآخر من الجدول. مارسن الحياكة بسعادة كبيرة، وبدا أن السيدة جوستافسِن قد تحدثت بطريقة إيجابية عن لوسي لابنتها؛ إذ كانت فروكن أكثرَ انفتاحًا وأقل تحفظًا، وكانت لوسي مسرورة لاكتشاف أن هذه الشابة، التي كانت تذكرها دائمًا بسطوع ضوء الشمس على الجليد، لديها ضحكة دافئة صادرة من القلب وروح دعابة جميلة كضحكتها. (على الرغم من أن مهارات لوسي في الحياكة قد زعزعت ثقة السيدة جوستافسن بها، فإن على المرء أن يغفر الكثير للإنجليز.) عادت السيدة جوستافسن إلى موضوع الطعام، وتحدَّثت بإسهاب عن مزايا شيء يسمَّى «فريكاديلار»، تبيَّن أنه نوع من أطباق اللحم المفروم. رأت لوسي (التي كانت مهاراتها في الطهي تتمثَّل في تقطيع بعض الطماطم ووضعها في المقلاة في اللحظة الأخيرة، وإضافة كلِّ ما ستطهوه، وسكب بعض الكريمة عليه) أنها طبخة معقَّدة وتستغرق وقتًا طويلًا، وقررت ألَّا تجربها.

سألت فروكن: «هل لديك أي ارتباطات الليلة؟» وأردفت: «سأذهب أنا ووالدتي إلى المسرح في لاربورو. فهي لم تشاهد عرضًا باللغة الإنجليزية بعد. سنكون سعداء إذا أتيتِ معنا.»

أوضحت لوسي أنها ستحضُر الليلة حفلًا في غرفة ستيوارت للاحتفال بالوظيفة. «أعلم أن عضوات هيئة التدريس لا يحضرن هذه الحفلات عادةً، لكنني لست عضوة دائمة.»

نظرت إليها فروكن وقالت: «يجب أن تكوني عضوة دائمة. فأنتِ مفيدة جدًّا لهن.»

عاودت تلك العبارة الدوائية الظهور. الحديث عن لوسي كما لو كانت علاجًا موصوفًا.

«كيف؟»

«أوه، لأسبابٍ كثيرة من الصعب التعبير عنها بلغتي الإنجليزية ... ومن الأصعب بكثير التعبير عنها باللغة الألمانية. فهي أسباب بسيطة تتعلق مثلًا بارتدائك أحذية ذات كعب عالٍ، وبتأليفك كتابًا، وبكونهن لا يخَفْن، ولو قليلًا، منك ... أوه، آلاف الأسباب البسيطة. لقد جئتِ في وقت مناسب لهن؛ وقتٍ يحتجن فيه لإلهاء ... إلهاء لا يصرف انتباههن عن الدراسة. أوه، كم أتمنى لو كنت أتحدث الإنجليزية على نحو أفضل يا عزيزتي.»

«أتقصدين أنني مثل جرعة من مضاد للحموضة لمَعِدة مضطربة.»

أطلقت فروكن ضحكةً مفاجئة. وقالت بالإنجليزية: «نعم، هذا بالضبط. أنا حزينة لأنك لن تأتي معنا إلى المسرح، لكن دعوتك إلى حفل للطالبات شرف كبير، وأعتقد أنك ستستمتعين بالوقت. ستكون معنويات جميع الحاضرات مرتفعة الليلة، الآن بعد أن انتهت الامتحانات. بعد عودتهن من المباراة، سيكون لديهن عطلة نهاية الأسبوع بأكملها لأنفسهن. لذا، سيشعرن بالابتهاج هذا السبت. سيكُنَّ منطلقات، بعيدات عن القيود.

وكانت الفتيات بالتأكيد منطلقات. فعندما دخلت لوسي من باب الفِناء، تاركةً فروكن ووالدتها تلتفان حول المبنى للدخول من بابه الأمامي حيث تقيمان، غمرتها ضوضاء متداخلة مفاجئة. صوت مياه الاستحمام المتدفقة في طابقين، أصوات لا حصر لها، خطًى إيقاعية على أدراج البلوط غير المغطَّى، غناء، صفير، تذمُّر. يبدو أن كلا الفريقين قد عاد — منتصرًا كما يبدو من الأجواء — وكان المكان ينبض بالحياة. كان جميع الفتيات أيضًا متحمسات، وتردَّدَت كلمة واحدة عبر الضوضاء مثل التيمة المتكررة: «أرلينجهيرست». «أرلينجهيرست». وأثناء سيرها بجوار حمَّامات الطابق الأرضي في طريقها إلى الدَّرَج، سمعت الطرف الأول منها. «هل سمعت يا عزيزتي! أرلينجهيرست!»

«ماذا؟»

«أرلينجهيرست!»

أُوقف صنبور الماء.

«لا أستطيع سماعك من الماء الجاري. ماذا قلتِ؟»

«أرلينجهيرست!»

«أنا لا أصدق ذلك.»

قال صوت آخر: «لكن، نعم، هذا صحيح.»

«لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا؛ فهم لا يرسلون الخريجات الجدد إلى أرلينجهيرست.»

«لا، هذا صحيح حقًّا. فقد أبلغت سكرتيرةُ الآنسة هودج جولي بثقة، وأخبرت جولي شقيقتها في القرية، وأخبرت شقيقتها الآنسة نيفيل في «ذا تي بوت»، وأخبرت الآنسة نيفيل فطيرة المكسرات عندما كانت في المقهى تحتسي الشاي بعد ظهر اليوم مع ابن عمها.»

«هل هذا الراقص المستأجر هنا مجددًا؟»

«أرلينجهيرست! مَن يصدِّق ذلك! مَن في اعتقادك سيحصُل على هذه الفرصة؟»

«أوه، هذا أمرٌ معروف.»

«نعم، إينيس بالتأكيد.»

«إينيس المحظوظة.»

«أوه، حسنًا، إنها تستحق ذلك.»

«فقط تخيَّلي. أرلينجهيرست!»

وفي الطابق الأول، كان الأمر هو نفسه: اندفاع مياه الاستحمام، وتناثر المياه، والثرثرة، وأرلينجهيرست.

«ولكن مَن قال لكِ؟»

«فطيرة المكسرات.»

«أوه، يا عزيزتي، إنها غريبة الأطوار، الجميع يعرف ذلك.»

«حسنًا، إنه أمرٌ متعلق بإينيس، على أي حال، فهو ليس من شأني. غالبًا سينتهي بي المطاف بالعمل في مجلس مقاطعة لندن.»

«قد تكون غريبة الأطوار، لكنها ليست مخطئة، وقد فهمت الأمر فهمًا صحيحًا. لم تكن تعرف حتى ما هي أرلينجهيرست؛ لذا فهذا الخبر ليس من وحي خيالها. لقد سألت: «هل هي مدرسة؟»»

«هل هي مدرسة! لا أصدِّق!»

«ألن تكون الآنسة هودج فخورة إلى حدٍّ لا يُصدق، يا عزيزاتي؟!»

«هل تعتقدين أنها ستكون فخورةً بما يكفي لتقديم فطيرة لنا على العشاء عوضًا عن بودنج الحليب؟»

«أتوقَّع أن تكون جولي قد صنعت البودنج أمس، وهو موجود على مائدة التقديم الآن.»

«حسنًا، يمكنهن الانتظار بقدرِ ما أشعر بالقلق. أنا ذاهبة إلى لاربورو.»

«وأنا أيضًا. هل إينيس هنا؟»

«لا، لقد فرغت من الاستحمام. إنها ترتدي ملابسها.»

«دعونا نُقيم جميعًا حفلًا لإينيس، بدلًا من تركها تقيم حفلًا صغيرًا خاصًّا. ففي النهاية، هي ...»

«نعم. لنفعل، أليس كذلك؟ ففي النهاية، لا يحدث كل يوم أن يحصل أحدٌ على وظيفة كهذه، وإينيس تستحقها، والجميع سيكون سعيدًا بهذا، و...»

«نعم، لنُقِم الحفلَ في الغرفة المشتركة.»

«فهو في النهاية تكريم لنا جميعًا. تكريم للايز.»

«أرلينجهيرست! مَن كان ليصدق ذلك؟»

«أرلينجهيرست!»

تساءلت لوسي في نفسها عما إذا كان سوء تصرُّف السكرتيرة القصيرة الوديعة سببه علمها أن الأخبار على وشْك أن تخرج إلى الملأ. فحتى هنرييتا الحذرة والكتومة لم تستطِع الاحتفاظ بهذه المعلومات طيَّ الكتمان فترةً أطول؛ خاصة وأن أرلينجهيرست كانت تتوقع ردًّا. افترضت لوسي أن هنرييتا كانت تنتظر حتى ينتهي الأسبوع «الصعب» قبل أن تشارك الجميع الأخبارَ التي لديها؛ فأدركت أن هذا هو الوقت المناسب.

بينما كانت لوسي تمشي على طول الطُّرقة إلى غرفتها الموجودة في آخرها، قابلت إينيس، التي كانت ترتدي فستانًا قطنيًّا جديدًا.

قالت لوسي: «حسنًا، يبدو أنكن قضيتن ظُهرًا مُثمرًا.»

قالت إينيس: «أتقصدين هذا الصخب؟» وأردفت: «أجل، لقد فزنا. ولكن هذا الصخب ليس ترنيمة انتصار. إنه أشبه بأغنية احتفال تعبِّر بها الفتيات عن ارتياحهن؛ إذ لن يضطررن إلى قضاء أسبوعٍ كهذا مرة أخرى.»

لاحظت لوسي كيف تستخدم إينيس كلمة «الفتيات» دون وعي. وتعجَّبت فترةً وجيزة من هدوء الفتاة. هل يمكن ألا تكون قد سمعت بَعدُ عن الفرصة المتاحة في أرلينجهيرست؟ وبعد ذلك، عندما تحرَّكت إينيس من ظلمة الطُّرقة لتقف وسط الضوء القادم من باب ديكرز المفتوح على مصراعيه، لمحت لوسي إشراقة على وجهها. فامتلأ قلبها بالتعاطف معها. هذا هو شعورها، أليس كذلك؟ أقرب إلى الشعور وكأن أبواب الجنة تُفتَح أمامها.

قالت: «تبدين سعيدةً على الأقل»، مستعينةً بعبارة بسيطة؛ إذ لم تكن هناك كلمات تُعبِّر عن اللمعان الذي في عينَي إينيس.

قالت إينيس وهما تبتعدان: «أستعير كلمات أودونيل، فأقول إنني قريرةُ العين. ستأتي إلى حفل ستيوارت، أليس كذلك؟ هذا رائع. سنتقابل مجددًا هناك.»

وضعت لوسي مسحوق التجميل وقرَّرت الذهاب إلى «المبنى القديم» لترى كيف كان رد فعل هيئة التدريس على الأخبار المتعلقة بأرلينجهيرست. ربما لا يزال هناك بعض الشاي؛ فقد نسيت تمامًا تناول الشاي، وبدا أن فروكن ووالدتها قد نسيتا هما أيضًا. عدَّلَت وضْع زجاجة الشمبانيا، التي ستأخذها معها إلى حفل ستيوارت، في الثلج الذي أخذته من الآنسة جوليف، وشعرت مرة أخرى بالأسف لأن تاجر النبيذ في لاربورو لم يستطِع توفير نبيذٍ أكثر تعتيقًا، لكنها وثقت (واتضح أن هذا صحيح) أن الطالبات سيعتبرن أيَّ منتج من رانس هو ببساطة «شمبانيا».

للوصول إلى «المبنى القديم»، تعيَّن على لوسي أن تمرَّ بجانب غرف نوم طالبات السنة النهائية وحمَّامات الطابق الأول مرةً أخرى، وبدا للوسي أن حدة الضوضاء قد تصاعدت إلى مستوًى جديد؛ إذ زاد عدد الطالبات اللائي سمِعن الأخبارَ وتناقلنها وعلقن عليها وسط خرير المياه المتدفقة وأصوات غلق الأبواب ووقْع الأقدام. كان شعورًا غريبًا أن تنتقل من هذا الزخم إلى «المبنى القديم» الساكن، بجدرانه القِشدية اللون، وأثاثه المصنوع من خشب الماهوجني، ونوافذه الطويلة، ورحابته، التي تخلُق شعورًا بالسلام. عَبَرَت لوسي بسطةَ الدَّرَج الواسعة، وفتحت باب غرفة المعيشة. هنا أيضًا كان السكون، فأغلقت الباب ودخلت الغرفة قبل أن تصبح واعية لنوع هذا الهدوء بالضبط. فقد أدركت، في الواقع، أن الصمت في الغرفة كان بسبب التوتر، وأنها وسط جدال محتدِم بين عضوات هيئة التدريس. كان نزاعًا حادًّا للغاية، إذا حكمنا من خلال الوجوه التي في الغرفة. وقفت هنرييتا وقد أدارت ظهرها للمدفأة، دفاعيةً وعنيدة، وقد احمرَّ وجهها، بينما كانت الأخريات يحدقن بها في غضب، ويلقين عليها عبارات الاتهام.

أرادت لوسي الخروج بسرعة، لكنَّ أحدًا صبَّ لها تلقائيًّا كوبًا من الشاي وأعطاها إياه، وكان من الصعب أن تضع الكوب على الطاولة وتغادر. كان لديها عدة أسباب لفعل ذلك. وكان الشاي أسود اللون تقريبًا وباردًا إلى حدٍّ ما.

لم ينتبه أحد إلى دخول لوسي. فإما أنهن اعتبرنها واحدة منهن، أو أنهن كُنَّ منغمساتٍ جدًّا في نزاعهن بحيث لم يشعرن بوجودها تمامًا. لاحظن دخولها بنظرات على غرار النظرات

التي يُقابَل بها محصِّل التذاكر في عربة قطار؛ فهو شخص دخيل له الحق في الوجود، ولكنه ليس من المشاركين في الحديث.

قالت السيدة: «إنه وحشي! وحشي للغاية!» من واقع تجارب لوسي، كانت هذه المرة الأولى التي تخلَّت فيها عن جِلستها الأنيقة وجلست واضعةً قدميها النحيفتين بثبات على الأرض.

وقفت الآنسة لوكس خلفها، وكان وجهها الكئيب عادةً أكثرَ كآبة من المعتاد، ببقعتين غير معتادتين من اللون الأحمر الفاتح على عظام وجنتيها. جلست فروكن على أحد الكراسي المغطاة بقماش قُطني مطبوع، يعلو وجهَها الازدراء والغطرسة. وبدت راج، وهي تتحرك بالقرب من النافذة، مرتبكة ومحرَجة بقدرِ ما هي غاضبة؛ كما لو كانت انتقلت للتو من عالم البشر إلى جبل أوليمبوس، حيث صراع آلهة الإغريق القدامى.

قالت هنرييتا، محاولةً تبني طريقتها كرائدة للطالبات: «لا أرى أي شيء وحشي في هذا الأمر»، ومع ذلك، بدا الأمر غريبًا على مَسامع لوسي. كان من الواضح أن هنرييتا وجدت نفسها في موقفٍ صعب.

قالت السيدة: «إن الأمر يتجاوز كونه وحشيًّا، إنه أقرب إلى الإجرام.»

«ماري، لا تقولي كلامًا عبثيًّا.»

«إنه عمل إجرامي من نواحٍ كثيرة. فأنت تنوين خداع مدرسةٍ تتوقَّع منك إرسال أفضل طالبة لديك بإرسال واحدةٍ دون المستوى؛ وفي الوقت نفسه، تنوين الإضرارَ بسمعة لايز إلى الحد الذي قد يستغرق عقودًا للتعافي؛ إن تعافت من الأساس. وكل هذا من أجل ماذا؟ من أجل ماذا؟ من أجل تحقيق أهوائك الشخصية ليس إلا!»

ردَّت هنرييتا بحدة: «لا أرى أين هي هذه الأهواء التي تتحدثين عنها»، متخلِّية عن بعضٍ من وقارها. وأردفت: «لا أحد هنا يستطيع أن ينكر أنها طالبةٌ بارعة، وأنها عمِلت بجِد وتستحق التقدير. وحتى عملها النظري كان دائمًا ذا جودة عالية خلال هذا الفصل الدراسي.»

قالت الآنسة لوكس بصوتٍ يُشبه قطرات الماء التي تتساقط على مقلاة معدنية: «ليس دائمًا. فبناءً على البحث الذي صححتُه الليلة الماضية، لن تستطيع حتى تحقيقَ المرتبة الثانية في مادة علم الأمراض.»

في هذه المرحلة، أصبحت لوسي منتبهةً تمامًا لما يُقال، وتوقَّفت عن التفكير فيما تفعله بكوب الشاي.

قالت هنرييتا، وقد شتَّتها هذا الخبر بالفعل عن الموضوع الرئيسي القائم: «أوه، يا إلهي، هذا مؤسف! لقد كانت تعمل بجِد. أفضل بكثير مما كنت أتوقَّع.»

قالت السيدة: «إنها فتاة حمقاء، وأنتِ تعلمين ذلك.»

«ولكن هذا هراء. إنها واحدة من أكثر الطالبات البارعات في لايز اللاتي ...»

«بحق السماء، توقَّفي يا هنرييتا عن قول ذلك. فأنتِ تعرفين جيدًا ما الذي تعنيه كلمة بارع.» ولوَّحت السيدة بورقة زرقاء بيدها السمراء الرفيعة وأمسكت بها بعيدًا (كانت السيدة تكبر في السن وتكره ارتداء النظارات) وقرأت بصوتٍ عالٍ. قالت: ««نتساءل عما إذا كان لديك، من بين طالباتك الخريجات، طالبة بارعة بما يكفي لشغل هذه الوظيفة. طالبة تجسِّد روح أرلينجهيرست من اليوم الأول، طالبة تصبح جزءًا من المدرسة وليس شخصًا دخيلًا، وفي الوقت نفسه نستكمل التعاون المثمر مع لايز.» التعاون المثمر مع لايز! التعاون الذي تنوين كتابة الفصل الأخير فيه بإرسال راوس إليهم!»

«أنا لا أفهم سبب معارضتكن لها بشدة. فلا يمكن أن يكون هذا سوى تحيُّز. لقد كانت طالبة مثالية، ولم ينطِق أحدٌ بكلمة ضدها حتى الآن. وقد أتت اللحظة التي أنوي فيها مكافأتها على عملها الشاق. وفجأةً تصبحن جميعًا غاضباتٍ. أنا في حَيرة من أمري. فروكن! بالتأكيد يمكنكِ مساندتي في هذا. فلم يكن لديكِ طالبة أفضل من الآنسة راوس.»

«الآنسة راوس لاعبة جمباز رائعة. وسمِعت أيضًا من الآنسة راج أنها متفوقة في الألعاب. ومع ذلك، فبمجرد أن تغادر هذا المكان، فلا قدرتها على الوقوف على يديها ولا كونها ظهيرًا أوسطَ جيدًا سيُعَدَّان من الأمور المهمة. ما سيهم وقتها هو شخصيتها. وشخصية الآنسة راوس ليست جيدة للغاية وتفتقر إلى الكثير من الصفات الحسنة.»

قالت هنرييتا في صدمة: «فروكن!» وأردفت: «ظننتُكِ تحبينها.»

«أهذا صحيح؟» قالت هاتَين الكلمتين الفاترتَين اللامباليتَين وكأن لسان حالها يقول: «من المتوقع أن أحب جميع طالباتي؛ إذا كنت قد علمتِ بمن أُحب أو أكره، فسأكون عديمة القيمة.»

قالت السيدة بسعادة: «حسنًا، لقد سألت سيجريد، وقد أبلغتك بالتأكيد. لم يكن بمقدوري التعبيرُ عن ذلك بأسلوب أفضل.»

قالت الآنسة راج: «ربما ... أقصد، إنهم يريدونها للجمباز. في أرلينجهيرست، لديهم أقسام منفصلة للجمباز والألعاب والرقص، شخص واحد لكل قِسم. لذلك، ربما لن يكون اختيار راوس أمرًا سيئًا للغاية.»

تساءلت لوسي في نفسها عمَّا إذا كان هذا التعليق المتردد قد تأثَّر بأداء راوس في قسم الآنسة راج بصفتها ظهيرًا أوسط، أم أنه نابع من رغبتها في تهدئة الأمور وتقريب وجهات النظر، ولو قليلًا.

قالت السيدة بنبرة متعالية تُستخدم عند الحديث لمن هم أقل ذكاءً: «ما يبحثون عنه ليس شخصًا «غير بالغ السوء»؛ إنهم يبحثون عن شخص استثنائي للغاية؛ بحيث يمكنها الانتقال مباشرةً من الكلية لتصبح واحدة من ثلاث لاعبات جمباز في أفضل مدرسة للبنات في إنجلترا. هل تعتقدين أن هذا ينطبق على الآنسة راوس؟»

«لا. لا أعتقد ذلك. هذا ينطبق على إينيس، يجب أن أقول ذلك.»

«بالضبط. هذا ينطبق على إينيس. ومن غير المفهوم لماذا لا ترى الآنسة هودج ذلك.» حدَّقت السيدة في هنرييتا بعينيها السوداوين الكبيرتين، فجفلت هنرييتا.

«لقد أخبرتك بالفعل! هناك وظيفة شاغرة في مستشفى ويتشرلي لتقويم العظام، وهي ستكون فرصة مثالية للآنسة إينيس. فهي متفوقة في العمل الطبي.»

«امنحني الصبر يا إلهي! مستشفى ويتشرلي لتقويم العظام!»

صاحت الآنسة لوكس في غضبٍ: «ألا تقنعك تلك المعارضةُ الجماعية بأنكِ مخطئة يا آنسة هودج؟» وأكملت: «موقفك ليس قويًّا؛ إذ إنك الوحيدة المقتنعة بهذا الرأي.»

ولكن لم يكن من الصواب قول هذا. كانت هنرييتا من قبل على استعداد للتشاوُر؛ فهي الآن بعيدة تمامًا عن هذه المرحلة. فقد أثار المنطق الذي تحدثت به الآنسة لوكس غضب هنرييتا.

«قد لا يكون موقفي المنفرد قويًّا يا آنسة لوكس، ولكن منصبي بصفتي مديرة لهذه الكلية لا جدال فيه، وما تعتقدينه أو لا تعتقدينه حول قراراتي لا يُهم. لقد شاركتُ معكن، كما أفعل دائمًا، تفاصيلَ شغْل هذه الوظيفة. وإن كنتن لا توافقن الرأي، فهذا للأسف أمرٌ محزن، ولكن لا يترتب عليه أي شيء. فأنا مَن أتخذ القرارات هنا، وفي هذه الحالة، اتخذت القرار. لكُنَّ الحريةُ في الرفض بالطبع؛ بالطبع لديكن الحرية في التعبير عن عدم موافقتكن، لكن التدخُّل، لحسن الحظ، ليس من اختصاصكن.»

وبيدٍ مرتجفة، التقطت فنجانها ووضعته مرةً أخرى على صينية الشاي، مُتَّبعة روتينها المعتاد؛ ثم اتجهت نحو الباب. متثاقلة ومجروحة، كالفيل الجريح، كما اعتقدت لوسي.

قالت السيدة: «دقيقة واحدة يا هنرييتا!» ورمقت لوسي بنظرة استمتاع خبيثة. وتابعت: «دعونا نستمع إلى رأي شخص من خارج لايز، عالمة النفس المُدرَّبة.»

قالت لوسي المسكينة: «لكنني لست عالمة نفس مدرَّبة.»

«دعونا فقط نستمع إلى رأي الآنسة بيم.»

«لا أعرف ما علاقة الآنسة بيم بالوظائف الشاغرة ...»

«لا، ليس بشأن الوظائف الشاغرة. سنعرف فقط رأيها في هاتين الطالبتين. تعالَي يا آنسة بيم. قولي لنا رأيك بصراحة. فبعد قضاء أسبوع واحد فقط بيننا، لا يمكن لأحد اتهامك بالتحيُّز.»

سألت لوسي: «هل تقصدين راوس وإينيس؟» محاولةً كسب الوقت. فتوقفت هنرييتا واضعةً يدها على الباب. وأردفت لوسي: «أنا لا أعرفهما بالطبع؛ ولكن يدهشني بالتأكيد أن الآنسة هودج تريد إعطاءَ هذه الوظيفة لراوس. فأنا لا أعتقد أنها كذلك على الإطلاق؛ في الحقيقة أعتقد أنها ستكون غير مناسبة إطلاقًا لهذا الدور.»

كان واضحًا أن ما قالته لوسي هو القَشة التي قصمت ظهر البعير، فرمقت هنرييتا لوسي بنظرة وكأنها تقول لها: «حتى أنتَ يا بروتس؟» وخرجت من الغرفة وهي تتمتم بشيء عن تأثير الوجه الجميل في استمالة الآخرين. فسَّرت لوسي الملاحظة على أنها تشير إلى إينيس، وليس إلى نفسها.

عمَّ الصمت التام أرجاءَ غرفة الجلوس.

قالت السيدة أخيرًا، متأملة ومندهشة: «ظننت أنني أعرف هنرييتا جيدًا.»

قالت الآنسة لوكس بمرارة: «اعتقدت أنه يمكن الوثوق بها لتكون عادلة.»

نهضت فروكن من مقعدها دون أن تنطق بكلمة واحدة، وظلت تعابير وجهها مليئةً بالازدراء والاستياء، وخرجت من الغرفة. لاحظ الجميع رحيلها بتعبيرات غير راضية؛ كان صمتها يُغني عن الكلام.

قالت راج: «من المؤسف أن يحدث هذا بينما يسير كل شيء بسلاسة»، مقدِّمة تعليقًا آخر غير مفيد. كانت مثل شخص يوزع أقراص الزبيب الأسود على ضحايا الزلزال. وتابعت: «كن جميعًا سعيدات جدًّا بوظائفهن، و...»

سألت لوكس السيدة: «هل تعتقدين أنها سوف تعود إلى رشدها عندما يُتاح لها الوقت لإعادة النظر في الأمر؟»

«إنها تدرس الأمر منذ قرابة أسبوع. أو بالأحرى، اتخذت قرارها بشأنه منذ أسبوع تقريبًا؛ حتى أصبح حقيقة ثابتة ولن تتمكن من العدول عن قرارها.»

«ومع ذلك لم تكن متأكدة ... أعني، متأكدة من رد فعلنا ... أو أنها لم تكن لتحتفظ به لنفسها حتى الآن. ربما عندما تفكر في الأمر ...»

«عندما تفكر في الأمر، ستتذكر أن كاثرين لوكس تجرَّأت على التشكيك في الامتياز الملكي ...»

«ولكن هناك مجلس إدارة للكلية. إنه ليس حقًّا إلهيًّا لها. يجب أن يكون هناك شخص يُحتَكَم إليه بشأن قرارها. لا يمكن أن نسمح بحدوث مثل هذا الظلم لمجرد ...»

«بالطبع هناك مجلس للإدارة. لقد التقيت أعضاءَه عندما حصلت على الوظيفة هنا. يمكنك مقابلة إحداهن عندما تأتي لتناول العشاء في ليالي الجمعة، بالتزامن مع محاضرات اليوجا أو الثيوصوفية أو الفودو أو أي شيء آخر. وهي امرأة جشعة، ترتدي خرز العنبر والساتان الأسود، وتمتلك ذكاءً متدنِّيًا للغاية. إنها تعتقد أن هنرييتا شخص رائع. وكذلك يعتقد بقية المجلس. واسمحوا لي أن أوضح ذلك جيدًا الآن في هذا المكان. هذا ما يجعل كل شيء صادمًا. إن هنرييتا، الذكية التي غيَّرت هذا المكان من شيء ليس أفضل كثيرًا من مدرسة فتيات، لا بد أن تكون عمياء، تفتقر فجأةً إلى أدنى قدرة على إصدار الأحكام؛ أمر لا يُصَدَّق. لا يُصَدَّق!»

«ولكن لا بد أن هناك شيئًا يمكننا القيام به ...»

قالت السيدة برشاقة وهي تنهض من مقعدها: «عزيزتي كاثرين الحسنة النية، التي تفتقر إلى اللباقة، كلُّ ما يمكننا فِعله هو العودة إلى غُرَفنا والصلاة.» ومدَّت يدها إلى الوشاح الذي يغطي هيكلها النحيف، حتى في الحرارة الشديدة، وهي تنتقل من غرفة إلى أخرى. وأردفت: «هناك أيضًا علاجات أقل فَعالية مثل الأسبرين والحمَّام الساخن. قد لا يؤثران كثيرًا، لكنهما يفيدان في تحسين ضغط الدم.» وخرجت من الغرفة في خفة؛ تكاد تكون بلا وزن.

قالت راج: «إذا كانت السيدة غير قادرة على فعل أي شيء للتأثير على الآنسة هودج، فلا أعتقد أن أي شخص آخر يمكنه فعل ذلك.»

قالت لوكس: «بالتأكيد لا أستطيع. كلُّ ما هنالك أنني أزعجها. حتى لو لم أفعل، حتى لو امتلكتُ سِحرَ كليوباترا وكانت تستمع إلى كل كلمة أقولها، كيف يمكن لأحد أن يصحح الأستجماتزم الذهني الذي لديها؟ إنها حقًّا صادقة فيما يتصل بهذا كما ترون. هي ترى الأشياء حقًّا بهذه الطريقة؛ فهي تنظر بصدق إلى راوس على أنها شخص يستحق الثناء، بينما تعتبرنا متحيزات ومعارضات. فكيف يغيِّر المرء مثل هذا المنظور؟» حدَّقت لوكس في هدوء من النافذة المضيئة للحظة، ثم التقطت كتابها. وأردفت: «يجب أن أذهب وأغيِّر ملابسي إن تمكنتُ من العثور على حمَّام متاح.»

ترك رحيلها لوسي بمفردها مع الآنسة راج، التي من الواضح أنها كانت ترغب في المغادرة هي الأخرى، لكنها لم تكن متأكدة من كيفية المغادرة بطريقة لائقة بما يكفي.

قالت: «إنها فوضى، أليس كذلك؟»

قالت لوسي: «نعم، إنه لأمر مؤسف»، وشعرت أن البيان فشل في تصوير خطورة الموقف؛ كانت لا تزال مندهشة من التطوُّر الجديد للأحداث. ولاحظت أن راج كانت لا تزال ترتدي ملابس الخروج. سألتها: «متى سمعت بهذا الخبر؟»

«سمعتُ الطالبات وهن يناقشن الأمر في الطابق السفلي — أقصد عندما عُدنا من المباراة — وهُرعت إلى هنا لأتأكد من الأمر، فوجدت حالة الاضطراب على أشدها. أقصد الجدل القائم. إنها خسارة؛ كان كل شيء يسير على ما يُرام.»

قالت لوسي: «أنت تعرفين أن الطالبات يعتبرن اختيار إينيس الوظيفةَ أمرًا مُسَلَّمًا به.»

قالت راج بجدية: «نعم. سمعتهن يتحدثن في الحمامات. فهذا ما سيفترضه أيُّ شخص لديه حِس بديهي. توقعنا جميعًا أن تكون إينيس هي الشخص المختار. إنها ليست الأفضل في رأيي — أقصد في الألعاب — لكنها مدرِّبة جيدة. فهي تفهم ما تفعله. وبالطبع في مجالات أخرى هي رائعة. كان ينبغي حقًّا أن تمتهن مهنة الطب أو شيئًا ما يمثل تحديًا فكريًّا. أوه، حسنًا، أعتقد أنني يجب أن أذهب وأغيِّر ملابسي.» تردَّدت لحظةً. وقالت: «من فضلك لا تعتقدي أن هذا يحدث كثيرًا يا آنسة بيم. هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها عضوات هيئة التدريس يتجادلن في شيءٍ ما. فالقاعدة هنا أننا جميعًا صديقات. لهذا السبب، هذه خسارة. أتمنى أن يغيِّر شخصٌ ما رأي الآنسة هودج. ولكن حسب معرفتي الجيدة بها، لن ينجح أحدٌ في ذلك.»

الفصل العاشر

يقولون إنه لن ينجح أحدٌ في إقناع هنرييتا؛ ولكن هناك احتمال طفيف أن تنجح لوسي في ذلك. فعندما أُغلق الباب خلف راج، وجدت لوسي نفسها في موقف صعب. لقد كان لديها دليل للاعتقاد بأن تفسير الآنسة لوكس الأول لرد فعل هنرييتا كان أكثرَ دقةً من تفسيرها الثاني. لم يكن الأستجماتزم الذهني الذي تحدَّثت عنه لوكس قويًّا بما يكفي لرفض أي شكوك حول حكمها؛ فلم تنسَ لوسي تعبيرَ الإحساس بالذنب على وجه هنرييتا صباح يوم الإثنين الماضي عندما حاولت سكرتيرتُها طرح موضوع خطاب أرلينجهيرست. لقد كانت نظرتها نظرةَ مَن يُخفي شيئًا. ليس نظرة مَن يخفي مفاجأة سارة. من المؤكد أنه شيء يجلب عليها بعض الشعور بالخجل. قد تعاني الأستجماتزم بما يكفي لتعتبر راوس تستحق هذه الفرصة، لكنها ليست عمياء لدرجة تجاهل حقيقة أن إينيس لديها الأفضلية.

وفي ظل هذه الظروف، كان من واجب لوسي عرض بعض الحقائق على هنرييتا. كان من العار الشديد أن الكتاب الأحمر الصغير قد تحوَّل الآن إلى عجينة وسط الأعشاب — لقد تصرفت باندفاعية شديدة عندما تخلصت منه — ومع ذلك، فبوجود الكتاب أو عدمه، كان عليها أن تواجه هنرييتا وأن تقدِّم أسبابًا مقنعة لاعتقادها أن راوس ليست الطالبة المناسبة لوظيفة أرلينجهيرست.

لقد فوجئت قليلًا حين وجدت أن الحديث مع هنرييتا عن هذا الموضوع قد أحيا بداخلها هواجسَ تشبه هواجس فتيات المدرسة التي تبدو غريبة لأي شخص راشد؛ لا سيما إن كان شخصًا مشهورًا مثل لوسي. لكن ثقة لوسي ازدادت بشدة عندما ذكرت هنرييتا «الوجوه الجميلة». لم يجدر بهنرييتا التفوُّه بهذا التعليق.

نهضت لوسي ووضعت كوب الشاي الأسود البارد على الصينية؛ ولاحظت بأسفٍ وجودَ أصابع اللوز مع الشاي. قبل ١٠ دقائق فقط، كانت ستستمتع بشدة بتناول أصابع اللوز،

ولكن الآن لا يمكنها حتى تناول قطعة كعك. لن يكون دقيقًا إن قالت إنها اكتشفت عيوبًا في هنرييتا؛ لأنها لم تشكِّل قط أيَّ تصور معيَّن لها. ولكنها اعتبرت هنرييتا شخصًا شأنه أعلى من شأنها، وظلت هذه الفكرة متأصِّلة داخلها منذ أيام المدرسة. لذا تفاجأت عندما وجدت أن هنرييتا قادرة على ما يعتبر في أسوأ الأحوال غشًّا، أو على الأقل فعلًا أحمق. تساءلت عن صفات راوس التي أثَّرت على حكم هنرييتا السليم. هذا التعليق حول «الوجوه الجميلة». لقد كان تعليقًا مندفعًا وغير مدروس. هل لفت شيءٌ ما في هذا الوجه الشمالي غير الجذاب انتباهَ امرأة كانت معتادة استقبالَ طالبات جذابات؟ هل رأت هنرييتا شيئًا ما في راوس غير الجذابة، وغير المحبوبة، والمجتهدة، والطموحة يذكرها بنفسها؟ هل كان الأمر كما لو أنها كانت تسترجع بعض التحديات السابقة الخاصة بها؟ هذا جعلها تبدأ طبيعيًّا في دعم راوس وتشجيعها والاهتمام بها دون أن تدرك أنها تفعل ذلك. كانت خيبة أملها في أداء راوس غيرِ الجيد نسبيًّا في امتحان علم الأمراض قويةً جدًّا لدرجة أنها صرفت تركيزها عن الجدال المهم الدائر بينها وبين بقية الأعضاء.

أم إن راوس فقط استفادت من نظرات الإعجاب — النظرات المُحبة تقريبًا — التي تلقَّتها على الممشى المُغطى في ذلك الصباح؟

لا، الأمر ليس كذلك. فقد كان لهنرييتا عيوب، لكن الحماقة لم تكن أحدَ تلك العيوب. وعلاوة على ذلك، فمثل أي شخص آخر في مجال التعليم، تلقَّت هنرييتا مدةً طويلة الإعجابَ الحقيقي والمزيف. ربما يكون اهتمامها براوس قد ازداد بسبب نظرة راوس لها نظرة التلميذة للمعلِّمة، لكن يوجد سبب حقيقي وراء اهتمامها براوس. فمن المحتمل أن هنرييتا التي اعتادت أن تكون الفتاة غير الجذابة وغير المحبوبة والطَّموحة قد شعرت بالدفء والأُلفة تجاه راوس الشابة غير الجذابة وغير المحبوبة والطموحة.

لم تكن لوسي متأكدة ما إذا كان يتعيَّن عليها التحدث إلى هنرييتا على الفور أو الانتظار حتى تهدأ. كانت المشكلة أنه إذا هدأت هنرييتا فإن تصميم لوسي على مواجهة هنرييتا بشأن هذا الموضوع سيضعُف هو الآخر. وبعد التفكير في الأمر وتذكُّر إخفاقات الماضي، قررت لوسي أنه من الأفضل التحدث إلى هنرييتا الآن بينما لا تزال لديها الطاقة والعزم على القيام بذلك على نحوٍ صحيح.

طرقت لوسي باب المكتب لكنها لم تحصل على رد فوري، وللحظة، تمنَّت أن تكون هنرييتا قد ذهبت إلى غرفتها في الطابق العلوي، مما سيمنحها المزيد من الوقت لتجنُّب واجبها البسيط. ولكن لا؛ ناداها صوت هنرييتا سامحًا لها بالدخول، فدخلت لوسي، ولديها

شعور بأنها قد فعلت شيئًا خاطئًا، وكانت غاضبة من نفسها بسبب جبنها. كانت هنرييتا لا تزال منزعجة، ولو لم تكن هنرييتا، لاعتقدت لوسي أن عينيها كانتا تذرفان دمعًا؛ لكن هذا لا يمكن أن يكون ممكنًا. بدت هنرييتا مشغولة ببعض الأوراق على مكتبها، لكن لوسي شعرت أنه قبل أن تطرق الباب، كانت هنرييتا غارقة في التفكير.

بدأت لوسي في الكلام قائلة: «هنرييتا، أخشى أن تكوني اعتبرتِها جرأة مني لأني عبَّرت عن رأيي بشأن الآنسة راوس.» (يا إلهي، ما هذا الكلام!)

قالت هنرييتا ببرود: «رأي لم يطلبه أحد.»

من بين كل العبارات! «لم يطلبه أحد!» «لقد طُلب مني أن أقول رأيي. هذا ما حدث. ولم أكن لأقوله لولا أنه طُلب مني. المهم في الأمر هو أن هذا الرأي ...»

«لا أعتقد أننا بحاجة إلى مناقشة هذا يا لوسي. إنه موضوع غير مهم على أي حال ولا يستحق ...»

«بل هو موضوع مهم. ولهذا جئت إليك.»

«نحن نفتخر في هذا البلد أن لكل شخص الحقَّ في تكوين رأي وفي التعبير عنه. حسنًا، لقد عبَّرتِ عنه بالفعل ...»

«عندما طُلب مني ذلك.»

«عندما طُلب منكِ ذلك. وما أود قوله هو أنه لم يكن من اللباقة أن تنضمي إلى طرفٍ ضد طرف آخر في موضوع لا تعرفين عنه سوى القليل، إن كنتِ تعرفين عنه شيئًا أصلًا.»

«هذا ما أود التحدث فيه. أنا بالفعل أعرف عنه شيئًا. أنتِ تظنين أنني فقط منحازة ضد الآنسة راوس لأنها ليست جذابة ...»

صحَّحت هنرييتا فورًا: «ربما هي ليست جذابة من وجهة نظرك.»

قالت لوسي، التي كانت مستاءة، ولكنها بدأت تشعر ببعض الارتياح: «لنقُل بوضوحٍ إنها ليست جذابة. أنتِ تعتقدين أنني حكمت عليها بناءً على شكلها، ولكن هذا ليس صحيحًا.»

«وبناءً على ماذا حكمتِ عليها؟ أنتِ لا تعرفين شيئًا عن مستواها التعليمي.»

«لقد توليت المراقبة في أحد امتحاناتها.»

لاحظت لوسي بارتياح أن هذا جعل هنرييتا تتوقف.

كانت هناك لحظة هادئة، دامت تقريبًا حتى العدِّ إلى خمسة.

«وما الشيء الذي يمكنك التحقُّق منه عن طالبة من خلال مشاهدتها أثناء الامتحان؟»

«أمانتها.»

«لوسي!» لكن لهجتها لم تكن لهجةَ مَن صُدِم. لقد كان تحذيرًا. كانت تعني؛ إن كانت تعني أيَّ شيء من الأساس: «هل تعرفين ما عقوبة إلقاء التهم الباطلة؟»

«نعم، قلت أمانتها.»

«هل تحاولين قول إنك ضبطت الآنسة راوس وهي ... تغش أثناء الامتحان؟»

«لقد حاوَلَت الغش. فأنا لم أقضِ وقتًا طويلًا في صفوف السنة الرابعة في المدرسة دون أن أعرف كيف تسير الأمور. لاحظتُ ما كانت تفعله في البداية، وبما لم أرغب في إثارة بلبلة، رأيت أن أفضلَ ما يمكنني فعله هو منعها من الاستفادة منه.»

«الاستفادة منه؟ الاستفادة من ماذا؟»

«من الدفتر الصغير.»

«هل تعنين أنك رأيت طالبةً تستخدم دفترًا صغيرًا أثناء الامتحان ولم تقولي شيئًا؟»

«لا، ليس بالضبط. ففي تلك اللحظة، لم أكن أعرف شيئًا عن الدفتر. كلُّ ما عرفته هو أنها كانت تحاول الاستعانة به. كانت تمسك بمنديل في يدها اليسرى ... مع أنها لم تكن مصابة بنَزلة بَرْد، وبدا أنه لا يوجد سبب وجيه لذلك، كما أن تعبيراتها كانت تعبيرات مَن يخفي شيئًا ما تحت مكتبها؛ وهو الأمر الذي تعرفينه كما أعرفه. ولكن لم يكن هناك شيء تحت مكتبها؛ لذلك خمَّنت أن كلَّ ما كانت تستعين به كان في يدها مع المنديل. وبما أنه ليس لدي أي دليل ...»

«آه، إذن لم يكن لديك أيُّ دليل.»

«لا، لم يكن لديَّ دليل. ولم أكن أرغب في إزعاج مَن في الغرفة بطلب دليل؛ لذا توليت الإشرافَ من الجزء الخلفي من الغرفة، خلفها مباشرة، للتأكد من أنها لن تستطيع الحصول على أي مساعدة من أي شيء أو أي شخص.»

«ولكنكِ لم تسأليها عن ذلك، فكيف عرفتِ بأمر الدفتر؟»

«لقد وجدتُ الدفتر مُلقًى على الطريق المؤدي إلى صالة الألعاب الرياضية. وكان ...»

«تقصدين أن الدفتر لم يكن في مكتبها؟ ولم يكن في الغرفة من الأساس؟»

«نعم. فلو كان موجودًا، لعلمتُ بالخبر بعد خمس دقائق. ولو كنت وجدتُ دفترًا كهذا في غرفة الامتحان، لكنت أحضرته إليك من فوري.»

«دفتر كهذا؟ ما شكل الدفتر؟»

«دفتر عناوين صغير الحجم مُدَوَّن به ملاحظات خاصة بعلم الأمراض.»

«دفتر عناوين؟»

«نعم، (أ) التهاب مفصلي ... وهكذا.»

«أتقصدين أنه كان مجرَّد دفتر مرجعي كتبته طالبة وهي تذاكر؟»

«إنه ليس مجرد دفتر.»

«ولماذا تقولين مجرد؟»

«لأن الدفتر لم يكن أكبرَ بكثير من طابع بريدي كبير جدًّا.»

انتظرت لوسي حتى تستوعب هنرييتا معنًى هذا.

«وما علاقة هذا الدفتر الصغير الذي وجدته بالآنسة راوس؟»

«فقط لأنه لم يكن هناك أيُّ فتاة أخرى في الغرفة يبدو وكأنها تخفي شيئًا ما تحت مكتبها؛ في الواقع، لم يبدُ أن أي فتاة أخرى كانت قلقة جدًّا بشأن ورقة الامتحان. كما أن راوس كانت آخرَ مَن غادر الغرفة.»

«وما علاقة ذلك بالأمر؟»

«لو أُسقط الدفتر قبل مغادرة راوس قاعةَ الامتحان، لكان من المحتمل أن تلتقطه أيُّ طالبة أخرى. كان لونه أحمرَ داكنًا، وكان مُلقًى بوضوح على العشب عند حافة الممر.»

«ليس في وسط الممر؟»

قالت لوسي على مضض: «لا. نحو نصف بوصة بعيدًا عنه.»

«إذن، هل من الممكن أن تمرَّ عليه مجموعة من الطالبات المنشغلات بالحديث بحماسة عن الامتحان، ويحاولن عدم التأخر عن محاضرتهن التالية؟»

«نعم، أظن ذلك.»

«هل كان هناك اسمٌ على الدفتر؟»

«لا.»

«لم يوجد اسم؟ أليست هناك طريقة لمعرفة صاحبة الدفتر؟»

«لا شيء سوى طريقة الكتابة. كان الكلام مكتوبًا بخط نسخ، وليس رقعة.»

«حسنًا.» بدت هنرييتا تهيئ نفسها لشيء. وتابعت: «إذن، عليك أن تُحضري لي الدفتر، وسنتخذ الخطوات اللازمة لمعرفة صاحبته.»

قالت لوسي بحزن: «الدفتر ليس معي. لقد أغرقته.»

«ماذا فعلتِ؟»

«أقصد أنني ألقيته في الجدول بجوار الملعب.»

«من غير الطبيعي على الإطلاق فِعل ذلك.» هل كان هناك شعور بالراحة في عينَي هنرييتا؟

«حسنًا، لم يكن هناك ذلك الشعور في واقع الأمر. أعتقد أنه كان قرارًا مندفعًا. ولكن ماذا كان يمكنني أن أفعل به؟ لقد كان ملخصًا لعلم الأمراض، وقد انتُهي بالفعل من الامتحان النهائي لعلم الأمراض، ولم يستخدم أحدٌ الدفتر. أيًّا كانت الخطط، هي لم تنجح. لماذا إذن أقلقك بإعطائك الدفتر؟ اعتقدت أن أفضل عقاب للفتاة التي أعدَّته هو ألا تكتشف أبدًا ما حدث له. وألا تجد أبدًا جوابًا عن السؤال الذي يدور في رأسها.»

«الفتاة التي أعدَّته. تلك هي حقيقة الموقف، أليس كذلك؟ إذ لا يوجد أي دليل على علاقة الآنسة راوس بهذا الكتاب.»

«لو كان هناك دليل، كما قلت من قبل، لكنت أحضرته لكِ. ولكن هذا مجرد تخمين. ولكنه تخمين قوي للغاية. ويمكن استبعاد الكثير من الفتيات.»

«لماذا؟»

«فالفتيات اللاتي لا يعتقدن أنهن سيواجهن صعوبةً في الامتحان لن يكلفن أنفسهن عناء الاستعداد بهذه الطريقة. وهذا يعني أن الفتيات الجيدات في الجزء النظري لم يفعلن ذلك. لكنك أنت نفسك قلت لي إن راوس تجد صعوبةً بالغة في الأعمال الكتابية.»

«شأنها شأن الكثير من الفتيات الأخريات.»

«نعم، ولكنَّ هناك عاملًا آخر. فقد تواجه الكثيرات بلا شك صعوبةً في الجزء النظري، ولكنهن لا يهتمِمْن بذلك ما دُمْن قد نجحن. ولكن راوس ممتازة في الجزء العملي، ويزعجها عدم الأداء الجيد في الامتحانات. فهي طموحة وتعمل بجِد. وتريد أن تجنيَ ثمارَ مجهوداتها، وهي غير متأكدة من أنها ستجنيها. لذا أعدَّت الدفتر الصغير.»

«هذا يا عزيزتي لوسي ما هو إلا تكهُّنات نفسية.»

«ربما. لكن هذا ما طلبته مني السيدة في غرفة المعيشة. لقد اعتقدَت أن رأيي كان مبنيًّا على التحيُّز فقط. ورأت أن أخبرك أن لديَّ أساسًا أفضلَ ينبني عليه التفكير بهذه الطريقة.»

ونظرت لوسي إلى وجه هنرييتا الأحمر، وتساءلت عما إذا كان بإمكانها إثارة الموضوع مرة أخرى، بعد أن أظهرت أنها لم تكن تتدخل بتهور فحسب. فتابعت: «كأصدقاء يا هنرييتا، لا أفهم لماذا تفكرين في إرسال راوس إلى أرلينجهيرست عندما يكون لديك شخص مناسب مثل إينيس.» ثم انتظرت ردَّ الفعل.

ولكن لم يكن هناك ردُّ فعل. فقد جلست هنرييتا في صمت تام، ترسم شكلًا منقطًا صغيرًا بقلمها على الورق النشاف النظيف، وهو علامة على انزعاجها؛ إذ لم يكن الرسم العابث ولا إهدار الورق من عادة هنرييتا.

قالت هنرييتا بعد فترة من الصمت بنبرة ودودة إلى حدٍّ معقول: «لا أعتقد أنكِ تعرفين الكثير عن إينيس. لأنها ذكية للغاية وذات مظهر جميل، قد تعتقدين أنها مثالية في كل شيء. لكنها بالتأكيد ليست كذلك. فهي تفتقر إلى حسِّ الفُكاهة، ولا تكوِّن صداقات بسهولة ... وهاتان مشكلتان كبيرتان لأي شخص يريد أن يعيش في مدرسة داخلية مع الكثير من الناس. يمكن أن يكون ذكاؤها أيضًا عائقًا؛ لأنه من الصعب عليها التحلي بالصبر مع الأشخاص الذين تعتقد أنهم حمقى. إنها تتصرف أحيانًا — دون وعي بالتأكيد — وكأنها أفضل من الآخرين.» (تذكَّرت لوسي فجأة كيف أن إينيس بعد ظهر اليوم قد أشارت دون وعي إلى زميلاتها بكلمة «الفتيات». إن هنرييتا، رغم تقدُّمها في العمر، فطِنةٌ بما يكفي.)

«في الواقع، منذ مجيئها إلى هنا، بدا لي أنها تحتقر لايز، وأنها موجودة هنا فقط لتحقيق غاية أخرى.»

قالت لوسي: «أوه، لا هذا غير صحيح بالتأكيد»، وقد جاء رد لوسي عفويًّا، على الرغم من أنها كانت تتساءل في نفسها عما إذا كان هذا صحيحًا، وإذا كان هذا يفسِّر الكثير مما يحيرها بشأن ماري إينيس. فإذا كان وجودها في لايز تجربةً صعبة لتحقيق غاية أخرى، فقد يفسِّر ذلك سببَ تصرُّفها باعتبارها شخصًا بالغًا قليلَ الكلام، كما لو كانت دائمًا تفكر بعُمق، وهي التي لا تحتاج إلى ذلك، ولماذا لا تستطيع الابتسام.

تذكَّرت لوسي فجأةً كلام ديستيرو المرِح عن إينيس، وكيف أنها غيَّرت رأيها وقررت البقاء في لايز بعد رؤيتها. كان ذلك لأن إينيس لم تبدُ لها أنها تنتمي إلى لايز عندما رأتها في ظهيرة ذلك الخريف الكئيب؛ لقد برزت وسط الحشد شخصًا من عالم مختلف وأكثر نُضجًا.

قالت لوسي: «لكن يبدو أنها تحظى بشعبية كبيرة وسط زميلاتها.»

«صحيح، الأشخاص الذين تقضي وقتًا معهم يحبونها. إنهم يجدون انطواءها ... مثيرًا للاهتمام، على ما أعتقد. لكنها للأسف لا تحظى بشعبية كبيرة بين الأطفال؛ فهم يعتبرونها مُخيفة. إذا نظرتِ إلى دفتر التقارير الخاص بها — الدفتر الذي تكتب فيه عضوات هيئة التدريس التقارير عن الطالبات في الفصول الدراسية خارج لايز — ستجدين كلمة «عدائية» تُستخدم كثيرًا لوصفها.»

قالت لوسي: «ربما يكون السبب حاجبَيها لا أكثر.» وأدركت أن هنرييتا، التي لم تفهم ما قالته، اعتقدت أن هذا يُعد تعليقًا تافهًا؛ لذا أضافت: «أو ربما تكون، مثل كثير من الناس، غير واثقة في نفسها، حتى لو كانت تتصرف بطريقة توحي بعكس ذلك. فهذا هو السبب الذي يجعل الناس يتصرفون بعدائية في كثير من الأحيان.»

قالت هنرييتا: «أجد تفسيرات علماء النفس بسيطة للغاية. إذا كان شخصٌ ما لا يستطيع تكوين صداقات بسهولة، فلا يزال بإمكانه أن يحاول أن يكون ودودًا. الآنسة راوس تفعل ذلك.»

(أراهن على ذلك! هكذا فكَّرت لوسي.)

«إنَّ عدم امتلاك فتاة جمالًا طبيعيًّا يمثل تحديًا؛ فهي لا تُحرم من الصداقات السهلة مع زميلاتها فحسب، بل يتعين عليها أيضًا التغلُّب على الأحكام غير العادلة من جانب المسئولين. لقد عملت الآنسة راوس بجِد للتغلب على عيوبها: بطء تفكيرها، وعدم جاذبيتها؛ إنها تقطع أكثرَ من نصف الطريق للتواصل مع الناس، وتحاول جاهدةً أن تكون قادرة على التكيف، ولطيفة، ومحبوبة و… و… ومقبولة للناس. وهي تنجح في التعامل مع تلميذاتها. فهن يُحبِبنها وينتظرن رؤيتها؛ كما أن تقاريرها من فصولها ممتازة. ولكن مع هيئة التدريس، كأفراد، هي لم تنجح. فهن لا يرَيْن سوى عدم جاذبيتها، ومحاولاتُها أن تكون ودودة وقادرة على التكيُّف تزعجهن.» رفعت هنرييتا عينيها عن الأشكال المنقَّطة التي كانت ترسمها ولاحظت تعبير لوسي. وأردفت: «أوه، فهمت، اعتقدت أن تفضيلي لراوس هو بسبب التحيز الأعمى، أليس كذلك؟ صدقيني، لم أكن سببًا في وصول لايز إلى ما هي عليه الآن دون أن أفهم شيئًا عن كيفية آلية العقل البشري. لقد بذَلَت راوس الكثيرَ من الجهد خلال فترة وجودها هنا وحقَّقت نجاحًا، وهي تحظى بشعبية كبيرة بين تلميذاتها، وتتمتع بالمرونة الكافية للتوافق مع زميلاتها، كما أنها ودودة ولديها قدرةٌ على التكيف الذي تفتقر إليها إينيس بوضوح، لا يوجد سببٌ يمنعها من الذهاب إلى أرلينجهيرست مع توصيتي القوية.»

«إلا أنها غير أمينة.»

ألقت هنرييتا القلم بغضب على حامله مُحدِثةً ضجيجًا عاليًا.

قالت، وهي غاضبة ولديها إحساس بأنها على حق: «هذا مثالٌ على ما يتعيَّن على الأشخاص غير الجذابين التعامل معه. تعتقدين أن واحدة من بين الفتيات حاولت الغش في الامتحان، فأشرتِ بأصابع الاتهام إلى راوس. لماذا؟ لأنك لا تحبين مظهرها؛ أو تعبيراتها، على وجه الدقة.»

وعليه، بدا أنه لا فائدة من هذه المحادثة. فاستعدَّت لوسي للمغادرة.

«لا يوجد دليل حقيقي يؤكد أن الدفتر الصغير الذي عثرت عليه ملكٌ لطالبةٍ بعينها. لقد تذكَّرتِ فقط أنك لم يعجبكِ مظهر الآنسة راوس؛ لذا افترضتِ أنها هي المذنبة. إن

المذنبة — إذا كانت هناك مذنبة فسأشعر بالأسف لأن طالبة من طالباتي انخرطت في هذا الخداع — هي على الأرجح أجملُ فتاة في المجموعة وأكثرهن براءة. يجب أن تفهمي ما يكفي عن الطبيعة البشرية، وهي تختلف عن علم النفس، لتعرفي ذلك.»

لم تكن لوسي متأكدة مما إذا كان هذا التعليق الأخير، أم اتهامها بإلصاق التهم بالأشخاص غير الجذابين هو الذي جعلها غاضبة للغاية عندما وصلت إلى الباب.

قالت وهي تضع يدها على مقبض الباب: «هناك شيء آخر يا هنرييتا.»

«ما هو؟»

«لقد حصلت راوس على المرتبة الأولى في جميع اختباراتها النهائية حتى الآن.»

«حسنًا.»

«هذا غريب، أليس كذلك؟»

«لا، ليس غريبًا على الإطلاق؛ لقد عمِلَت بجِد.»

«لا يزال الأمر غريبًا؛ لأنه في المرة التي مُنعت فيها من استخدام الدفتر الأحمر الصغير، لم تتمكن حتى من الحصول على المرتبة الثانية.»

ثم أغلقت الباب خلفها بهدوء.

كانت تفكر: «لِأَدَعْها تفكر في ذلك.»

وبينما كانت تسير نحو الجناح، تحوَّل غضبها إلى حزن. كانت هنرييتا، كما قالت لوكس، صادقة، وكان الجدال معها عديم الجدوى. لقد كانت ذكية وذات عقل راجح إلى حدٍّ ما، ولكن كان لديها نوعٌ من الأستجماتزم العقلي، كما قالت الآنسة لوكس؛ ولا يمكن فعل أي شيء حيال ذلك. فلم تكن هنرييتا تظلم أحدًا عمدًا؛ لذلك لم يكن من الممكن إقناعها أو تخويفها أو تملُّقها لتعدِلَ عن قرارها. فكَّرت لوسي بشعور قريب من الرهبة في الحفل الذي كان من المفترض أن تذهب إليه قريبًا. كيف يمكنها مواجهة مجموعة من طالبات السنة النهائية، يتحدثن جميعًا عن أرلينجهيرست، ويحتفلن بإينيس ذات الحظ السعيد؟

كيف يمكنها مواجهةُ إينيس نفسها، بهذا البريق في عينيها؟ إينيس الفتاة «قريرة العين».

الفصل الحادي عشر

كانت وجبة العشاء في لايز هي الوجبة الرسمية خلال اليوم؛ إذ ترتدي طالبات السنة النهائية الثياب الحريرية الأنيقة، بينما ترتدي الطالبات الأُخريات الفساتين الخاصة بحضور مأدبة العشاء، أما في أيام السبت، عندما يغادر العديد من الطالبات المدرسةَ لقضاء بعض الوقت في لاربورو، يقِل الطابع الرسمي للحدث كثيرًا. فخلال مأدبة العشاء أيام السبت، تجلس الطالبات أينما يحلو لهن ويرتدين ما يرغبن من الثياب، في الحدود المُتعارَف عليها. وفي هذا المساء، مع نهاية أسبوع الامتحانات، قلَّ الطابع غير الرسمي عن المعتاد؛ إذ غادر العديد من الطالبات من أجل الاحتفال بنهاية الامتحانات في أماكنَ أخرى، وخطَّط عدد أكبر للاحتفال في المدرسة بعد العشاء. لم تكن هنرييتا حاضرةً — كان واضحًا أنها تتناول الوجبة في غرفتها — وتغيَّبت أيضًا السيدة لوفيفر لأسباب خاصة بها. أما فروكن ووالدتها، فكانتا في المسرح في لاربورو؛ لذلك وجدت لوسي نفسها تتقاسم الطاولةَ الرئيسية مع الآنسة لوكس والآنسة راج، الأمر الذي وجدته ممتعًا للغاية. ولم يذكر أحدٌ موضوعَ أرلينجهيرست المُلِح، كما لو أن بينهن اتفاقًا ضمنيًّا على ذلك.

قالت الآنسة لوكس، وهي تستخدم الشوكةَ لتُقلِّب بعناية الخضراوات غير المألوفة الموجودة في طبقها: «كنت أظن أنه في ليلة احتفالية كهذه ستقدِّم الآنسة جوليف طعامًا أشهى من هذه الفَضَلات.»

قالت راج وهي تأكل بنَهَم: «إنها لا تهتم بالطعام تحديدًا في ليالي الاحتفال. إنها تعرف جيدًا أن بالطابق العلوي يوجد ما يكفي من الطعام الشهي لإغراق سفينة حربية.»

«لسوء الحظ، هذا الطعام ليس لنا. لذا يجدُر بالآنسة بيم أن تُحضِر لنا بعض الطعام من الحفل عند مغادرتها.»

اعترفت راج: «في طريق عودتي من المباراة، اشتريت بعض الفطائر الصغيرة المحشوَّة بالكريمة من لاربورو. يمكننا تناول قهوتنا في غرفتِي والاستمتاع بوقتنا.»

بدت الآنسة لوكس وكأنها كانت تفضِّل أصابعَ البسكويت بالجبن، لكن على الرغم من طبيعتها الحاسمة، كانت شخصًا طيب القلب، فقالت: «أُقدِّر هذه اللفتة الطيبة منك.»

«كنت سأقترح ذلك في وقت سابق لو كنتُ أعرف أنك لن تذهبي إلى المسرح.»

قالت الآنسة لوكس: «المسرح تقليدٌ عفا عليه الزمن.»

سألت لوسي، متفاجئة مما قيل: «ألا تجدين المسرحَ ممتعًا؟» ففي رأيها، لا يزال المسرح يحمل جزءًا من عالم الطفولة السحري.

توقَّفت الآنسة لوكس عن تحديقها باشمئزاز في قطعة من الجزر وقالت متسائلة: «هل فكَّرتِ يومًا ماذا سيكون رأيك في المسرح إن كانت هذه هي المرة الأولى التي تذهبين فيها إليه، دون التأثُّر بحنين الطفولة وما شابه؟ هل كنتِ ستجدين حقًّا ظهور بعض الأشخاص الذين يرتدون ملابس مبهرَجة ويقفون على مقصورة مُضاءة أمرًا مسليًا؟ وماذا عن التقليد السخيف المُتمثل في الاستراحات ... التي كان الهدف منها في الأساس هو عرض الأزياء الخاصة بالحضور، أما الآن فالهدف منها هو زيادة مبيعات الحانة الموجودة داخل المسرح. ما وسيلة الترفيه الأخرى التي تسمح بمثل هذه الاستراحات التي لا مبرِّر لها؟ هل يتوقف المرء أثناء الاستماع إلى سيمفونية لتناول مشروب؟»

اعترضت لوسي قائلة: «لكن المسرح مُنظَّم بهذه الطريقة.»

«نعم. إنه، كما قلت، تقليد عفا عليه الزمن.»

أدَّى هذا الرد إلى شعور لوسي بشيء من خيبة الأمل، ليس بسبب ولعها بالمسرح، ولكن لأنها أساءت فهم شخصية الآنسة لوكس إلى حدٍّ كبير. كانت تظن أن تكون الآنسة لوكس مُولَعة بحضور العروض التجريبية في الضواحي الأقل ثراءً، التي تضم مسرحياتٍ تناقش أسباب مشكلات المجتمع وعواقبها.

قالت راج: «حسنًا، لقد كدت أن أذهب إلى المسرح الليلة، لمجرد رؤية إدوارد أدريان مرةً أخرى. لقد كنت مفتونة به بشدة أثناء سنوات دراستي. أتوقَّع أن يكون قد أفل نجمُه الآن. هل رآه أحد منكما من قبل؟»

«لم أرَه على خشبة المسرح. لقد اعتاد قضاءَ عطلته معنا في صباه.» مرَّرت الآنسة لوكس شوكة طعامها في كومة الطعام في طبقها مرةً أخرى وتوصَّلت إلى أنه لم يَعُد يوجد ما ترغب في أن تأكله.

«اعتاد قضاءَ عطلته في منزلك!»

«نعم، لقد كان زميل أخي في المدرسة.»

«يا إلهي، هذا لا يُصدق على الإطلاق!»

«وما الذي لا يُصدق في ذلك؟»

«أعني، لا أحد يتصور أن إدوارد أدريان شخصٌ عادي يعرفه الناس. مجرد تلميذ مثل غيره من التلاميذ.»

«طفل صغير غير لطيف إلى حدٍّ كبير.»

«أوه، حقًّا!»

«طفل صغير مقيت تمامًا. مشغول دائمًا بالنظر في المرآة. وماهر بدرجة ملحوظة في الحصول على أفضلِ ما هو متاح.» كانت نبرتها هادئة وتحليلية وموضوعية.

«أوه، كاثرين، أنتِ تدهشينني.»

«لم أقابل أحدًا قط لديه نفس موهبة تيدي أدريان في إلقاء المسئولية على عاتق غيره.»

«لكنه بالتأكيد لديه أنواعٌ أخرى من المواهب.»

«لديه مواهب أخرى، نعم.»

سألت راج، التي لا تزال مفتونة قليلًا من تلقي أخبار مباشرة عن شخص استثنائي: «هل ما زلتِ تقابلينه؟»

«مصادفة فقط. فبعد وفاة أخي، تخلَّينا عن منزل العائلة، ولم يَعد هناك أي تجمعات عائلية.»

«ولم تَرَيه من قبلُ على خشبة المسرح؟»

«لم أرَه قط.»

«ولَمْ تقومي حتى برحلة رخيصة بالحافلة لن تكلفك أكثرَ من ستة بنسات إلى لاربورو لمشاهدة مسرحيته الليلة.»

«لا، لم أفعل. فالمسرح، كما قلت، يصيبني بالملل إلى حدٍّ لا يوصف.»

«لكنها مسرحية لشكسبير.»

«حسنًا، مسرحية شكسبير. أفضِّل البقاء في المنزل وقراءة أعماله بصحبة دورين راج ونحن نتناول فطائرها الصغيرة المحشوة بالكريمة. لن تنسي يا آنسة بيم إحضارَ بعض الأطعمة لنا عندما تغادرين الحفل، أليس كذلك؟ سوف تقبل البروليتاريا الجائعة بامتنان أيَّ شيء. يمكنك إحضار حلوى المَعْكَرون، أو شوكولاتة مارس، أو برتقال ماوردي، أو بقايا شطائر، أو لفائف نقانق مهروسة ...»

وعدت لوسي: «سوف أجمع التبرعات. سوف أمرِّر قبعةً على الطالبات وأناشدهن بلطف قائلة: لا تنسوا هيئة التدريس.»

ولكن حماسة لوسي للحفل تضاءلت بينما كانت تُخرج زجاجة الشمبانيا من وسط الثلج الذائب في حوض الغسيل. فلا يمكن إنكار أن هذا الحفل سيجلب بعضَ المشقة. ولإضفاء مظهر احتفالي وعدم ترك أي انطباع بأنها أحضرت مشروبها الكحولي الخاص بها إلى الحفل، ربطت لوسي شريطًا ملوَّنًا حول عنق الزجاجة؛ والنتيجة كانت زجاجة شمبانيا تشبه في شكلها دوقةً ترتدي قبعة ورقية، لكنها لم تعتقد أن هذا التشبيه سيخطر ببال الطالبات. أما عن الملابس، فقد احتارت بين ارتداء ملابس غير رسمية تتناسب مع تجمُّعٍ تتكئ فيه الفتيات على الوسائد، رغبتِها في احترام مضيِّفاتها. فاختارت احترام الحدث بارتداء فستان رسمي، ووضع مساحيق تجميل بعناية شديدة. فإذا كانت أهواء هنرييتا قد انتقصت من بهجة هذا الحفل، فسوف تبذل لوسي كلَّ ما في وسعها لإضفاء البهجة.

كان واضحًا أن حفل ستيوارت لم يكن الوحيد الذي أقيم في لايز ذاك المساء، بسبب الضوضاء في الغرف الأخرى وحركة الطالبات ذهابًا وإيابًا وهن يحملن الغلايات. فاحت رائحة القهوة من الممرات، وتعالت الضحكات والمحادثات وتلاشت مع فتح الأبواب وإغلاقها. حتى إن الطالبات المستجدات يُقِمْن حفلاتهن الخاصة؛ فحتى إن كنَّ لم يحصلن على وظائفَ للاحتفال بها، فإنهن يحتفلن بإنهائهن أولى اختبارات نهاية العام. أدركت لوسي أنها نسيت أن تسأل فطيرة المكسرات عن اختبار علم التشريح النهائي. («قد تتحول نظرية اليوم إلى هراءٍ غدًا، لكن الترقوة تظل هي الترقوة أبدَ الآبدين.») عندما تمرُّ على لوحة الإشعارات مرةً أخرى عليها البحث عن اسم ديستيرو.

اضطُرت لوسي إلى طرقِ باب الغرفة رقم ١٠ مرتين حتى يصل الصوت إلى الداخل، ولكن عندما فتحت ستيوارت الباب بابتهاج وأدخلتها، أصابهن كلهن الخجل فجأةً، فوقفن بأدبٍ صامتات كالأطفال المهذَّبين.

بدأت ستيوارت الكلام قائلة: «نحن سعداء جدًّا بوجودك»، حتى لمحت ديكرز الزجاجة، فاختفت جميع الرسميات.

صرخت ديكرز: «زجاجة مشروب كحولي! لا أصدِّق عيني، زجاجة مشروب كحولي! أوه، أنتِ رائعة يا آنسة بيم!»

قالت لوسي: «آمُل ألا يكون ذلك مخالفًا للقواعد، لكن ذلك بدا حدثًا مناسبًا لاحتساء الشمبانيا»، متذكِّرةً النظرة الغريبة في عيني الآنسة جوليف التي لم تفهم معناها بعدُ.

قالت ستيوارت: «لدينا هنا مناسبة ثلاثية. إذ تحتفل ديكرز وتوماس أيضًا. إنها بالتأكيد مناسبة تستحق الاحتفال. لقد أحسنتِ إذ أحضرتِ الشمبانيا.»

قالت هاسيلت: «سيكون من غير المناسب شرب الشمبانيا في أكواب صغيرة.»

«حسنًا، بغض النظر، سنشربها الآن لفتح الشهية. نشرب الشمبانيا فقط أولًا. فليعطِني الجميع كئوسهن. تفضلي بالجلوس على الكرسي يا آنسة بيم.»

أُحضِر كرسي من الخيزران إلى الغرفة، ووُضِعَت عليه تشكيلة متعددة الألوان من الوسائد؛ وباستثناء الكرسي ذي السطح الصلب الموجود بجوار المكتب، كان هذا هو المقعد الوحيد في الغرفة؛ إذ أحضرت الفتيات الوسائد الخاصة بهن وجلسن متفرقات على الأرض في أرجاء الغرفة، أو ملتصقات ببعضهن على الفراش بارتياح، يشبهن في ذلك القططَ الصغيرة. كانت إحداهن قد غطَّت المصباح بمنديل حريري أصفر اللون؛ بحيث يحل ضوء ذهبي خافت محلَّ الضوء الساطع المعتاد. صنع الشفق وراء النافذة المفتوحة على مصراعيها خلفيةً زرقاء شاحبة ستتحول إلى خلفية مظلمة عمَّا قريب. كان الحفل شبيهًا بأي حفل طلابي حضرته لوسي أيام دراستها الجامعية، ولكن بدا هذا الحفل مُفعَمًا بالحياة أكثرَ من الحفلات التي حضرتها. هل كان ذلك بسبب ألوان الوسائد الأكثر بهجة؟ أو ربما بسبب قوام الحاضرات الجذاب، من دون الشعر الأشعث، والنظارات، وشحوب الوجه بسبب كثرة المذاكرة؟

لا، لم يكن الأمر كذلك بالطبع. لقد عرفت بالضبط السبب. وهو عدم وجود دخان سجائر في الهواء.

قالت توماس، وهي تجمع الكئوس الصغيرة من الحاضرات وتضعها على المفرش الذي يغطي المكتب: «لم تحضُر أودونيل بعدُ.»

قالت إحدى القرينات الأربع: «أتوقَّع أنها تساعد راوس في إقامة العارضة.»

قالت أخرى: «لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، هذا يوم السبت.»

وأضافت ثالثة: «حتى مدرِّبات اللياقة البدنية يأخذن استراحة أيام الأحد.»

وأضافت رابعة: «حتى راوس.»

سألت لوسي: «هل ما زالت الآنسة راوس تتدرَّب على الحركة الدورانية؟»

أجابت الفتيات: «أوه، نعم. سوف تستمر في ذلك حتى يوم العرض.»

«ومتى تجد الوقت لفعل ذلك؟»

«تذهب في الصباح بعد ارتداء ملابسها. قبل المحاضرة الأولى.»

قالت لوسي: «الساعة السادسة. هذا أمرٌ متعِب جدًّا.»

قالت الفتيات: «هذا ليس أسوأ من أي وقت آخر. فعلى الأقل تكونين في حالة انتعاش، لا يستعجلك أحد، وبمفردك تمامًا في صالة الألعاب الرياضية. علاوة على ذلك، هذا يكون الوقت الوحيد الممكن لفعل ذلك. إذ يجب إعادة العارضة إلى مكانها قبل بداية المحاضرة الأولى.»

قالت ستيوارت: «لم تَعُد مضطرة إلى فعل ذلك بعد الآن؛ فقد استعادت مهارتها. ولكنها تخشى فقدان هذه المهارة مرة أخرى قبل العرض.»

قالت ديكرز: «أتفهَّم ذلك، يا عزيزتي. فقط تخيَّلي إحساس الحماقة الشديد الذي تشعرين به إن كنتِ معلَّقَة على العارضة مثل قرد مريض، يحدق النخبة فيك، وفروكن ترمقك ببساطة بنظرة تسقط عليك كالسهم. عزيزتي، سيكون الموت أهونَ مخلِّص من هذا الموقف. إن كانت دوني ليست مع راوس لتساعدها كالمعتاد، فأين يمكن أن تكون؟ إنها الوحيدة التي لم تحضُر.»

قالت توماس: «مسكينة دون، فهي لم تجد وظيفة بعدُ.» توماس التي كانت ستصبح الأعلى منصبًا بين ثلاثة، شعرت بأنها محظوظة للغاية.

قالت هاسيلت: «لا تقلقن بشأن دون، فالأيرلنديون دائمًا ما يحالفهم التوفيق.»

لكن الآنسة بيم كانت تجول بناظريها في أرجاء الغرفة بحثًا عن إينيس، لكنها لم تكن موجودة. كما أن بو لم تكن موجودة.

لاحظت ستيوارت نظرةَ لوسي الزائغة، وأدركت السؤال الذي بداخلها، فقالت: «تريد بو وإينيس أن يبلغاكِ باعتذاريهما عن عدم تمكُّنهما من الحضور الليلة، كما تأمُلان أن تقبلي دعوتهما لحضور حفل آخر قبل نهاية الفصل الدراسي.»

قالت هاسيلت: «تنوي بو إقامة حفل لإينيس. ستفعل ذلك احتفالًا بحصولها على وظيفة أرلينجهيرست.»

قالت إحدى القرينات الأربع: «في واقع الأمر، كلنا نقيم حفلًا لإينيس.»

قالت الثانية: «إنه احتفالٌ عام.»

وأضافت الثالثة: «إنه في النهاية شرفٌ لمدرستنا.»

وقالت الرابعة، بنبرة إقرار وليس سؤالًا: «سوف تحضُرين هذا الحفل يا آنسة بيم، أليس كذلك؟»

أجابت لوسي: «هذا يسعدني جدًّا.» ثم حرصت على تغيير الموضوع وقالت: «لماذا لم تحضُر بو وإينيس؟»

قالت ستيوارت: «حضرت عائلة بو على حين غرة واصطحبت الفتاتين إلى المسرح في لاربورو.»

قالت توماس، دون أدنى قدرٍ من الغَيرة: «هذه هي حياة مَن يمتلكون سيارة رولز. فهم يتجوَّلون في أنحاء إنجلترا متى شاءوا. أما أهلي، فإن أرادوا التنقُّل من مكان لمكان، فعليهم ركوب الفرس الرمادي العجوز، أو بالأحرى الجواد البني، والسفر نحو ٢٠ ميلًا حتى يتمكنوا من الوصول إلى أي مكان.»

سألت لوسي وهي تتخيَّل الطريق الضيق المعزول الذي يتعرج عبر محيط مُقفِر في ويلز: «أهم مزارعون؟».

لا، والدي رجل دين. لكننا نحتاج إلى حصان لرعاية الأرض، ولا يمكننا تحمُّل تكلفة امتلاك حصان وسيارة معًا.»

قالت إحدى القرينات الأربع، وهي تجلس بارتياح أكبر على الفراش: «أوه، حسنًا، ومَن يريد الذهاب إلى المسرح على أي حال؟»

وأضافت الثانية: «إنها طريقة مملة لقضاء أمسية.»

وقالت الثالثة: «تجلسين وركبتاك ملتصقتان في ظهر الشخص الذي أمامك.»

وقالت الرابعة: «ونظارات الأوبرا ملتصقة في عينيك.»

تساءلت لوسي، متفاجئة من أن نظرة الآنسة لوكس للمسرح هي نفسها نظرة مجموعة من الفتيات اليافعات اللاتي لم يمحُ فيها التكلُّف نهمَهن للترفيه بعد: «لماذا يرتدي الحاضرون نظارات الأوبرا؟»

«ماذا سترين من دونها؟»

«دُمًى صغيرة تتجول في صندوق.»

«مثل تلك التي في المسارح على الرصيف البحري الترفيهي في برايتون.»

«باستثناء أنه في مدينة الملاهي تلك، يمكنك رؤية التعبيرات على الوجوه.»

اعتقدت لوسي أن القرينات الأربع أنفسهن يشبهن إلى حدٍّ ما دُمى برايتون. كن مثل الشخصيات الخيالية التي تؤدي دورًا. نسخة أخرى من تويدلدوم وتويدلدي. بدا أنهن يتحدثن فقط عندما تتكلم إحداهن؛ حينئذٍ تشعر الأخريات أنهن ملزمات بتقديم أدلة داعمة على ما قالته إحداهن.

قالت هاسيلت: «أنا أشعر بالامتنان لمجرد الاسترخاء وأخذ قسط من الراحة على سبيل التغيير. أنا أستخدم زوجًا جديدًا من أحذية الباليه من أجل العرض، وتقرحات قدمي مستفحلة.»

قالت ستيوارت، نقلًا عن شخص آخر كما هو واضح: «على الطالبة يا آنسة هاسيلت أن تُبقي جسدها في حالة لائقة في جميع الأوقات.»

أجابت هاسيلت: «قد يكون هذا صحيحًا، لكن ليس لديَّ أيُّ نية لتحمُّل مشقة القيام برحلة في حافلة لمسافة خمسة أميال في ليلة السبت للذهاب إلى أي مكان، وخاصة المسرح.»

قالت ديكرز: «على أي حال، ما هي إلا مسرحية لشكسبير يا عزيزاتي.» صاحت وهي تمسك بصدرها: «تلك هي العلة يا نفسي!»

قالت لوسي، وهي تشعر أنه حريٌّ بأحد أن ينتصر للمسرح الذي تحبه: «ولكن بطلها هو إدوارد أدريان.»

سألت ديكرز بصدق: «مَن هو إدوارد أدريان؟»

قالت ستيوارت: «إنه ذلك الرجل الذي يبدو مُنهَكًا ويشبه نَسْرًا متساقط الريش»، قالت ذلك وهي منشغلة بواجبات الضيافة، بحيث لم تلاحظ ردةَ فعل لوسي: لقد كان وصفًا قاسيًا وواضحًا لإدوارد أدريان في العيون غير المُقَدِّرة للعواطف لشباب اليوم. وأردفت ستيوارت: «اعتدنا مشاهدةَ عروضه عندما كنت في المدرسة في إدنبرة.»

سألت لوسي: «وهل استمتعتِ بالعرض؟» متذكِّرةً أن اسم ستيوارت ظهر أعلى القائمة على لوحة الإشعارات إلى جانب أسماء إينيس وبو، ومدركةً أن النشاط العقلي قد لا يكون مرهقًا لها كما هو في الغالب بالنسبة إلى الأخريات.

اعترفت ستيوارت: «أوه، كان أفضل من الجلوس في الفصل. لكنه كان نشاطًا باليًا. من الجميل مشاهدته، ولكنه مملٌّ بعض الشيء. توجد كأس ناقصة.»

قالت أودونيل، وهي تدخل الغرفة وتعطي ستيوارت كأسها: «أعتقد أنها كأسي. أعتذر من تأخُّري. كنت أبحث عن زوج من الأحذية يناسب قدميَّ. اعذريني في ارتدائي هذه يا آنسة بيم»، وأشارت إلى خُفِّ حجرة النوم الذي كانت ترتديه. وأردفت: «إن قدميَّ تؤلمانني.»

سألتها لوسي: «هل تعرفين مَن هو إدوارد أدريان؟»

أجابت أودونيل: «بالطبع أعرفه. لقد كنت من أشد المعجبين به منذ أن رأيته يؤدي دورًا في بِلفاست، عندما كنت في الثانية عشرة من عمري.»

«يبدو أنك الشخص الوحيد في هذه الغرفة الذي يعرفه أو يُعجب به.»

قالت أودونيل «آه، الفتيات غير الراقيات»، وهي تنظر بازدراء إلى بقية الفتيات، ولاحظت لوسي أن عينَي أودونيل بدتا لامعتين لمعانًا غير عادي، كما لو كانت تبكي. وأردفت أودونيل: «لو كان لديَّ ما يكفي من المال لشراء تذكرة للمسرح، ولم نكن في نهاية الفصل الدراسي تقريبًا، لكنت الآن تحديدًا في لاربورو جالسةً في الصفوف الأولى.»

وإذا كنتِ — أكملت لوسي في ذهنها وهي مشفقة على الفتاة — لن تشعري أنه سيُقال إن كونك الطالبة الوحيدة التي لم تحصل على وظيفة بعدُ هو سبب تغيُّبك عن الحفل. أُعجبت لوسي بالفتاة التي جفَّت دموعها، واستخدمت خُفَّ غرفة النوم عذرًا، وحضرت حفلًا ليس بحفلها بروح مبهجة.

قالت ستيوارت، وهي منشغلة بإزالة سلك الفلين: «حسنًا، الآن، وبعد أن جاءت أودونيل، نستطيع فتح الزجاجة.»

صاحت أودونيل: «يا إلهي، شمبانيا!».

وسُكب النبيذ في الكئوس الصغيرة السميكة، وتحولت كل الأنظار إلى لوسي في ترقُّب.

قالت لوسي: «في صحة ستيوارت في اسكتلندا، وتوماس في ويلز، وديكرز في لينج آبي.»

وشربن الشمبانيا.

وأضافت ستيوارت: «وفي صحة كل أصدقائنا بين كيب تاون ومانشستر.»

وشربن مرةً أخرى.

«والآن، ماذا تحبين أن تأكلي يا آنسة بيم؟»

جلست لوسي لتستمتع بوقتها. لن تحضُر راوس الحفلَ؛ وبفضل التدخل الإلهي المُتمثل في أبوين ثريَّين يمتلكان سيارة رولز رويس، ستستريح من موقف عصيب مُتمثل في الجلوس مقابل إينيس التي امتلأ قلبها بسعادة لم تعرف بعدُ أنه لا مبرر لها.

الفصل الثاني عشر

ولكن بحلول ظهر يوم الأحد، كانت سعادة لوسي قد تلاشت، وتمنَّت لو أنها كانت تعلم ما سيحدث فتدَّعي ارتباطها بميعاد على الغداء في لاربورو، وبذلك تكون قد أبعدت نفسها عن الانفجار الوشيك. فلطالما كرهت لوسي الانفجارات، سواء كانت حقيقية أم مجازية؛ كانت لوسي تبغض هؤلاء الأشخاص الذين ينفخون في الأكياس الورقية ثم يفجرونها وترتعب منهم. وانفجار الكيس الورقي الذي يوشك أن يحدُث بعد الغداء أمرٌ مقيتٌ على وجه الخصوص؛ فسيكون لذلك الانفجار عواقبُ لا تنتهي وغير متوقَّعة. وكان في أعماق لوسي بصيصٌ من الأمل بأن تكون هنرييتا قد غيَّرت موقفها؛ وأن تكون درجات الفتيات الموجودة على لوحة الإشعارات شاهدًا أبلغ في صمته من كلمات لوسي الواهنة. ولكن لا يوجد أي قدْر من التشجيع من شأنه أن يجعل هذا الأمل حقيقة. وتذكَّرت لوسي بوضوح أنَّ تزعزُع ثقةِ هنرييتا براوس ليس معناه انتقال هذا الإيمان إلى إينيس وحصولها على الوظيفة بدلًا من راوس. وكان أفضل ما يمكن أن تأمله لوسي هو كتابة هنرييتا خطابًا إلى مديرة أرلينجهيرست تخبرها فيه بعدم وجود أي طالبة من طالبات السنة النهائية تمتلك الكفاءة الكافية لشغل منصب مرموق كهذا؛ وهذا لن يفيد في حماية إينيس من الأسى الذي هو في طريقه إليها. لا، كان يجدُر بلوسي حقًّا ألا تكون موجودةً في لايز وقت غداء يوم الأحد، وأن تعود حينما ينتهي كل شيء. فمن المفترض حتى في لاربورو وجود أشخاص يمكن للوسي مقابلتهم. فبين الفيلات الفخمة الموجودة في الضواحي، بشوارعها الرملية الممهَّدة ومظهرها الزائف وتلوث المدينة، حتمًا هناك أشخاص مثلها. إذ يوجد بالتأكيد أطباء، على سبيل المثال. وكان بإمكانها أن تدعي وجودَ صديق هناك يعمل طبيبًا؛ إلا أن أسماء الأطباء مدرجة في الدليل. لو كانت تمكَّنت من التفكير في الوقت المناسب، لكان بإمكانها دعوة

نفسها على الغداء مع الدكتورة نايت؛ ففي النهاية، الدكتورة نايت تَدين للوسي بالكثير. أو لكان بإمكانها أخذُ بعض الشطائر والتنزُّه في الريف وعدم العودة إلا في موعد النوم.

والآن هي تجلس على المقعد المجاور للنافذة في غرفة المعيشة في انتظار عضوات هيئة التدريس للتجمُّع هناك، ومن ثَمَّ النزول إلى غرفة الطعام؛ كانت تشاهد الطالبات وهن في طريق العودة من الكنيسة، وتتساءل في نفسها إن كان لديها الشجاعة الكافية والحسم للبحث الآن عن الآنسة جوليف وطلب بعض الشطائر؛ أو حتى مجرد الخروج من المدرسة دون التفوه بشيء؛ ففي النهاية، لن يموت أحد جوعًا في الريف الإنجليزي حتى في أيام الأحد؛ فكما قالت ديستيرو، إنه توجد قرًى في كل مكان في الريف الإنجليزي.

كانت ديستيرو هي أول مَن عاد من الكنيسة؛ كانت هادئة البال ومتأنقة كعادتها. فمالت لوسي من النافذة وقالت لها: «مبارك لكِ نجاحك في الاختبار الذي يقيس معلوماتك عن الترقوة.» فقد ألقت لوسي نظرةً على لوحة الإشعارات وهي ذاهبة لتخلد إلى النوم الليلة الماضية.

قالت فطيرة المكسرات: «نعم، لقد تفاجأت بهذا. ستسعد جَدتي لهذا أيما سعادة. فأن تكوني الأولى أمرٌ رائع، أليس كذلك؟ لقد تفاخرتُ بذلك أمام ابن عمي، وقال لي إن ذلك غير لائق اجتماعيًّا. ففي إنجلترا يجدُر بنا الانتظار حتى نُسأل عن إنجازاتنا.»

قالت لوسي بحزن موافقةً إياها: «صحيح. وأسوأ ما في الأمر هو أن القليل فقط هم مَن يسألون. فعدد المواهب الخفية في بريطانيا العظمى ضخم للأسف.»

صحَّحت ديستيرو ما قالته لوسي قائلة: «ليس في بريطانيا العظمى. يقول ابن عمي إن التفاخر أمرٌ مقبول في المنطقة التي تقع شمال نهر تويد. وهو النهر الواقع بين إنجلترا واسكتلندا. يمكنك التفاخر في دنبار، ولكن ليس في بيرويك، هذا ما يقوله ريك.»

قالت لوسي: «تسرُّني مقابلة ريك.»

«على ذكر ريك، إنه يعتقد أنك رائعة.»

«أنا؟»

«لقد تحدَّثت معه عنكِ. وقضينا فترات الاستراحة في المسرح ونحن نتحدث عنكِ.»

«أوه، ذهبتما إلى المسرح، أليس كذلك؟»

«هو مَن ذهب. وأخذني معه إلى هناك.»

سألت لوسي وهي تُشيد في عقلها بذلك الشاب الذي نجح في جعل فطيرة المكسرات تفعل شيئًا لم تودَّ فعله: «ألم تستمتعي بوقتك هناك إذن؟»

«أوه، إنه كما يقولون، ليس سيئًا للغاية. فالقليل من الأنشطة الراقية مطلوب على سبيل التغيير. مشاهدة الباليه سيكون أفضل. إنه راقص بالفطرة.»

«إدوارد أدريان؟»

«نعم.» وبدا ذهنها يشرد بعيدًا. وأردفت متأملة: «يرتدي الإنجليز القبعات بالطريقة نفسها. مرتفعة من الخلف ومنخفضة من الأمام.»

قالت ديستيرو هذا التعليق غير ذي الصلة ثم أكملت طريقها حول المبنى، تاركةً لوسي تتساءل في نفسها عما إذا كان هذا التعليق سببه جمهور الليلة السابقة الذي رأته ديستيرو، أم ظهور ديكرز في بداية الممر. كانت قبعة ديكرز التي ترتديها أيام الأحد بالطبع ما هي إلا قبعة شبيهة بتلك التي كانت ترتديها لوسي في المدرسة، لكنها أكثر أناقة، وتحت حافتها القصيرة بدا وجهها الطويل المحبَّب والمرِح أصغر سنًّا. وخلعت ديكرز قبَّعتها بإيماءة عندما رأت الآنسة بيم، وأعربت عن سعادتها الشديدة بالعثور على لوسي حيةً وبصحة جيدة بعد الصعاب التي واجهتها الليلة السابقة. يبدو أن هذا هو أول صباح طوال مسيرتها في لايز لا تستطيع فيه، لحسن الحظ، تناولَ شريحة خامسة من الخبز والمربى.

قالت ديكرز: «الشراهة هي واحدة من الخطايا السبع المميتة، لذلك كنت بحاجة إلى الاعتراف هذا الصباح. فذهبت إلى الكنيسة المعمدانية لأنها الأقرب.»

«وهل تشعرين أنك في حِلٍّ من هذه الخطيئة؟»

«لا أستطيع أن أقول ذلك، بما أنك سألتِ. كان الأمر كله مجرَّد دردشة ودية.»

أدركت لوسي أن الضمير المذنب يسعى إلى إقامة الطقوس ليكفِّر بها عن خطاياه.

«أتفهَّم أنها كانت دردشة ودية.»

«أوه، بالتأكيد. بدأ الكاهن خُطبته بالاعتماد على مرفق واحد قائلًا: «حسنًا، يا أصدقائي، إنه يوم رائع جدًّا.» وتصافح الجميع بعد القُداس. وأضافت، بعد أن فكَّرت في الأشياء التي نالت استحسانها: «كما غنَّوا بعض الترانيم القوية.» وتوقَّفت عن الكلام لحظة، غارقةً في التفكير، ثم قالت: «توجد كنيسة الإخوة البورتسموث على طريق لاربورو ...»

صحَّحت لوسي: «بليموث.»

«بليموث ماذا؟»

«أعتقد أنك تعني كنيسة الإخوة البليموث.»

«أوه، صحيح، كنت أعلم أن له علاقة بالبحرية. وأنا أميل إلى بورتسموث. حسنًا، أعتقد أنني سأزورهم يوم الأحد المقبل. هل تعتقدين أن الكنيسة غير متاحة للعامة أو أي شيء من هذا القبيل؟»

لم تعتقد الآنسة بيم ذلك، ولوَّحت ديكرز بقبعتها في إيماءةِ وداعٍ مسرحيةٍ قبل مواصلة رحلتها حول المبنى.

عادت الطالبات بمفردهن أو في ثنائيات أو في مجموعات صغيرة بعد انتهاء الساعة المقرَّر قضاؤها خارج الكلية. وقد لوَّح بعضهن وألقت أخريات التحية، بينما اكتفى البعض الآخر بالابتسام، كلٌّ حسب شخصيتها. وحتى راوس، قالت «صباح الخير يا آنسة بيم!» وهي تمر بجانبها. وكانت بو وإينيس آخر مَن وصل تقريبًا؛ إذ كانتا تمشيان الهوينا وتبدوان هادئتين ومرتاحتين. وتوقفتا عن المشي أسفل النافذة ونظرتا للأعلى إليها.

صاحت بو، وهي تبتسم للوسي: «فتيات غير راقيات!»

قالتا إنهما تشعران بالأسف لعدم حضورهما الحفل، وإنه ستكون هناك المزيد من الحفلات.

قالت بو: «سأقيم حفلًا بعد انتهاء العرض. ستأتين، أليس كذلك؟»

«يسعدني ذلك. كيف كانت تجربة الذهاب إلى المسرح؟»

«كان من الممكن أن تكون أسوأ. جلسنا خلف كولين باري.»

«ومَن هو كولين باري؟»

«نجم خط وسط منتخب إنجلترا للهوكي.»

«وقد جعل وجوده تجربةَ مشاهدة عُطيل أكثرَ متعة.»

«لقد جعل وجوده بالتأكيد فتراتِ الاستراحة أكثر متعة.»

«ألم تريدا مشاهدة عطيل؟»

«ليس نحن مَن أراد مشاهدتها! كنا نتوق إلى مشاهدة فيلم إيرما أيرلاند الجديد «الحواجز المشتعلة» (فليمينج باريرز). يبدو من اسم الفيلم أن به مشاهدَ نيران مهولة، ولكنها في الحقيقة نيران عادية في الغابة. ولكن مفهوم أبويَّ عن قضاء المساء بالخارج هو الذهاب إلى المسرح والتهام صندوق شوكولاتة في فترات الاستراحة. ولم نشأ إحباط هؤلاء الكبار.»

«هل استمتعا بالمسرحية؟»

«أوه، لقد أحبَّاها. وأمضيا العشاء بأكمله يتحدثان عنها.»

قالت لوسي: «من حقكما إذن أن تقولا عن الفتيات الأخريات إنهن غير راقيات.»

قالت بو: «انضمِّي إلينا بعد ظهر اليوم في حفل الشاي الخاص بطالبات السنة النهائية.»

وسرعان ما ادَّعت لوسي أن لديها خططًا أخرى لتناول الشاي.

نظرت بو إلى وجهها الذي بدا عليه الشعور بالذنب بشيء من الاهتمام، لكن إينيس قالت بجدية: «كان يجدُر بنا أن نسألك في وقت سابق. أنت لن تغادري قبل العرض، أليس كذلك؟»

«سأحاول جاهدةً ألا أرحل قبل العرض.»

«إذن ستأتي لتناول الشاي معنا الأحد القادم؟»

«أشكرك. يسعدني ذلك إن بقيت هنا.»

قالت بو: «هذا ما تعلمناه في آداب السلوك.»

وقفت الفتاتان على الحصى، تنظران إلى الآنسة بيم وعلى وجهيهما ابتسامة. هذه هي الهيئة التي تتذكَّرهما دائمًا عليها. واقفتان هناك في ضوء الشمس، مرتاحتا البال وجميلتان، مؤمنتان أن العالم خَيِّر وواثقتان إحداهما بالأخرى. لا يساورهما شك ولا تعتريهما النقائص. كانتا واثقتين أن الحصى الدافئ تحت أقدامهما أرضٌ صلبة، وليست حافة الهاوية.

أعاد رنينُ الجرس الذي استمرَّ خمس دقائق الفتاتين إلى الواقع. وعندما بدأتا في التحرك، دخلت الآنسة لوكس الغرفة من خلف لوسي، وكانت هذه هي المرة الأولى التى تراها فيها لوسي بهذا التجهُّم.

قالت: «لا أستطيع أن أفهم سببَ وجودي هنا. لو كنت قد فكَّرت في الوقت المناسب، لما شاركت في هذه المهزلة البائسة على الإطلاق.»

قالت لوسي إن ذلك هو ما كانت تفكِّر فيه بالضبط.

«أعتقد أنه لا توجد أي أخبار عن تغيير الآنسة هودج موقفَها، أليس كذلك؟»

«لا توجد أخبار على حد علمي. وهذا للأسف أمرٌ غير محتمَل.»

«من المؤسف أننا لم نخرج جميعًا لتناول طعام الغداء في أي مكان آخر. فإن نادت الآنسة هودج اسم راوس وهي تجلس على طاولة فارغة تمامًا، فعلى الأقل سيعرف الجميع أننا لسنا جزءًا من هذه المهزلة.»

«لولا اضطُرارنا إلى وضع علامة بجانب اسمنا على اللوح قبل الحادية عشرة، لغادرت الآن، لكنني أفتقر إلى الشجاعة.»

«أوه، حسنًا، ربما يمكننا التعبير عن رفضنا من خلال تعبيرات الوجه، وإظهار أننا نرفض الأمر برُمَّته.»

أدركت لوسي أن ما يزعج الآنسة لوكس هو الحضور وتأييد القرار الذي اتخذته هنرييتا؛ أما هي، فقد أرادت فقط الهروب من هذا الموقف السيئ على غرار الأطفال. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تتمنى فيها لوسي أن تمتلك شخصية أقوى.

دخلت السيدة لوفيفر إلى الغرفة في خفة، مرتديةً فستانًا حريريًّا أنيقًا بلون الكاكاو البُني يتحول إلى الأزرق المعدني في الضوء؛ الأمر الذي جعلها تشبه، أكثرَ من ذي قبل، أحدَ الأنواع العجيبة لحشرة اليعسوب. وبالطبع، كان ذلك جزئيًّا بسبب عينيها البارزتين؛ وبدا مظهرها وكأنها لَقطة مقرَّبة لحشرة من الحشرات التي تظهر في الأفلام القصيرة التي نتذكرها جزئيًّا عن الطبيعة؛ وخلقت عيناها، إلى جانب جسدها النحيل البارز العظم والرشيق في الوقت نفسه الذي يكسوه اللون البني، هذا التأثير. يبدو أن السيدة لوفيفر، بعد أن تغلَّبت على غضبها الأوَّلي، قد استعادت ازدراءها العقلاني للجنس البشري، وكانت تنظر إلى الموقف بخليط من النفور الماكر والاستمتاع البسيط.

وعلَّقت قائلة: «بما أنني لم أحضُر من قبل إحدى مناسبات السهر بجوار جثة أحد الأموات، فإنني أتُوق شوقًا إلى مشاهدةِ ما سيحدث اليوم.»

أجابت الآنسة لوكس، دون إبداء أي مشاعر كما لو كانت يائسة للغاية بحيث لا تهتم كثيرًا: «أنتِ قاسية. ألم تفعلي أيَّ شيء لتُثْنيها عن قرارها؟»

«أوه، نعم، لقد قاتلت مع قوى الظلام. قاتلت ببسالة. ويجب أن أقول إنني أيضًا كنت مقنِعة جدًّا. أستخدم الأمثلة والوصايا. وهذا ذكَّرني بالذي حُكم عليه بدفع حجر ضخم إلى قمةِ تل مرتفع إلى الأبد، مَن كان هذا؟ من اللافت للنظر مدى ملاءمة هذه الحكايات الأسطورية لواقعنا الآن. أتساءل عما إذا كانت رقصة الباليه التي تصوِّر العقوبات ستعود بالنفع. تنظيف الإسطبلات وما شابه ذلك. ربما موسيقى باخ. على الرغم من أن موسيقى باخ ليست ملهِمة من وجهة نظر مصمِّمي الرقصات. بالطبع، سينتقد الكثير من الناس أيَّ شخص يستغل آخر.»

قالت لوكس: «أوه، كُفِّي عن هذا. نحن سنشارك في ظلمٍ بيِّن، وأنت تفكرين في تصميم الرقصات!»

«عزيزتي كاثرين، أنتِ جادةً أكثرَ من اللازم، عليك أن تتعلمي قبولَ الحياة كما هي، وأن تنأَي بنفسك عمَّا لا يمكنك تغييره. وكما تقول الحكمة الصينية: عندما يحدث شيء كريه لا مفر منه، استرخِ واستمتع به. نحن سنشارك في ظلم بيِّن، كما وصفتِه ببلاغة. وهذا صحيح. ومع ذلك، كأفراد أذكياء، فإنه يجدُر بنا أن نفكر في عواقب هذا القرار. سيكون

من المثير للاهتمام ملاحظة ردِّ فعل إينيس الصغيرة، على سبيل المثال، تجاه هذه الصدمة. هل ستكون مدمِّرة لها، هل ستدفعها إلى فعل شيء، هل ستدفعها إلى فعل شيء جنوني غير متوقَّع؟»

«كُفِّي عن هذا. كل هذا هراء، وأنتِ تعلمين ذلك. إن الشيء الكريه سيحدث لأحدٍ غيرنا ومطلوب منا أن نؤيد ذلك، وعلى حد علمي، لا يوجد أيُّ تعاليم في تاريخ الفلسفة، الصينية أو غيرها، يوصي بذلك.»

قالت فروكن وهي تدخل إلى الغرفة وخلفها والدتها: «شيء كريه؟» وأردفت: «مَن التي سيحدث لها شيء كريه؟»

أجابت لوكس دون مشاعر: «إينيس.»

«أوه.» اختفى البريق من عينَي فروكن، فأصبحت فاترةً وشاحبة. ثم قالت بتفَكُّر: «نعم. نعم.»

بدَت فرو جوستافسِن مضطربةً بوجهها المستدير الذي يشبه في قلقه وجه امرأة نوح. كانت تقلِّب بصرها بين الحاضرين، كما لو كانت تبحث عن بصيصٍ من الطمأنينة، أي إشارة على إمكانية حل المشكلة. واقتربت من لوسي، التي كانت جالسةً على المقعد بجوار النافذة، وخفَّضت رأسها وحيَّتها سريعًا، وقالت باللغة الألمانية:

«أنتِ على علم بما تفعله المديرة؟ ابنتي غاضبة جدًّا. إنها غاضبة جدًّا بالفعل. لم أرَها غاضبة هكذا منذ أن كانت طفلة صغيرة. هل ما يحدث خطأ كبير؟ أهذا هو رأيك أنتِ أيضًا؟»

«نعم، للأسف هذا رأيي.»

«إن الآنسة هودج امرأة صالحة للغاية. وأنا معجبة بها بشدة. ولكن عندما ترتكب المرأة الصالحة خطأً، فإن الأمر يكون أسوأ من ارتكاب امرأة سيئة خطأً. خطأ أكثر فداحة. إنه أمر مؤسف.»

وافقت لوسي على ذلك قائلة: «إنه أمر مؤسف للغاية.»

فتحت هنرييتا باب الغرفة ودخلت تتبعُها راج التي يبدو عليها القلق. بدت هنرييتا هادئة، وإن كانت أكثر رسمية قليلًا عن المعتاد (أو مما يتطلبه الموقف)، لكن راج ألقت ابتسامة استرضائية على الجميع، كما لو كانت تتوسَّل لهن لتهدئة الأوضاع فيما بينهن والتركيز على الجانب الإيجابي. لقد أزعجها عداؤهن المستتر، ونظرت إلى السيدة لوفيفر، التي كانت راج رهن إشارتها في المعتاد، نظرةَ مَن يطلب شيئًا. ولكن السيدة لوفيفر كانت تنظر إلى هنرييتا بعينيها الواسعتين نظرةً تهكُّمية.

تمنَّت هنرييتا للجميع صباحًا سعيدًا (كانت قد تناولت وجبة الإفطار بالفعل في غرفتها)، وكان توقيت دخولها مدروسًا؛ لأنه بمجرد انتهائها من إلقاء التحية، أشار صوت الجرس البعيد إلى أن الوقت قد حان لاتخاذ إجراء، وليس الانخراط في محادثة.

قالت هنرييتا: «أعتقد أن الوقت قد حان للنزول إلى الطابق السفلي»، وخرجت هي أولًا لتتبَعها الأخريات.

نظرت السيدة لوفيفر إلى لوكس نظرةَ إعجاب بهذه المناورة الاستراتيجية، وتبِعتها.

قالت لوكس للوسي بينما كُنَّ ينزلن على الدَّرج: «إنها إحدى مناسبات السهر بجوار جثة أحد الأموات بالتأكيد!».

«إنه أكثرُ شبهًا بفوزورينجي.»

بدا لخيال لوسي المضاعف أن الصمت المهيب الذي كان في انتظارهن في قاعة الطعام مملوء بالترقُّب، وبالتأكيد بدت الطالبات أثناء تناول الوجبة متحمساتٍ أكثر من أي وقت رأتهن فيه. ومع وصول الثرثرة إلى ذروتها، أرسلت هنرييتا، التي أصبحت على درايةٍ بمحيطها في الفترة بين تناولها لطبق اللحم وانتظار البودنج القادم، برسالة عن طريق راج إلى بو تطلب من الطالبات التزامَ الهدوء.

للحظة وجيزة، التزمت الطالبات الهدوء بالفعل، لكنهن سرعان ما نسين واستأنفن الحديث والضحك بصوتٍ عالٍ.

قالت هنرييتا بتساهل «إنهن متحمسات لأن أسبوع الامتحانات قد انتهى»، وتركَتْهن.

كانت هذه مساهمتها الوحيدة في المحادثة — لا تتحدث مطلقًا أثناء تناول الطعام — ولكن راج استجمعت شجاعتها لتشارك ببعض التعليقات البديهية بين الحين والآخر، وهي تنظر بأمل إلى الوجوه الجادة الجالسة حول الطاولة، مثل جَروٍ يُقدم بفخرٍ عظْمةً عند قدميك. تكاد ترى ذيلها يهتز. ستكون راج أداةَ الإعدام البريئة، النصل السلبيّ في المقصلة، وقد فهمَت دورها واعتذرت عنه بصمت. بدت وكأنها تقول: بحق السماء، أنا لاعبة الجمباز المبتدئة من بين هذه المجموعة، وليس ذنبي أنني يجب أن أكون طوعَ أمرها؛ ماذا تتوقعن مني أن أفعل؟ أُخبِرها أن تعلن الخبر اللعين بنفسها؟

شعرَت لوسي بالأسف تجاه راج، على الرغم من أن تعليقاتها البديهية جعلتها تريد الصراخ. أرادت أن تقول لها أغلقي فمك، من فضلك أغلقي فمك؛ ففي مثل هذه المواقف، الصمت هو أفضل شيء.

وأخيرًا، طوت هنرييتا منديلها، وفحصت الطاولة للتأكد من أن جميع عضوات هيئة التدريس قد فرغن من تناول الطعام، ووقفت. وبينما وقفت عضوات هيئة التدريس معها،

وقفت الطالبات في خفة، وكأنهن جسدٌ واحد، وهو أمر نادر. كان من الواضح أنهن كن في انتظار هذه اللحظة. والتفتت لوسي لتنظر إليهن رغمًا عنها؛ إلى صفوفٍ من الوجوه المتلهِّفة والمشرقة، اللاتي يبتسمن نصف ابتسامة من الشوق؛ لم يهدِّئها كونهن مستعدات للابتهاج لأوهنِ سبب.

عندما استدارت هنرييتا نحو الباب وخرج عضوات هيئة التدريس خلفها، واجهت راج الحشدَ المبتهج وقالت ما أُملي عليها.

«على الآنسة راوس التوجه لمكتب الآنسة هودج بعد الانتهاء من تناول وجبة الغداء.»

الفصل الثالث عشر

لم تعُد لوسي ترى وجوه الفتيات، لكنها شعرت أن الصمت تحوَّل فجأة إلى جمود. أصبح أجوَفَ وبلا حياة. كان الأمر أشبه بالفرق بين سكون يوم صيفي يُسمع فيه بوضوح تغريدُ الطيور وحفيفُ أوراق الشجر، ويداعب فيه النسيمُ العشبَ، وبين جمود إحدى المناطق القاحلة بالقطب الشمالي المتجمد. وبعد ذلك، بدأت الطالبات يهمسن في الفراغ المفتقر للحياة، بمجرد وصول عضوات هيئة التدريس إلى الباب؛ إذ كن يُردِّدن الاسم الذي قيل التوَّة.

«راوس!» أخذن يردِّدن: «راوس!»

وعندما خرجت لوسي إلى ضوء الشمس الدافئ، سرَت في جسدها قشعريرة. لقد ذكَّرها الصوت الذي سمِعته بقِطع جليد تجرفها رياح عاصفة على سطح جليدي. حتى إنها تذكَّرت أين رأت هذه القِطع الصغيرة وسمِعت صوتها؛ كان ذلك يوم عيد الفصح الذي قضَته في سبيسايد، عندما فاتتهم الحافلة الذاهبة إلى جرانتاون، وكانوا بعيدين عن البيت واضطُروا إلى السير مسافةً طويلة تحت سماء داكنة ووسط رياح عاصفة، في عالمٍ يملؤه الجليد. عند عبورها الفِناء المشمس إلى البوابة الرباعية الأضلاع، شعرت بأنها بعيدة عن بيتها الآن، وبدت السماء لها في الأعلى داكنةً مثل السماء في هايلاند أثناء عاصفة مارس. وتمنَّت للحظة لو أنها كانت في بيتها، تجلس في غرفة المعيشة الصغيرة الهادئة الخاصة بها، مستقرةً في سلام لا ينقطع بعد ظهر يوم أحد، لا يشغل بالها أيٌّ من المشكلات الإنسانية، ولا تتأثر بأحزان غيرها. وفكَّرت في اختلاق عذرٍ لمغادرة لايز عندما تتلقى بريد الصباح في اليوم التالي، ولكنها ظلَّت تنتظر بفارغ الصبر مثل الطفلة حضورَ العرض يوم الجمعة، حتى تعلَّقت بصفة شخصية بهذا اليوم، الذي كان في البداية يمثِّل لها تجربة لم تَعْدُ في السابق كونها شيئًا جديدًا لم ترَ مثله من قبل. لقد عرفت جميع طالبات السنة

النهائية بصفة شخصية، وعددًا كبيرًا من الطالبات المستجدَّات؛ تحدَّثت معهن عن العَرض، وشاركتهن شعورهن بمزيج من الخوف والترقُّب لهذا العرض، حتى إنها شاركت في تجهيز الأزياء الخاصة بالعرض. كان العرض لحظةَ بلوغ القمة، لحظة الانتصار، الفصل الأخير في حياتهن الجامعية، ولم تستطِع تحمُّل فكرة المغادرة دون أن تشهده؛ دون أن تكون جزءًا منه.

كانت قد تركت عضواتِ هيئة التدريس الأخريات، اللاتي كن متجهات نحو مقدِّمة المبنى، ولكن راج، التي تبِعتها لتثبيت إشعار على لوحة الإشعارات الخاصة بالطالبات، مسحت جبينها بارتياح كبير وقالت: «الحمد لله على ذلك، أعتقد أنه كان أصعب شيء اضطُررت إلى فعله. لم أستطِع إكمال طعام الغداء لأنني ظللت أفكِّر في الأمر.» وتذكَّرت لوسي بالفعل رؤيتها لمنظر غير معتاد لقطعة كبيرة من البودنج لم تُؤكل في طبق الآنسة راج.

هذه هي الحياة بالتأكيد. أُغلِقت بوابةُ الجنة في وجه إينيس ولم تستطِع راج إكمال البودنج!

لم يخرج أحدٌ من غرفة الطعام بعدُ — نظرًا لأن شهية الطالبات تكون مفتوحة أكثرَ من شهية عضوات هيئة التدريس، فإن الطالبات يقضين وقتًا أطولَ بما لا يقل عن ١٠ أو ١٥ دقيقة في تناول الطعام، مقارنةً بعضوات هيئة التدريس — لذا كانت الممرات لا تزال خاليةً عندما صعِدت لوسي إلى غرفتها. فقد اتخذت قرارًا بالخروج من لايز قبل أن تغمر جحافل الطالبات المناطقَ الريفية المحيطة. سوف تتجول في المناطق الريفية بألوانها الخضراء والبيضاء والصفراء، وتشم أزهار مايو وترقد على الحشائش وتتأمل دوران الأرض حول محورها، وتذكِّر نفسها باتساع العالم، وبأن أحزان الطالبات، على قسوتها ومرارتها، سرعان ما ستنتهي وأنها بلا شك أمورٌ بسيطة جدًّا بالمقياس الكبير للأشياء.

خلعت لوسي حذاءها وارتدت حذاءً آخر أكثرَ ملاءمةً للتنزه على طول المسارات في الحقول، ثم عبَرت إلى «المنزل القديم» وسارعت إلى النزول من السُّلم الأمامي، ثم خرجت من الباب الأمامي لتجنُّب رؤية الطالبات اللاتي سيخرجن تدريجيًّا من غرفة الطعام. كان «المنزل القديم» هادئًا جدًّا، مما دفعها إلى استنتاجٍ مفادُه أنه لم يجلس أحد في غرفة المعيشة بعد الغداء اليوم. مشت لوسي حول المنزل، وتوجَّهت صوب الحقل خلف صالة الألعاب الرياضية، بينما كانت تفكر في بيدلينجتون و«ذا تي بوت». امتدَّ على يمينها سياج زهور مايو على شكل رغوة كريمية، وامتدَّت على يسارها زهور الحوذان كالبحر الذهبي. ألقت

أزهار الدردار، التي يغمر نصفَها ضوءُ الشمس الدافئة، بظلالها الأرجوانية، وكأن هذه الظلال هي ما يثبِّتها في الأرض، وتناثرت الأُقْحُوانات على العشب القصير تحت قدميها. كان عالَمًا بديعًا، عالَمًا متناغمًا وحسنًا، وليس يومًا مناسبًا — أوه أيتها المسكينة إينيس! أيتها المسكينة إينيس! — لإنزال البلايا على أحد.

وبينما كانت لوسي تفكِّر فيما إذا كانت ستعبُر الجسر الصغير وتتجه نحو المصبِّ إلى بيدلينجتون أو في الاتجاه المعاكس إلى المجهول، رأت بو. كانت بو واقفةً في منتصف الجسر، تشاهد المياه المتدفِّقة، لكنها امتزجت امتزاجًا كبيرًا مع ضوء الشمس والظلال تحت أشجار الصفصاف بسبب ملابسها الخضراء المصنوعة من الكتان وشعرها اللامع، حتى إن لوسي لم تدرك أن أحدًا كان يقف هناك. وعندما بلغت لوسي الظل وتسنَّت لها الرؤية بوضوح، رأت أن بو كانت تراقبها وهي آتية، لكنها لم تُلقِ عليها أيَّ تحية. وتسبَّب سلوكُ بو غير المعهود في قلق لوسي.

قالت لوسي، وهي تستند إلى السور الخشبي بجانب بو: «مرحبًا. أليست فترة ما بعد الظهيرة هذه جميلة؟» لماذا هذا التعليق السخيف؟ سألت لوسي نفسها.

لم تنبس بو ببنت شفة، ولكنها سرعان ما قالت: «هل كنتِ على دراية بأمر الوظيفة؟»

قالت لوسي: «نعم. لقد ... لقد سمِعتُ عضوات هيئة التدريس يخضن في الأمر.»

«متى؟»

«أمسِ.»

«إذن كنتِ على علمٍ بالأمر عندما تحدَّثْنا هذا الصباح.»

«نعم. لماذا؟»

«كان من الأفضل لو حذَّرها أحد.»

«حذَّر مَن؟»

«إينيس. شعور صعب أن تُسحق آمالُك أمام الجميع.»

أدركت لوسي أن بو كانت تشعر بغضب شديد. لم تكن رأتها مستاءةً من قبل، أما الآن فهي غاضبة جدًّا لدرجة أنها بالكاد تستطيع التحدث.

سألت لوسي بعقلانية، وهي مستاءة من أن يُلقى اللوم عليها شخصيًّا في أمرٍ ليس لها دور فيه: «ولكن كيف لي أن أفعل ذلك؟» وأردفت: «لم يكن من الأمانة إخباركما بالأمر قبل أن تُعلن الآنسة هودج قرارَها. فكلُّ ما أعرفه هو أنه ربما تغيِّر رأيها؛ عندما تركتها كان من المحتمل أن ترى الأمور من منظور ...» ثم توقَّفت، مدركةً إلى أين تتجه المحادثة. ولكن بو أيضًا أدركت الأمر. وأدارت رأسها بحدة لتنظر إلى الآنسة بيم.

«أوه. لقد جادلتِ معها بشأن هذا الموضوع. لم توافقي على اختيارها إذن؟»

«بالطبع لم أوافق.» وحدَّقت في وجه الفتاة الغاضبة القريب جدًّا من وجهها وقرَّرت أن تتحدث بصراحة. قالت: «يجب أن تعرفي يا بو أن لا أحدَ يوافق على قرارها. فرأي عضوات هيئة التدريس هو نفسه رأيكن. الآنسة هودج صديقة قديمة لي، وأنا مَدينة لها بالكثير ومعجبة بها، ولكن فيما يتعلق بهذا الأمر، فهذا قرارها هي وحدَها. لقد انزعجت منذ أن سمِعت عن قرارها أول مرة، وكنت أود فعل أي شيء لأثنيها عن هذا القرار، أو أن أستيقظ اليوم التالي وأجد أنه مجرد كابوس؛ أمَّا بخصوص تحذير أي شخص …» ورفعت يدها في إيماءة تعني أنه لا حول لها ولا قوة في هذا الأمر.

عاودت بو التحديق في المياه. وتمتمت: «كان من الممكن أن تفكِّر امرأة ذكية مثلك في حل.»

بوجهٍ ما، جعلت عبارة «امرأة ذكية» بو فجأةً تبدو أصغر سنًّا وفاتنة؛ فلم تكن بو الواثقة والراقية لتطلب المساعدة أو أن تعتبر لوسي، هذه المرأة العادية جدًّا، ذكية. في تلك اللحظة بدت وكأنها طفلة؛ طفلة غاضبة ومجروحة بسبب الظلم الذي لحِق بصديقتها. فلم تشعر لوسي بمثل هذا الإعجاب لبو من قبل.

همهمت بو وهي تنظر في المياه: «لم تُلمِّحي حتى. حتى التلميح بأنه قد يكون هناك شخص آخر يتنافس على الوظيفة. أي شيء لتحذيرها. لتخفيف حدة الصدمة. لوضعها على أهبة الاستعداد، حتى لا تُصدَم. إن كان ذلك عقابًا، فليس من الضروري أن يكون عقابًا قاسيًا. كان من الممكن أن تتخلَّي عن بعض مبادئك في سبيل هذا السبب الوجيه، أليس كذلك؟»

أدركت لوسي، متأخرةً، أنه ربما كان يمكنها فِعل ذلك.

سألت لوسي: «أين هي؟» وأردفت: «أين إينيس؟»

«لا أعرف. لقد خرجت مسرعة من الكلية قبل أن أتمكَّن من اللحاق بها. أعرف أنها اتجهت ناحية هذا الطريق، لكني لا أعرف أين ذهبت بعد ذلك.»

«هل سيؤثر عليها الأمر بشدة؟»

أجابت بو باستياءٍ شديد: «هل كنتِ تنتظرين منها أن تكون شجاعةً ونبيلة في خِضَم هذه الفوضى الرهيبة؟» ثم أضافت بسرعة: «أوه، أنا آسفة. أعتذر لكِ بشدة. أعلم أنك أيضًا آسفة لما حدث. أنا لست في حالة جيدة للتحدث إلى أي شخص الآن.»

قالت لوسي: «نعم، أنا آسفة لما حدث. لقد أُعجبتُ بإينيس في المرة الأولى التي قابلتها فيها، وأعتقد أنها كانت ستنجح للغاية في أرلينجهيرست.»

تمتمت بو: «كانت ستنجح.»

«وماذا كان ردُّ فعل الآنسة راوس تجاه هذا الخبر؟ هل تعتقدين أنها تفاجأت به؟»

أجابت بو باقتضاب: «لم أنتظر حتى أرى ردَّ فِعلها.» وبعد فترة وجيزة أضافت: «أعتقد أنني سأذهب باتجاه منبع النهر. فثمة غابة مليئة بالنباتات والأشجار الشائكة هناك، وهي مغرمة جدًّا بها؛ قد تكون هناك.»

سألت لوسي؛ وهي تشعر أنه إذا كانت نية بو هي تهدئة إينيس فقط، فإن إينيس بالتأكيد ستفضِّل الآن الجلوس بمفردها: «هل أنتِ قلقة بشأنها؟»

«لا أعتقد أنها تفكِّر حاليًّا في الانتحار، إذا كان هذا ما ترمين إليه. لكن أنا بالطبع قلقة بشأنها. فصدمة كهذه ستكون قاسية على أي شخص؛ خاصة الآن، في نهاية الفصل الدراسي ونحن جميعًا مرهقات. أمَّا بخصوص إينيس؛ فلطالما أولت ما تفعله اهتمامًا كبيرًا.» وتوقَّفت بو عن الكلام لتحدِّق في المياه مجددًا. وأردفت: «عندما كنا مستجدات، وقد اعتادت السيدة لوفيفر صبَّ تهكُّمها علينا صبًّا — أحيانًا ما تكون السيدة لوفيفر لا تطاق على الإطلاق — كنا نتحمَّل ما كانت تقوله، أما إينيس، فقد كانت تمزِّقها كلمات السيدة لوفيفر، كما لو كان جِلدها قد انسلخ، وتُركت ضعيفة من دون جلد. لم تذرف الدمع مطلقًا مثلما تفعل الأخريات عندما لا يتحملن ما يسمعنه. بل كانت ببساطة تحترق من الداخل. ليس من السهل أن تحترقي من الداخل. وذات مرة عندما ...» لكنها توقَّفت عن الكلام، وبدا أنها رأت أنها صرَّحت بالكثير. ربما كانت على وشْك الإفصاح عن أمرٍ ليس من الحكمة الإفصاح عنه، أو أنها خلصت إلى أن التحدُّث عن صديقتها مع شخص غريب نسبيًّا، بغض النظر عن مدى تفهُّمه، لم يكن في النهاية الشيء الصحيح الذي يجب فعله. وخلصت بو إلى أن: «إينيس تفتقر إلى الصلابة النفسية.»

نزلت بو من الجسر وبدأت في السير على الطريق بجانب شجر الصفصاف. وقالت، متوقفة قبل أن تتوارى عن نظر لوسي: «أرجوكِ سامحيني لو شعرتِ مني بأي نوع من الوقاحة. لم أقصد أن أكون كذلك.»

واصلت لوسي التحديقَ في المياه الهادئة الساكنة، متمنيةً بشدة أن تتمكَّن من استعادة الدفتر الأحمر الصغير الذي ألقته بثقة في الجدول قبل يومين، وتفكِّر في الفتاة التي لم يكن لديها الصلابة النفسية التي تحول بينها وبين تقلُّبات الدهر. الفتاة التي لم تستطِع لا أن تذرف الدمع ولا أن تجد العزاء في الضحك؛ كانت تحترق من الداخل. كانت لوسي تأمُل إلى حدٍّ ما ألا تعثر بو على إينيس حتى تمر الفترة الأصعب، فلم تذهب إينيس إلى بو بحثًا عن

التعاطف، لكنها ركضت بأسرعِ ما يمكن بعيدًا عن البشر، وبدا من العدل منحُها العزلة التي تسعى إليها.

اعتقدت لوسي أنه لن يضر بو على أي حال أن تكتشف أن العالم به نكساتٌ وخيبات أمل؛ فلطالما كانت الحياة سلسة للغاية لدى لبو. وكان من المحزن أن تتعلَّم على حساب إينيس.

سارت لوسي عبر الجسر ودخلت إلى الملعب، وأدارت وجهها لتصبح في مواجهة الريف المفتوح، ومرَّت عبر الفجوات في السياج؛ كانت تأمُل ألا تلحق بإينيس، وقرَّرت التظاهر بعدم رؤيتها إذا لمحتها. لكنها لم ترَ إينيس في أي مكان. كان المكان خاليًا تمامًا من البشر في يوم الأحد هذا. إذ كان الجميع لا يزالون مشغولين بتناول اللحم البقري المشوي. وكانت لوسي وحيدة مع أسْيِجة أزهار مايو والمراعي والسماء الزرقاء. وفي النهاية، وصلت إلى حافة منحدر حيث يمكن أن ترى واديًا ضحلًا يمتد مسافةً بعيدة، فجلست هناك وظهرها مستندٌ إلى شجرة بلوط، بينما سُمع طنين الحشرات في العشب، ومرَّت السُّحب البيضاء الكثيفة، وتحرَّك ظل الشجرة ببطء حول قدميها. كانت لوسي تتمتع بقدرة غير محدودة تقريبًا على عدم فعل أي شيء، وقد تسبَّب ذلك في إحباط معلِّميها وأصدقائها.

لم تفكِّر لوسي فيما ستفعل بعد ذلك حتى أصبحت الشمس في مستوى الأسيِجة. وكانت نتيجة التفكير هي إدراك أنها لن تستطيع حضور العشاء الليلة مع الطالبات؛ فقررت أن تمشي حتى تجد حانة، على أن تعود إلى الكلية في المساء بعد أن يرنَّ جرسُ النوم وينام الجميع. أخذت منعطفًا واسعًا، وبعد نصف ساعة، لمحت برج كنيسة مألوفًا من بعيد. وبذلك، تخلَّت عن فكرة الذهاب إلى حانةٍ، وتساءلت في نفسها عما إذا كان «ذا تي بوت» مفتوحًا أيام الأحد. وحتى لو لم يكن مفتوحًا، فربما يمكنها إقناعُ الآنسة نيفيل بإعطائها طعامًا مُعلَّبًا لتخفيف حدة الجوع لديها. كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما وصلت إلى ضواحي بيدلينجتون، وعندما نظرت إلى صرح الشهيد — المبنى الوحيد القبيح في المنطقة — شعرت بالقليل من الفضول، ولكن رؤيتها لباب «ذا تي بوت» مفتوحًا أعاد إحياء معنوياتها. عزيزتي الآنسة نيفيل. عزيزتي الآنسة نيفيل الكريمة، الفطِنة، البارعة، التي هي على استعداد لمساعدة الآخرين والقيام على خدمتهم.

دخلت لوسي المقهى البديع، الذي ألقت الأكواخ المجاورة بظلالها عليه بالفعل، ووجدته فارغًا تقريبًا. جلست عائلة على الطاولة بجوار النافذة الأمامية، وجلس شابٌّ وفتاة في الزاوية البعيدة؛ على الأرجح هما مالكا السيارة الباهظة الثمن الواقفة في آخر الحديقة.

أُعجبت لوسي بقدرة الآنسة نيفيل على الحفاظ على المقهى نظيفًا تفوح منه رائحة الزهور على الرغم من توافد الزبائن عليه في يوم الأحد من شهر يونيو.

وبينما كانت تنظر حولها بحثًا عن طاولة، سمِعت صوتًا ينادي باسمها: «آنسة بيم!»

أرادت لوسي أن تهرب على الفور؛ إذ لم تكن في حالة مزاجية مناسِبة للتحدث مع الطالبات في تلك اللحظة، لكنها أدركت أن مَن تناديها هي فطيرة المكسرات. كانت فطيرة المكسرات هي الفتاة التي تجلس مع الشاب في الزاوية. أما الشاب، فكان بلا شك ابن عمِّها ريك الذي وصف لوسي بالرائعة، وتطلِق عليه طالبات الكلية «الراقص المستأجَر».

نهضت ديستيرو من مقعدها واقتربت من لوسي — كانت تتمتع بأدب جمٍّ في المواقف الرسمية — وأرشدتها إلى طاولتهما. قالت ديستيرو: «هذا رائع!» وأردفت: «كنا نتحدث عنكِ، وأعرب ريك عن أمله في لقائك، وها أنت ذي تحضُرين. الأمر أشبه بالسحر. أقدِّم لكِ ابن عمي ريتشارد جيليسبي. اسمه الحقيقي هو ريكاردو، لكنه شعر أنه يشبه أسماء نجوم السينما.»

قال جيليسبي، وهو يصافح لوسي ويساعدها في الجلوس على أحد الكراسي: «أو قائد فرقة موسيقية.» كانت طريقة نطقه الخالية من أي لكنات تشبه تمامًا الإنجليز، وقد أسهمت إلى حدٍّ في التعويض عن التشابه الذي لا يمكن إنكاره بينه وبين أبطال السينما من أصولٍ لاتينية. فهمت لوسي سببَ تسميته بالراقص المستأجَر؛ فشعره السميك الأسود الناعم ورموشه الطويلة واتساع ثقبي أنفه وشاربه الرفيع الداكن سماتٌ تمثل الصورة النمطية للراقص المستأجَر، ومع ذلك، بصرف النظر عن مظهره، لا يبدو أن أي شيء آخر يتوافق مع هذه الفكرة في عيون لوسي. فشكله فقط هو ما ورِثه من أصوله اللاتينية؛ ولكن أسلوبه، وتربيته، وشخصيته هي أسلوب وتربية وشخصية طالب مدرسة حكومية عادي. قدَّرت لوسي أن عمره يقارب الثلاثين، أي أكبر بكثير من ديستيرو، وبدا شخصًا لطيفًا ومسئولًا.

يبدو أنهما أبلغا النادل بطلبهما التوة، وذهب ريتشارد إلى الجزء الخلفي من المقهى لطلبِ طبق آخر من أقراص الجبن الشهيرة في بيدلينجتون. قالت ديستيرو: «إنه طبق جبن، ولكن ليس مثل الأطباق الويلزية التي تجدينها في المقاهي بلندن. هو عبارة عن مسحوق الجبن الدَّسم فوق خبز محمَّص ناعم ومليء بالزبدة، بنكهةٍ ومكوِّنات فريدة؛ مثل جوزة الطيب — أعتقد أنها جوزة الطيب — ومكوِّنات شبيهة بذلك، ومذاقه رائع.»

قالت لوسي، التي لم تكن في حالةٍ تسمح لها بالاهتمام بمذاق الطعام، إنه يبدو لذيذًا. وقالت: «ابن عمك إنجليزي، إذن؟»

قالت ديستيرو عندما كان ريتشارد عائدًا: «أوه، نعم. لسنا مَن يسمونهم أبناء العمومة المباشرين. فأخت والد أبي تزوجت والد والدته.»

قال ريتشارد: «بعبارة أبسط، كان أجدادنا أخًا وأختًا.»

فقالت ديستيرو، وقد بدا عليها بصفتها من أصلٍ لاتيني رفضُها اعتيادَ الإنجليز عدمَ الاكتراث بالعلاقات الأسرية: «قد تكون هذه العبارة أبسط، ولكنها ليست واضحة.»

سألت لوسي ريتشارد: «هل تعيش في لاربورو؟»

«لا، أنا أعمل في فرعنا الرئيسي في لندن. لكنني أتولى حاليًّا أعمال الاتصال في لاربورو.»

ورغمًا عنها، تحوَّلت نظرة لوسي نحو ديستيرو، التي كانت مشغولة بفحص القائمة.

قال ريك بسلاسة: «إحدى الشركات التابعة لنا موجودة هنا، وأنا أتعاون معهم أسبوعًا أو أسبوعين»، ونظر إلى ديستيرو وضحِك بعينيه. وبعد ذلك، لطمأنتها تمامًا، أضاف: «جئت برسالة توصية من الآنسة هودج، تؤكد الروابطَ العائلية، واحترامي، واستقراري المادي، وحسن مظهري، والتزامي بالمعايير التقليدية ...»

قاطعته ديستيرو قائلة: «أوه، اصمت يا ريك، ليس ذنبي أن والدي برازيلي وأمي فرنسية. ما هي كعكة العجين بالزعفران؟»

قال ريك: «تيريزا هي أفضل شخص يمكن دعوته لتناول الطعام. فهي تأكل مثل أسدٍ جائع. في حين تقضي صديقاتي الأخريات المساء بأكمله في هوَس بشأن عدد السعرات الحرارية وتخيُّل تأثير ذلك على محيط الخَصر لديهن.»

أجابت ديستيرو ببعض الحدة: «صديقاتك الأخريات لم يقضين ١٢ شهرًا في كلية لايز للتدريب البدني، حيث يبذلن مجهودًا بدنيًّا شاقًّا ويتناولن سلطة الخضراوات.»

تذكَّرت لوسي كمية الخبز التي تلتهمها الطالبات في كل وجبة، واعتقدت أن كلام ديستيرو مُبالغ فيه.

عندما أعود إلى البرازيل، سأعيش مثل السيدات الراقيات وآكل مثل الأشخاص المتحضرين، يمكنني وقتها التفكير في السعرات الحرارية التي أستهلكها.»

فسألتها لوسي متى تنوين العودةَ إلى البرازيل.

«سوف أُبحر في آخر يوم من شهر أغسطس. وبهذه الطريقة، يمكنني الاستمتاع قليلًا بالصيف في إنجلترا بعد انتهاء العام الدراسي وقبل الرحيل. فأنا أحبُّ الصيف في إنجلترا. إنه مليء بالخضرة، ولطيف، وممتع. أحب كل شيء في إنجلترا باستثناء الملابس والشتاء والأسنان. أين أرلينجهيرست؟»

فوجئت لوسي، التي نسيت عادةَ ديستيرو بأن تنتقل من موضوع إلى آخرَ فجأة، بسماع اسم أرلينجهيرست فلم تُجِب مباشرةً وتولَّى ريك الإجابة بدلًا منها. قال: «إنها أفضل مدرسة للبنات في إنجلترا.» ثم أردف بعد أن عرَّف المدرسة بإيجاز: «لماذا تسألين؟»

«إنها حديث الكلية في الوقت الحالي. فستذهب إحدى الطالبات إلى هناك مباشرةً من لايز. قد يُعتقد أنها حصلت على لقب سيدة على الأقل، بالنظر إلى مدى حماسة الجميع.»

قال ريك: «يبدو لي إنجازًا يستحق هذه الحماسة. فلا يحصُل الكثير من الناس على مثل هذه الفرص مباشرةً بعد التخرج.»

«حقًّا؟ إذن فأنت تعتقد أنه شرفٌ حقًّا؟»

«أراه شرفًا كبيرًا. أليس كذلك يا آنسة بيم؟»

«بلى، بلا شك.»

«أوه، حسنًا. أنا سعيدة لأجلها. إنه لأمر مؤسف أن أتخيلها تضيِّع سنوات عمرها في مدرسة للبنات، ولكن إذا كان هذا شرفًا لها، فأنا سعيدة.»

سألت لوسي: «سعيدة من أجل مَن؟»

«من أجل إينيس، بالطبع.»

سألتها لوسي في اندهاش: «ألم تتناولي الغداء اليوم معنا؟».

«لا، جاء ريك بالسيارة، وذهبنا معًا إلى سارَسينز هيد في بومينستر. لماذا؟ وما علاقة ذلك بموضوع المدرسة؟»

«إينيس ليست الشخص الذي سيذهب إلى أرلينجهيرست.»

«ليست إينيس! لكن الجميع كان يقول إنها هي مَن سيذهب. الجميع قال ذلك.»

«صحيح، هذا ما توقَّعه الجميع، لكن الأمور لم تسِر على هذا النحو.»

«لا؟ إذن مَن التي ستذهب؟»

«راوس.»

حدَّقت ديستيرو وهي مصدومة.

«أوه، لا. لا أستطيع أن أصدِّق ذلك. ببساطة لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا.»

«إنه صحيح، للأسف.»

«تقصدين أنهم فضَّلوا واحدة من الرعاع ... تلك الـ...»

قال ريك، الذي وجد ردَّ فِعلها الانفعالي الذي يراه للمرة الأولى مسليًا، محذِّرًا: «تيريزا!».

صمتت ديستيرو هنيهة، وهي غارقة في أفكارها.

ثم بعد ذلك قالت بصوتٍ واضح: «لو لم أكن سيدة، لكنت بصقت!»

نظر أفراد العائلة الجالسة في المقهى إليهم، وكانت تعبيراتهم مزيجًا من الدهشة والقلق الطفيف. وقرروا أن الوقت قد حان للمغادرة، وبدءوا في جمع مُتعلقاتهم، وحسابِ ما سيدفعونه.

قال ريك: «انظري فيما تسببتِ فيه. لقد أزعجتِ الجالسين في المقهى.»

في هذه اللحظة، وصلت أقراص الجبن من المطبخ، تحمِلها الآنسة نيفيل الكريمة ذات المريلة القطنية المطبوعة؛ ولكن فطيرة المكسرات، التي لم يشتِّت انتباهها نهائيًّا منظرُ الطعام الشهي، تذكَّرت أن الآنسة نيفيل هي أول مَن أبلغها بالوظيفة الشاغرة في أرلينجهيرست، وفُتح الموضوع مجددًا. أنقذ ريك لوسي من النقاش غير المرغوب فيه من خلال لفت الانتباه إلى أن أقراص الجبن ستبرد سريعًا؛ وكان لدى لوسي شعورٌ قوي بأن ريك نفسه ليس لديه اهتمام حقيقي بأقراص الجبن، ولكنه لاحظ بطريقةٍ ما تعبَها ونفورَها من الموقف، فشعرت لوسي بالدفء وبامتنانٍ تجاهه وقاومت دموعها.

قال ريك، عندما حوَّلت فطيرة المكسرات تركيزها أخيرًا إلى طعامها: «على أي حال، أنا لا أعرف الآنسة إينيس شخصيًّا، ولكن إذا كانت رائعة كما تقولون، فسوف تحصُل على فرصة جيدة جدًّا، حتى لو لم تكن هذه الفرصة في أرلينجهيرست.»

طوال فترة الظهيرة الطويلة، كانت هذه هي الحجة التي استخدمتها لوسي لتعزية نفسها. فقد كانت معقولة ومنطقية وعادلة، لكنها كانت تعمل كضمادة أخلاقية أكثرَ من كونها علاجًا حقيقيًّا. فهمت لوسي سببَ سخرية فطيرة المكسرات من ذلك.

سألت فطيرة المكسرات وهي تأكل قطعة كبيرة من أقراص الجبن: «هل تحب أن يفضلوا شخصًا كهذه عليك؟ أتحدَّث عن راوس. بماذا سيشعر المرء إذا اعتقد أنهم سيكرِّمونه علانية، ليُفاجأ بإهانتهم له أمام الجميع؟»

وصفت بو هذا الموقف بأنه مثل «ركل الأسنان». كانت ردود أفعالهما متشابهةً تشابهًا ملحوظًا. الفارق الوحيد هو أن ديستيرو أدركت الإهانةَ، بينما أدركت بو الإصابة.

تابعت ديستيرو، وعيناها الجميلتان تنظران إلى الطاولة التي جلسوا عليها: «قضينا صباحًا جميلًا ومبهجًا في هذا المكان تحديدًا مع والدَي إينيس.» كانت لوسي أيضًا تتذكَّر تلك المناسبة. وتابعت ديستيرو: «كانا مبهجَين يا ريك؛ أتمنى أن تقابلهما. لقد استمتعنا بوقتنا معًا: أنا، والآنسة بيم، ووالد إينيس، ووالدتها، قضينا وقتًا راقيًا، واستمتعنا بتناول القهوة الممتازة. كان يومًا رائعًا. والآن …»

أعادت لوسي وريك توجيهَ انتباهها بعيدًا عن الموضوع؛ ولم تتذكَّر ديستيرو الموضوع وتعاود النواح إلا عندما ركبوا السيارةَ للعودة إلى لايز. ولكن المسافة من بيدلينجتون إلى لايز قصيرة جدًّا بسيارة ريك، لدرجةِ أنه لم يكن لدى ديستيرو الوقت للتفكير في الأمر قبل الوصول إلى البوابة. تمنَّت لهما لوسي ليلةً سعيدة، وكانت على وشْك الانسحاب بلباقة، لكن فطيرة المكسرات رافقتها. وقالت بطريقة عابرة: «تصبح على خير يا ريك. ستأتي يوم الجمعة، أليس كذلك؟»

طمأنها ريك قائلًا: «لن يمنعني شيء من المجيء. في الساعة الثالثة، أليس كذلك؟»

«لا، في الثانية والنصف. الموعد مكتوب على بطاقة دعوتك. البطاقة التي أرسلتها إليك. بالنسبة لرجل أعمال، أنتَ لست دقيقًا بما يكفي.»

«أوه، حسنًا، عادةً ما أحتفظ بالأوراق الخاصة بأعمالي في ملفات.»

«وأين تحتفظ بدعوتي؟»

أجاب ريك: «في سلسلة ذهبية بين صدريتي وقلبي»، وبذلك يكون هو المنتصر في هذا النقاش.

قالت لوسي وهي تصعد الدَّرج مع ديستيرو: «ابن عمك شخص رائع.»

«هل تعتقدين ذلك؟ أنا مسرورة لسماع هذا. أنا أعتقد الشيء نفسه. إنه يمتلك كلَّ مزايا الرجل الإنجليزي، مع القليل من الصفات التي لا تُعد من مزايا الرجل الإنجليزي على الإطلاق. أنا سعيدة لأنه سيأتي لمشاهدتي أرقص يوم الجمعة. لماذا تبتسمين؟»

وسرعان ما غيَّرت لوسي الموضوع وكانت تبتسم لوجهة نظر ديستيرو المعتادة عن حضور ابن عمِّها يوم الجمعة.

«ألا يجب أن تدخلي من الباب الآخر؟»

«أوه، نعم، لكني لا أعتقد أن أحدًا سيُمانع. ففي غضون أسبوعين، سأستخدم هذا الدَّرج إن أردت — وبالمناسبة، لن أرغب في ذلك — لذا يمكنني استخدامه الآن أيضًا. فأنا لا أفضِّل استخدامَ المداخل الخلفية المخصَّصة للتجار.»

كانت لوسي تنوي توجيه التحية إلى هيئة التدريس قبل التوجُّه إلى غرفتها في الجناح، ولكن هدوء المدخل الشديد، والجو العام القاتم للمنزل ثبَّطا عزيمتها، فاختارت الحل الأيسر. قرَّرت تأجيلَ هذا اللقاء حتى صباح اليوم التالي.

على الأقل التزمت فطيرة المكسرات بقواعد الكلية التزامًا رمزيًّا، وكان من الواضح أن جرس الذهاب إلى غرفة النوم قد دقَّ، وذلك بسبب الهدوء التام في طرقة الجناح؛ لذا تمنَّيا

لبعضهما ليلةً سعيدة أعلى الدَّرج، وشقَّت لوسي طريقها إلى غرفتها في آخر الطرقة. وأثناء خلع ملابسها، وجدَت أن أذنيها كانتا تنتظران سماع أي صوت من الغرفة المجاورة. ولكن لم يكن هناك أيُّ صوت؛ كما لاحظت، وهي تفتح الستائر، عدمَ وجود أي ضوء مرئي قادم من النافذة. ألم تَعُد إينيس؟

جلست لوسي هنيهة تفكِّر فيما إذا كان عليها فِعل شيء. فكَّرت أنه إذا كانت إينيس لم تَعُد، فبو بالتأكيد بحاجة إلى بعض المواساة. وإذا كانت إينيس قد عادت بالفعل، لكنها بقيت صامتة، فربما كانت هناك طريقة يمكنها من خلالها التعبير عن تعاطفها دون التطفل، عن طريق القيام بفعلٍ غير شخصي لطيف أو تقديم خدمة بسيطة؟

أطفأت لوسي النورَ وفتحت الستائر وجلست بجانب النافذة المفتوحة، وهي تنظر إلى المربعات ذات الإضاءة الزاهية المحيطة بالفناء الصغير — في هذا المجتمع، كان يُنظر إلى إغلاق الستائر على أنه أمرٌ غير معتاد — وتشاهد الأنشطة الفردية للطالبات اللائي أصبحن هادئات الآن. كانت إحداهن تمشِّط شعرها، وأخرى تخيط شيئًا، وأخرى تضع ضمادة على قدمها (كانت هذه حماقة؛ إذ إنها كانت تبحث عن مقص بدلًا من أن تكون جاهزة قبل أن تبدأ مثلما تفعل المدلِّكات الماهرات)، وأخرى ترتدي سترة، وأخرى تضرب عثَّة.

رأت لوسي انطفاء مصباحين. غدًا، سيرنُّ جرس الاستيقاظ الساعة الخامسة والنصف مرةً أخرى، ولكن الآن بعد انتهاء الاختبارات، لم تَعُد هناك حاجة لأن تظل الطالبات مستيقظات حتى وقت متأخر حتى اللحظات الأخيرة لمراجعة دفاترهن.

سمِعت لوسي خُطى أقدام في الطرقة، فوقفت، معتقدةً أن أحدًا قادم إلى غرفتها. فُتح باب غرفة إينيس بهدوء وأُغلق. وظل نور الغرفة منطفئًا، لكنها تمكَّنت من تمييز الحركات الحذِرة لشخص يستعد للنوم. ثم سمِعت صوت خُفَّين في الطرقة، أعقبه طرقٌ على باب إينيس. ولم يكن هناك رد.

قال الصوت: «إنه أنا: بو»؛ ففُتح الباب. وسمعت همهمة عند غلق الباب. ثم فاحت رائحة القهوة وسُمع رنين الخزف الصيني الخافت.

كان قرار بو بالتعامل مع الموقف بتناول الطعام صائبًا. فأيًّا كانت الصراعات الداخلية التي عانتها إينيس خلال الساعات الطويلة من الواحدة حتى الساعة العاشرة، فقد استنزفت بالتأكيد جميع مشاعرها وأصبحت مستعدة لالتهام كلِّ ما يُقدَّم لها من الطعام. استمرَّت الأصوات الخافتة حتى دقَّ الجرس الخاص بإطفاء الأنوار؛ حينها فُتح الباب وأُغلق مرة أخرى، وامتزج هدوء الغرفة المجاورة بالسكون العميق الذي يغشى لايز.

أوَت لوسي إلى فراشها، وشعرت بالإرهاق الشديد لدرجة أنها وجدت صعوبةً في سحبِ الأغطية عليها؛ كانت غاضبة من هنرييتا، وحزينة على إينيس، وتشعر بالقليل من الغبطة لأن لدى إينيس صديقةً مثل بو.

قرَّرت لوسي البقاءَ مستيقظة قليلًا والتفكير في طريقةٍ تعبِّر من خلالها عن تعاطفها الشديد تجاه إينيس المسكينة وعن استيائها العميق؛ إلا أنها استغرقت في النوم على الفور.

الفصل الرابع عشر

تراجعت وتيرةُ الأحداث يوم الإثنين. فقد عادت لوسي إلى مجتمعٍ تحدَّث مرارًا وتكرارًا عن موضوع أرلينجهيرست. إذ قضى كلٌّ من عضوات هيئة التدريس والطالبات يومًا كاملًا يتحدثن في هذا الموضوع؛ بحيث لم يتبقَّ شيء ليُقال بحلول الليل؛ فبالطبع نُوقشت جميع الآراء الممكنة مرارًا وتكرارًا؛ لذا بحلول يوم الإثنين ونشاطاته المعتادة أصبح الموضوع أقلَّ أهمية. وبما أن الآنسة موريس المخلصة لا تزال تقدِّم طعام الإفطار للوسي في غرفتها، فهي لم تكن حاضرة لتشهد ظهور إينيس الأول للجميع؛ وعندما حان الوقت لرؤية الطالبات جميعهن على وجبة الغداء، كان كل شيء قد عاد كما كان وبدت الكلية إلى حدٍّ كبير كما كانت.

بدت إينيس رابطةَ الجأش، ولكن لوسي رأت أن تعبير وجه إينيس المعتاد الذي يتميز بالانسحابية أصبح تعبيرًا قاتمًا؛ فأيًّا كانت المشاعر التي تصارعها إينيس، فهي مدفونة بداخلها غير ظاهرة. وبدت راوس أكثرَ من ذي قبل تشبه قطة العمَّة سيليا، فيلاديلفيا، التي تمنَّت لوسي إخراجها من المكان وتركها تموء. والفضول الوحيد الذي كان لدى لوسي بشأن الموضوع هو معرفة كيف تلقَّت راوس هذا الخبر غير المتوقع؛ كان فضولها قويًّا لدرجة أنها سألت الآنسة لوكس في طريقهما لتناول الغداء بالأسفل.

«كيف تلقَّت راوس الخبر؟»

قالت الآنسة لوكس: «كانت تشبه الإكتوبلازم.»

سألت لوسي مندهشة: «لماذا الإكتوبلازم؟»

«أكثر شيء بغيض أعرفه.»

لم تُشبِع إجابة الآنسة لوكس فضولَ لوسي. ولامت السيدةُ لوفيفر لوسي بسبب تركِها لهن في اليوم السابق، لكن لم يرغب أحدٌ في الإسهاب في الحديث عن السبب المحتمَل وراء

غيابها. إذ لاحت ظلال العرض الذي سيقام بعد أربعة أيام فقط في الأفق؛ وبدا موضوع أرلينجهيرست وكأنه شيء من الماضي وفقدَ تأثيره بالفعل. وعادت الحياة في لايز إلى وتيرتها المعتادة.

وبالفعل، لم يكسر رتابةَ الروتين اليومي في الفترة بين يومي الإثنين والجمعة سوى حدثين بسيطين.

الحدث الأول كان عرض الآنسة هودج على إينيس وظيفةً في مستشفى ويتشرلي لتقويم العظام، ورفض إينيس لهذا العرض. فتحوَّل العرض إلى أودونيل التي تنفَّست الصعداء ورحَّبت وسعِدت به. (قالت لها ديكرز: «رائع يا عزيزتي. يمكنني الآن بيع ملابس العيادة لكِ يا عزيزتي، التي لن أرتديها مجددًا.» وباعتها بالفعل؛ وسعِدت جدًّا لحصولها على المال في محفظتها مع اقتراب نهاية الفصل الدراسي؛ لدرجةِ أنها بدأت على الفور في بيع بقية ممتلكاتها للطالبات في الجناح، ولم يثبِّط من عزيمتها على فعلِ ذلك سوى سؤال ستيوارت بسُخرية إن كانت دبابيس الأمان هي أيضًا من المعدات القياسية المستخدمة أم لا.)

أما الحدث الثاني فكان قدوم الممثل المسرحي إدوارد أدريان إلى لايز.

وقعَ هذا الحدث غير المتوقَّع يوم الأربعاء. كان بعد ظهر الأربعاء مخصصًا للسباحة في المسبح، وكانت جميع طالبات السنوات الأولى وطالبات السنة النهائية اللاتي ليس لديهن عيادة بعد الظهر في المسبح. وعلى الرغم من الدعوات الحارة للانضمام والانتعاش، فإن لوسي، التي بالكاد تمكَّنت من عبور المسبح بالدعاء والعدِّ والمثابرة، لم تنضم إلى الفتيات في المسبح. وأمضت نحو ٣٠ دقيقة في مراقبة وثبِ الفتيات في المسبح قبل العودة إلى المبنى لاحتساء الشاي. عندما عبرت الرَّدهة باتجاه الدَّرج، خرجت إحدى القرينات الأربع (اعتقدت أنها لوك، ولكنها لم تستطِع التمييز بينهن تمامًا، حتى الآن) مسرعة من باب العيادة وقالت:

«أوه، آنسة بيم، هل يمكنك أن تُقدمي لي معروفًا وتجلسي على قدمَي ألبرت لحظةً؟»

كرَّرت لوسي، غير متأكدة تمامًا من أنها سمِعت الجملة صحيحة: «أجلس على قدمَي ألبرت؟»

«نعم، أو أن تمسكي بهما. ولكن من الأسهل الجلوس عليهما. لقد تمزَّق ثقب الحزام، ولا يوجد حزامٌ آخر متاح الآن.» ووجهت لوسي المرتبكة إلى العيادة الهادئة، حيث كانت الطالبات يرتدين زيًّا أبيض غير مألوف ويُشرفن على حركاتِ مرضاهن، وأشارت إلى طاولة؛ حيث كان صبيٌّ في الحادية عشرة أو نحو ذلك مستلقيًا على وجهه. قالت، وهي تحمل حزامًا

جلديًّا: «كما ترَين، لقد خرج الرابط من الفتحة، والثقب الأمامي ضيق جدًّا، بينما الفتحة الموجودة في الخلف واسعة. أرجو منك الإمساك بقدميه لحظة؛ إذا كنتِ لا تُفضلين الجلوس عليهما.»

قالت لوسي بسرعة إنها تفضِّل الإمساك بهما.

«حسنًا. هذه الآنسة بيم يا ألبرت. ستعمل كحزام في الوقت الحالي.»

قال ألبرت، وهو ينظر إليها نظرةً جانبية: «أهلًا يا آنسة بيم.»

سحبت لوك — بافتراض أنها هي — الصبي من تحت كتفيه إلى الأمام حتى بقيت ساقاه فقط على الطاولة. وقالت: «والآن، ضعي يديك على كل كاحلٍ وأمسكي بهما يا آنسة بيم»، فامتثلت لوسي، مدركةً مدى ملاءمة هذا الأسلوب المباشر في مانشستر ومدى ثِقل طفل يبلغ من العمر أحد عشر عامًا عندما تحاول الإبقاء على كاحليه في مكانهما. تجوَّلت عيناها بعيدًا عن لوك ونظرت إلى الفتيات الأخريات، وهي تشعر بالغرابة وعدم الألفة في هذه البيئة الجديدة. ألم تكن هناك نهاية لأوجه هذه الحياة الغريبة؟ حتى أولئك الذين عرفتهن جيدًا، مثل ستيوارت، كن مختلفات على ما يبدو في هذا المكان. كانت حركاتهن أبطأ، واستخدمن صوتًا مميزًا متحمسًا مصطنعًا مع المرضى. لم تكن هناك ابتسامات أو محادثات فارغة؛ مجرد الهدوء المعتاد للمستشفيات. «أبعد من ذلك بقليل. هذا صحيح.» «إنها تبدو أفضل بكثير اليوم، أليس كذلك؟» «والآن، دعنا نجرِّب ذلك مرة أخرى، وسنكتفي بهذا القدر اليوم.»

ومن خلال فجوة في ثوب هاسيلت أثناء تحركها، لمحت لوسي ثوبًا حريريًّا، مدركة أنها ترتدي ملابس تمرينات الرقص تحت هذا الثياب؛ إذ لم يكن هناك وقتٌ بين الانتهاء مع مريضها والذهاب إلى صالة الألعاب الرياضية. وإما أنها تناولت الشاي بالفعل، أو أنها ستحتسي كوبًا في الطريق.

وبينما كانت تفكر في مدى غرابة هذه الحياة التي ترتدي فيها الفتيات ثيابَ الرقص الحريرية تحت ثياب المستشفى، مرَّت سيارة من أمام النافذة وتوقَّفت عند الباب الأمامي. كانت سيارة أنيقة وباهظة الثمن، طويلة بدرجة مثيرة للإعجاب وبرَّاقة لا تشوبها شائبة، يقودها سائق. في الوقت الحاضر، كان من النادر رؤية شخص يستقل سيارة يقودها سائق إلا الأشخاص العاجزين؛ لذلك كانت لوسي متحمسة لمعرفة مَن الذي سيخرج منها.

والدة بو، ربما؟ تبدو هذه السيارة مناسِبة لشخص لديه خادم شخصي، بلا شك.

ولكن، ولدهشتها، نزل شاب من السيارة — كانت ترى ظهره فقط — وكان يرتدي بدلةً من النوع الشائع الذي يراه المرء في المحلات الواقعة بين شارع سانت جيمس

ودوق يورك ستيبس في أي وقت بين أكتوبر ونهاية يونيو. فمع وجود السائق والبدلة، فكَّرت لوسي في أفراد العائلة المالكة المحتملين، لكنها لم تستطِع التوصل إلى الشخص المناسب، وعلى أي حال، في أيامنا هذه يقود أفراد العائلة المالكة سياراتهم بأنفسهم.

«شكرًا جزيلًا لك يا آنسة بيم. لقد قدمتِ مساعدة هائلة. قُل شُكرًا يا ألبرت.»

أجاب ألبرت بأدب: «شكرًا لك يا آنسة بيم»، ثم التقت عيناه بعينيها فغمَز لها. فغمزت له لوسي بجدية.

في هذه اللحظة، اقتحمت أودونيل الغرفةَ ممسكةً بعلبة كبيرة من بودرة التَّلك التي أعادت فروكن تعبئتها في الغرفة المجاورة، وهمست في حماسة: «خَمِّنوا مَن جاء! إدوارد أدريان! إنه في السيارة. إدوارد أدريان!»

قالت ستيوارت، وهي تأخذ علبة بودرة التَّلك من أودونيل: «لا أحدَ يهتم. لقد استغرقتِ وقتًا طويلًا للحصول على التَّلك.»

أغلقت لوسي باب العيادة خلفها وذهبت إلى الباحة. ما قالته أودونيل كان صحيحًا. كان بالفعل إدوارد أدريان يقف في الباحة. وما قالته الآنسة لوكس كان صحيحًا أيضًا. فقد كان إدوارد أدريان يتأمَّل صورته في المرآة.

بينما كانت لوسي تصعد السُّلم، قابلت الآنسة لوكس وهي تنزل، وعندما وصلت لوسي إلى الدرجة الثانية من السُّلم شهِدت لقاء الآنسة لوكس بأدريان.

قالت الآنسة لوكس دون حماسة: «أهلًا تيدي.»

قال أدريان، الذي اقترب منها كما لو كان على وشْك احتضانها، بحماسة شديدة: «كاثرين!» ولكن يدها الفاترة التي امتدت لتُحيِّيه تحيةً تقليدية منعته من احتضانها.

«ماذا تفعل هنا؟ لا تقل لي إن لديك ابنة أخت تدرس في لايز.»

«لا تكوني قاسية يا كاث. لقد جئت لرؤيتك، بالطبع. لماذا لم تخبريني أنك هنا؟ لماذا لم تأتِ لرؤيتي لنتناول وجبة معًا ونسترجع ذكريات ...»

فنادت الآنسة لوكس الآنسة بيم بصوت واضح من الأسفل: «آنسة بيم، لا تذهبي. أريدك أن تقابلي صديقًا لي.»

فسمعته يقول في لهجة احتجاج سريعة وهادئة: «لكن كاثرين ...»

فقالت الآنسة لوكس بنبرة إغاظة: «إنها الآنسة بيم الشهيرة»، وأضافت كنوع من الإغاظة الأخيرة: «وهي من أشد المعجبين بك.»

هل يدرك مدى قسوة الآنسة لوكس؟ تساءلت لوسي في نفسها بينما كانت في انتظارهما لصعود السُّلم إليها، أم إن رضاه عن نفسه يحميه من انتقاداتها؟

عندما وصلا جميعًا إلى غرفة المعيشة المهجورة، تذكَّرت لوسي فجأةً وصفَ ستيوارت لأدريان بأنه «رجل مُنهَك، يشبه النسر المتساقط الريش»، ووجدت هذا الوصف مناسبًا تمامًا. فعلى الرغم من مظهره الجميل، فإن أدريان، الذي لا يمكن أن يزيد عمره عن ٤٠ عامًا كثيرًا — ربما ٤٣ أو ٤٤ — بدا أنه استعان بالكثير من الوسائل للحفاظ على مظهره. فدُون مساحيق التجميل والشعر المستعار، بدا متعبًا ومتهالكًا، وكان شعره الداكن يتساقط منحسرًا عن الجبهة. شعرت لوسي فجأةً بالشفقة تجاهه. فبعد مشاهدة شباب وقوة وجمال ريك ابن عم ديستيرو، بدا أدريان، الممثل المدلَّل والمشهور، إلى حدٍّ ما مثيرًا للشفقة.

كان أدريان يتعامل مع لوسي بلطف شديد — كان يعرف كل شيء عن كتابها؛ فقد قرأ جميع الكتب الأكثر مبيعًا — لكنه كان أيضًا يراقب الآنسة لوكس، بينما كانت تفحص ما تبقى من الشاي، وتفحص إبريق الشاي، وتقرِّر أنها بحاجة لتسخين قدرٍ قليل من الماء، فتعيد إشعال الموقد تحت غلاية الشاي. ووجدت لوسي شيئًا محيرًا في طريقة تصرُّفه أمام كاثرين. فلم تكن هذه هي الطريقة التي تخيلَتْها. فقد تخيَّلت أن يكون نجمٌ لامع مثله أكثرَ تكبرًا وأكثرَ حرصًا على إثارة إعجاب الغُرَباء عندما يزور محاضرًا متواضعًا في كليةٍ للبنات، كما يفعل الممثلون غالبًا. لقد كان بالتأكيد ساحرًا من وجهة نظرها، وكان سحرُه مثيرًا للإعجاب، ولكن يبدو أنه كان يفعل ذلك بدافع العادة. وكان كل اهتمامه يتركز حول المرأة الباردة النحيفة التي كانت تقدِّم له بعض الشاي المُخفَّف. وكانت لوسي تفكِّر باستمتاع أن إدوارد أدريان لا يصل إلى أي مكان عادةً دون أن تُسمع أصوات الأبواق؛ فلِما يقرُب من عقدين من الزمن — منذ أن أدى دور روميو ودغدغ مشاعر النقاد الذين شاهدوا عروضًا كثيرة وسئموا شخصية روميو مونتاجيو — أصبحت تحركاته أحداثًا مهمة، وأصبح شخصية مهمة يتهافت الناس على تحقيق رغباته والاستجابة لطلباته؛ وأغدقوا عليه الهدايا دون انتظار أي شيء في المقابل. كان إدوارد أدريان، اسمًا معروفًا في كل بيت، مكتوبًا على اللوحات الإعلانية العالية، شخصية ذات أهمية وطنية.

ولكنه جاء بعد ظهر اليوم إلى لايز لرؤية كاثرين لوكس، وتبِعتها عيناه باهتمام، مثل الكلب المخلص. كاثرين، التي حكمت عليه بأنه لا يستحق أكثرَ من القليل من الماء الساخن يُضاف إلى إبريق الشاي. بدا كل شيء غريبًا جدًّا.

سألت لوكس، بأدبٍ وليس باهتمام حقيقي: «أتمنى أن تكون بخير في لاربورو يا تيدي؟»

«أوه، نعم، لا بأس. يوجد عدد كبير جدًّا من المدارس لتقديم العروض، ولكن يجب على المرء أن يتحمل ذلك عندما يختار أن يقدِّم مسرحية لشكسبير.»

سألت لوسي، متذكرة أن الشباب الذين قابلتهم مؤخرًا لا يستمتعون بعروضه: «ألا تستمتع بتقديم عروض للشباب؟»

فقال بتسامح كبير: «حسنًا، إنهم ليسوا الجمهور المثالي. فالفنان يفضِّل الجمهور من البالغين. والشباب يحصلون على تذاكر مخفضة بالطبع؛ الأمر الذي لا يساعد في تحقيق الأرباح. لكننا نعتبر ذلك استثمارًا. فهؤلاء الشباب هم رواد المسرح في المستقبل، ويحتاجون إلى تعريفهم بالعروض المسرحية الجيدة وتثقيفهم بشأنها.»

اعتقدت لوسي أن الجهود المبذولة لتثقيف الشباب بشأن المسرح لم تسفر عن نتائجَ إيجابية. يبدو أن جيل الشباب ينجذب إلى أفلامٍ مثل «الحواجز المشتعلة» (فليمينج باريرز). فلم يكن حتى من الصواب القول إنهم لا يذهبون إلى المسرح؛ بل من الأدق القول إنهم يفرُّون منه.

لكن كان هذا حفلَ شاي رسميًّا، ولم يكن هناك مجال لقول الحقائق المُرة. وسألت لوسي إدوارد أدريان إن كان ينوي حضور العرض أم لا، فبدت الآنسة لوكس منزعجةً من ذلك. لم يسمع إدوارد أدريان عن العرض من قبل، لكنه كان حريصًا على معرفة المزيد وأعرب عن حماسته. فقد مرَّت سنوات منذ أن شهد تدريبًا بدنيًّا يتجاوز وضعَ أصابع القدمين تحت خزانة الملابس وهزَّ الجذع. رقص؟ يا إلهي، هل هناك رقص؟ سوف يأتي بالتأكيد. حتى إنه دعاهما إلى المسرح بعد انتهاء العرض، ثم تناولا العشاء معه بعد ذلك.

«أعلم أن كاثرين تكره المسرح، ولكن يمكنكِ تحمُّله هذه المرة، أليس كذلك يا كاثرين؟ سنعرض مسرحية «ريتشارد الثالث» مساء الجمعة؛ لذا لن تُضطري إلى مشاهدتي في دور رومانسي. إنها ليست مسرحية جيدة، ولكن الإخراج المسرحي رائع، حتى وإن كنت أنا مَن أقول هذا، وهو ما يجب ألا أقوله.»

أعربت لوكس عن رأيها قائلة: «اتهام ظالم لرجل محترم، ومثال واضح على التلاعب السياسي، ومسرحية سخيفة للغاية.»

ابتسمَ أدريان ابتسامةً عريضة تشبه ابتسامة تلاميذ المدرسة. وقال: «حسنًا، ولكن تحمَّليها وسوف تستمتعين بالعشاء الفاخر بعد ذلك في ميدلاند في لاربورو عند استضافتهم لمثل بائس. إنهم يقدِّمون هناك نبيذ جوهانسبرجر.»

ظهر لونٌ خفيف على وجْنتَي لوكس أخيرًا.

«أترَين، أنا أتذكَّر ما تحبينه. إن نبيذ جوهانسبرجر يشبه في نكهته روائحَ الزهور كما قلتِ من قبل، ولن تشعري بأجواء المسرح الكئيبة.»

«لم أقُل قط إن أجواء المسرح كئيبة. بل أقول إنه أصبح عتيقًا وباليًا.»

«بالتأكيد هو كذلك. فهو موجود منذ قرابة ٢٠٠ عام.»

«هل تعلم بماذا يذكِّرني؟ عربة التتويج. شيء قديم الطراز وعفا عليه الزمن وما زلنا نستخدمه بسبب الارتباط العاطفي به. بقايا أثرية مطلية بالذهب ...»

وصل الماء في الغلاية لدرجة الغليان، وسكبت كاثرين الماء الساخن في إبريق الشاي.

«أَعطي الآنسةَ بيم شيئًا لتأكله يا تيدي.»

شعرت لوسي إن تلك لهجة طفولية بعض الشيء، وأخذت إحدى الشطائر من الطبق الذي قدَّمه لها. هل هذا ما يجذبه؟ هل كان نوعًا من الحنين إلى عالَم يُقبل فيه كما هو؟ إنه لن يتحمل مثل هذا العالَم مدةً طويلة بالتأكيد، ولكن من المحتمل جدًّا أنه قد سَئم أحيانًا من الحياة التي تحكمها المظاهر، ووجد العزاء بصحبة شخص هو في نظره مجرد تيدي أدريان، الشخص الذي اعتاد زيارته خلال العطلات.

استدارت لوسي لتقول له شيئًا، وتفاجأت بنظرته إلى كاثرين وهي ترفض المأكولات المختلفة. كانت نظرة استمتاع ومودَّة، فيها من نظرة الأخ لأخته، ولكن كان هناك أيضًا شيء آخر. أكان شعورًا باليأس؟ شيء من هذا القبيل. شعور لا يتناسب مع السياق الأخوي، شعور غريب جدًّا من نجم عظيم مثل إدوارد أدريان تجاه محاضِرة النظريات غير الجذابة الساخرة في لايز.

نظرت لوسي إلى كاثرين غير المنتبِهة ولأول مرة رأتها من خلال عيون إدوارد أدريان. رأتها ذات جمال غير تقليدي. ففي هذه البيئة الأكاديمية، تعتبر ملابسها الجيدة وتسريحة شعرها البسيطة وعدم وضعها مساحيق التجميل أشياءَ صحيحة ولائقة، وتعتبر رشاقتها وحركتها الرشيقة أمرًا بديهيًّا. إنها الآنسة لوكس الذكية غير الجذابة. ولكن في عالم المسرح، كم ستكون مختلفة! هذا الفم الواسع الطري، عظمتا الخد المرتفعتان هاتان بالفجوة تحتهما، هذا الأنف القصير المستقيم، الفك المُحدد النحيف ... كلها سماتٌ تحتاج بشدة إلى مساحيق التجميل. وفقًا للمعايير المعتادة، كان لدى كاثرين لوكس وجهٌ يصفه الصبية بأنه «يُذهب العقول»، ولكن من منظور مختلف، كان لوجهها القدرة على جعل الناس في مطعم إيريس يتوقفون عن الأكل إذا دخلت عليهم وقت الغداء مرتديةً ملابسَ أنيقة وواضعة مساحيق تجميل.

إنها مزيجٌ من شخص يتمتَّع بجمال غير تقليدي وتعرفه من الماضي. وبقيت لوسي مشغولةً بتلك الأفكار حتى نهاية حفل الشاي.

بمجرد أن بدا الأمر مناسبًا، اعتذرت لوسي وتركت إدوارد أدريان والآنسة لوكس وحدَهما لإجراء المحادثة الخاصة التي بدا واضحًا أنه يريدها؛ المحادثة الخاصة التي حاولت الآنسة لوكس عدم إجرائها. توسَّل إدوارد أدريان إلى الآنسة لوكس أن تقبل الدعوة إلى العرض المسرحي ليلة الجمعة ... موضحًا أن سيارته ستكون بانتظارها، وأن عرض الكلية سينتهي في السادسة مساءً، وأن عشاء الكلية سيكون عاديًّا بالمقارنة، ووعدها أن مسرحية «ريتشارد الثالث» قد تكون سخيفة ولكنها ستكون ممتعة، وأن الطعام في ميدلاند رائع للغاية؛ إذ إن المطعم قد اجتذب طاهيًا ماهرًا من مطعم بونو في شارع دوفر، وأنه لم يرَ كاثرين منذ وقت طويل، ولم يتحدَّث بما يكفي مع الآنسة بيم الذكية التي ألَّفت الكتاب الرائع، وأنه قد سئم إلى حدٍّ ما صحبةَ الممثلين الذين لا يتحدثون إلا عن المسرح والجولف، وأنهما يمكنهما المجيء فقط لإرضائه، ومع سحره التمثيلي المتمرس ورغبته الصادقة في أن تقولا نعم، اتُّفق على أن يعودا معه ليلة الجمعة إلى لاربورو، ليشاهدا مسرحيتَه «ريتشارد الثالث»، والتمتُّع بعشاء جيد مكافأةً لهما، وأن يوصلهما إلى لايز.

عندما ذهبت إلى الجناح، وجدت لوسي نفسها مكتئبة قليلًا. فقد أخطأت مرةً أخرى بشأن الآنسة لوكس. فلم تكن الآنسة لوكس امرأةً غير جذابة وغير مرغوب فيها، قرَّرت تكريسَ حياتها لأختها الصغرى الجميلة تعويضًا لها. لقد كانت امرأةً يمكن أن تكون جذابة، ولا تحتاج إلى تعويضٍ يُذكر؛ لدرجةِ أنها لا تُعِير أحدَ أكثر الرجال نجاحًا ووسامة في العالم اليوم اهتمامًا.

لقد كانت مخطئة تمامًا بشأن الآنسة لوكس. كونها طبيبةً نفسية، بدأت تشعر أن تدريس اللغة الفرنسية كان مجالًا أكثر مناسبة لها.

الفصل الخامس عشر

الشخص الوحيد الذي اهتمَّ اهتمامًا شديدًا بزيارة إدوارد أدريان للكلية كان السيدة لوفيفر. فقد شعرت أن من حقها الجلوس معه أثناء زيارته للكلية، بصفتها الشخص المهتم بعالَم المسرح فيها. كما لَمَّحت للآنسة لوكس أنها ليس لديها الحق أصلًا في معرفة إدوارد أدريان، وحتى وإن عرفته، فلا يحق لها الاستحواذ عليه أثناء زيارته. ولكنها شعرت بالارتياح عندما علمت أنها ستتمكن من مقابلته شخصيًّا يوم الجمعة، وستتمكن من التحدُّث معه باللغة التي يفهمها، إن جاز التعبير. فقد لَمَّحت للحاضرات أن إدوارد بالتأكيد شعر بالغُربة وسط أناس مختلفين عنه أثناء وجوده في كلية لايز للتدريب البدني.

وبينما كانت لوسي تستمع إلى تعليقات السيدة لوفيفر، التي تحمل في طياتها انتقاداتٍ حول الغداء يوم الخميس، تمنَّت في داخلها ألا تلقى السيدة لوفيفر استحسانَ أدريان لدرجة أن يدعوها إلى حفل العشاء؛ فقد كانت لوسي تنتظر ليلة الجمعة باشتياق، وسيتلاشى هذا الاشتياق بكل تأكيد إذا انضمت السيدة لوفيفر إليهم، وظلَّت تحدق فيها بعينيها طوال المساء. ربما سوف تتدخل الآنسة لوكس لتمنع مجيئها معهم. فليس من عادة الآنسة لوكس تحمُّل ما لا تطيقه.

وأثناء تفكيرها في السيدة لوفيفر والآنسة لوكس ومساء غد، ألقت لوسي نظرةً شاردة على الطالبات، ووقعت عيناها على وجه إينيس. وتوقَّف قلبها للحظة.

فكَّرت لوسي في أنه قد مرت ثلاثة أيام منذ أن رأت إينيس لأكثر من لحظة عابرة؛ ولكن هل يمكن أن تفعل ثلاثة أيام كل هذا بوجه فتاة صغيرة؟ أمعنت لوسي النظر في وجه إينيس محاوِلةً معرفة طبيعة التغيير الذي طرأ عليها. لقد بدت أنحف، وبدا لونها شديد الشحوب بالتأكيد، ولكن ليس هذا هو التغيير الذي تلاحظه. لم تكن الهالات تحت عينيها ولا التجويف البسيط في صدغها. لم تكن حتى تعبيرات وجهها؛ فقد كانت تتناول طعام الغداء

وعيناها عالقتان في الطبق في هدوء واضح. ولكن وجهها صدم لوسي. وتساءلت في نفسها عما إذا كان الجميع يرون ذلك؛ وتعجَّبت كيف أنه لم يذكر أحدٌ ذلك. فقد كان التغيير شديد الوضوح، لكن في الوقت نفسه يصعُب تحديده ومعرفة ماهيته، كالتعبير على وجه الموناليزا؛ تعبير من الصعب وصفُه ومن المستحيل تجاهله.

فكَّرت لوسي في أن هذا إذن ما يُطلق عليه «الاحتراق الداخلي». فقد قالت بو: «أمر سيئ أن يحترق الإنسان داخليًّا.» بالتأكيد هو أمر سيئ إذا كان ينتج عنه وجهٌ كهذا. فكيف لوجهٍ أن يكون هادئًا وفي الوقت نفسه يبدو هكذا؟ كيف يمكن لشخص في هذه الظروف أن يحتفظ بمثل هذا الهدوء وهو يعاني داخليًّا؟

تحوَّل نظر لوسي إلى بو الجالسة على رأس الطاولة الأقرب، ولمحت نظرة بو القلِقة لإينيس.

سألت الآنسة هودج لوكس: «آمُل أن تكوني أعطيتِ السيد أدريان بطاقةَ دعوة.»

أجابت لوكس التي سئمت الحديث عن أدريان: «لا.»

«وآمُل أن تكوني قد أبلغتِ الآنسة جوليف بحضور شخص إضافي إلى حفل الشاي.»

«إنه لا يأكل أثناء تناول الشاي؛ لذا لم أهتم.»

أوه، توقَّفا عن هذا الهراء، أرادت لوسي أن تقول لهما هذا، وانظرا إلى إينيس. ماذا يحدث لها؟ انظرا إلى الفتاة التي كانت تشع بهجةً ظهر السبت الماضي فقط. انظرا إليها. بماذا تذكِّركما؟ وهي جالسة يظهر عليها الهدوء والجمال، ولكن ثمة اضطرابٌ في الداخل. بماذا تذكِّركما؟ بأحد النباتات الزاهية التي تنمو في الغابات، أليس كذلك؟ واحدة من الأشياء التي تبدو رائعة ومكتملة، ولكنها تصير هباءً عند لمسها؛ لأنها خاوية من الداخل.

قالت لوسي للوكس بحذرٍ فيما بدا تقليلًا من حجم المشكلة وهما يصعدان الدَّرج: «إينيس لا تبدو على ما يُرام.»

قالت لوكس صراحةً: «يبدو عليها الإعياء الشديد. هل يفاجئك ذلك؟»

سألت لوسي: «ألا يوجد ما نفعله حيال ذلك؟».

قالت لوكس بنبرةٍ ساخرة: «الحل هو أن نجد لها وظيفة تتناسب وقدراتها. وبما أنه لا توجد أي وظيفة على الإطلاق، فلا يوجد حلٌّ على الأرجح.»

«تقصدين أنه عليها أن تبدأ في التقديم على وظائف بنفسها؟»

«نعم. فنهاية الفصل الدراسي بعد أسبوعين فقط، وعلى الأرجح لا يوجد أي وظائف أخرى في جَعبة الآنسة هودج الآن. فغالبية وظائف شهر سبتمبر قد شُغلت بالفعل. إنها

مفارقة مريرة، أليس كذلك؟ لقد تحوَّلت الطالبة الاستثنائية التي لدينا منذ سنوات إلى فتاة مسئولة فحسب عن طلبات التقديم للوظائف المكتوبة بخط اليد مع خمس نسخ من شهادات التزكية غير القابلة للاسترجاع.»

شعرت لوسي أن الوضع محبِط؛ محبط للغاية.

«لقد عُرضت عليها وظيفة، وهذا يبرئ ذمة الآنسة هودج.»

قالت لوسي: «لكنها وظيفة في المجال الطبي، وهي لا تريد ذلك.»

«أوه، نعم، نعم! ليس عليكِ أن تقنعيني؛ فأنا مقتنعة بالفعل بما تقولينه.»

فكَّرت لوسي في الغد، عندما يأتي الآباء إلى الكلية وتصطحبهن بناتهن في جولة في أنحاء الكلية، فخورات بالسنوات التي قضينها فيها وبالإنجاز الجديد الذي حقَّقْنه. كم كانت إينيس تنتظر هذا اليوم بشغف؛ تنتظر اليوم الذي ترى فيه والديها اللذين يحبانها، واللذين تولَّيا رعايتها وضحَّيا من أجلها لإتاحة الفرصة لها بالحصول على التدريب الذي ترغبه؛ تنتظر اليوم الذي تقدِّم لهما فيه فرصة عملها في أرلينجهيرست هديةً بين أيديهما.

كان تَخرُّج طالبة من دون أن تحصل على وظيفة أمرًا صعبًا في حد ذاته، لكنه أمر يمكن تداركه. ولكن ما لا يمكن أبدًا تداركه هو شعور الظلم المصاحِب لذلك. فمن وجهة نظر لوسي، فإن الشعور بالظلم شعورٌ صعبٌ تحمُّله مقارنةً بأي علة أخرى تقريبًا. وتذكَّرت عندما تعرَّضت للظلم في صغرها، تذكَّرت شعور الألم المُربِك والغضب العاجز واليأس الذي اعتراها. كان الغضب العاجز هو الشعور الأسوأ؛ فهو يفتك بالإنسان مثل النار. ولا يوجد مفرٌّ منه؛ إذ لا يوجد أيُّ شيء يمكن للإنسان فِعله. إنه شعور مدمِّر بالتأكيد. رأت لوسي أنها تفتقر إلى حس الدعابة مثل إينيس. ولكن هل يمتلك الصغار الآليات النفسية التي تمكِّنهم من استيعاب أحزانهم والتحكم فيها بالطريقة السليمة؟ بالطبع لا. فمن يذهب إلى الطابق العلوي ويشنق نفسه لأن شخصًا ما قال له كلمةً جارحة في وقتٍ غير مناسب ليس شخصًا في الأربعين من عمره، بل مراهقٌ في الرابعة عشرة.

رأت لوسي أنها تعرف شعور الغضب الشديد وخيبة الأمل الذي تعانيه إينيس. ولكن يُحسب لإينيس تمامًا نجاحها في التعامل مع الصدمة بعزة نفس ظاهرة. ففتاة بطبع مختلف كانت ستتحدث عن الأمر مع الجميع وتستجدي التعاطف مثل مُغَنِّي الطرقات، الذين يجمعون العملات المعدنية في قبعاتهم. ولكن إينيس لم تفعل ذلك. فقد تفتقر لروح الدعابة — الصلابة النفسية كما قالت بو — ولكن معاناتها بسبب ذلك هي شأنها

وحدها؛ وليست مشاعًا للجميع ... وبالأخص الأشخاص الذين أشارت إليهم لا شعوريًّا بـ «الفتيات».

لم تجد لوسي طريقةً مناسِبة للتعبير عن تعاطفها، طريقة لا تعبِّر عن رأيها الشخصي فيما حدث؛ فتقديم الزهور والحلوى وجميع المبادرات الودية ليست مناسبة، ولم تجد أي بديل آخر لها؛ كما أنها شعرت بالاستياء من نفسها الآن؛ إذ أدركت أن معاناة إينيس، على الرغم من كون الفتاة تقيم في الغرفة المجاورة لها طوال الليل، قد بدأت تصبح مسألة ثانوية. فلوسي تتذكَّر الموضوع فقط كلَّ ليلة عند عودة إينيس إلى غرفتها بعد جرس الذهاب إلى غرفة النوم، وعندما تذكِّرها الضوضاء البسيطة في الغرفة المجاورة بوجود الفتاة. تظل لوسي تفكر في الفتاة قليلًا وتقلق بشأنها قبل أن تخلد إلى النوم. ولكن أثناء الأيام المليئة بالأحداث كانت تنساها تقريبًا.

لم تخطِّط راوس لإقامة حفل مساء السبت للوظيفة الجديدة؛ ولكن لا أحد يعرف إن كان ذلك بدافع الكياسة، لعلمها بشعور جميع مَن في الكلية حيال هذه المسألة، أو أن ذلك يُعَد توفيرًا للنفقات، وهي صفة اشتهرت بها راوس. أما الحفل الكبير الذي كان يُخَطَّط له بحماسة احتفالًا بإينيس فلم يَعُد يسمع عنه أحد؛ وكان واضحًا أن فكرة إقامة حفل كبير لراوس لم تكن مطروحة.

على الرغم من أن لوسي لم تكن موجودة في الكلية في ذروة الأحداث عندما كان الجميع يتحدَّث عن موضوع وظيفة أرلينجهيرست بحرية كبيرة، فإن الفتيات بَدَونَ متحفظاتٍ بطريقة غريبة في الحديث عن هذا الأمر. حتى الآنسة موريس، التي عادةً ما تثرثر بغير حساب كل صباح عند تقديم صينية الطعام، لم تتحدَّث في الأمر. في هذه المسألة، شعرت لوسي بأنها في نظر الفتيات عضوة من عضوات هيئة التدريس، دخيلة، وربما يُنظر إليها على أنها شخص يتقاسم اللوم. وأزعجت هذه الفكرة لوسي.

ولكن أكثر ما كان يزعجها، وهو ما لا تستطيع الآن إبعاده عن تفكيرها، هو يوم غد الكئيب لإينيس. الغد الذي بذلت الفتاة الجهد طوال السنوات الماضية من أجله، الغد الذي كان من المفترض أن يكون يوم انتصار لها. وتمنَّت لوسي بشدة لو كانت تستطيع توفيرَ وظيفة لها من فورها؛ إذ تمنَّت ألا تصل السيدة المتعَبة السعيدة ذات العينين اللامعتين غدًا إلى الكلية بعد طول انتظار لتجد ابنتَها خاليةَ الوفاض.

لكن بالطبع لا يمكن أن تتنقل من مكان لآخر لتروِّج لمدرب تربيةٍ بدنية كما لو كانت تبيع دفترًا؛ ولا يمكن أن تعرضها على معارفها كما لو كانت تعرض فستانًا ذا مقاس غير ملائم. فالنية الحسنة لم تكن كافية. وهي لا تملك في الحقيقة سوى النية الحسنة.

حسنًا، سوف تستخدم النية الحسنة وترى ما يمكنها فِعله بها. فاتبعت الآنسة هودج إلى مكتبها بينما صعِد الآخرون إلى الطابق العلوي، وقالت لها: «هنرييتا، ألا يمكننا إيجاد وظيفة للآنسة إينيس؟ فليس من الصواب تركها دون وظيفة.»

«الآنسة إينيس لن تبقى دون عمل فترةً طويلة. ولا أستطيع أن أرى كيف يمكن مواساتها بوظيفة مُتخيَّلة في الوقت الحالي.»

«لم أقل تَخيُّل وظيفة، قلت إيجاد وظيفة؛ البحث لها عن وظيفة. فلا بد أن هناك عشرات الوظائف التي لا تزال شاغرة في أنحاء البلاد. ألا يمكننا توفير وظيفة لإينيس بأي طريقة من دون أن تمرَّ هي بمرحلة التقديم البطيئة المليئة بالتوتر؟ هذا الانتظار يا هنرييتا. هل تذكرين كيف كان شعورنا؟ استمارات التقديم المكتوبة بعناية، وشهادات التزكية التي لم تُعَد قط.»

«لقد عرضتُ على الآنسة إينيس بالفعل وظيفةً ولكنها رفضتها. لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل. ليس لدي وظائف شاغرة أخرى لها.»

«لا، ولكن يمكنك التواصل مع بعض أصحاب الوظائف الشاغرة المُعلَنة نيابةً عنها، أليس كذلك؟»

«أنا؟ لكن هذا غير معتاد. وغير ضروري. فهي في الطبيعي تُدرِج اسمي في قائمة الأشخاص الذين يُرجع إليهم عند تقديمها في أي وظيفة؛ وإذا لم تكن جديرة بالتوصية ...»

«ولكن يمكنك ... أوه، يمكنك السؤال عن تفاصيل إحدى الوظائف؛ إذ إن لديك طالبة استثنائية ...»

«أنتِ تتصرفين بغرابة يا لوسي.»

«أعرف ذلك، لكنني أريد حقًّا أن تكون إينيس مطلوبة للعمل بشدة بحلول الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم.»

حدَّقت الآنسة هودج، التي لم تكن تقرأ لروديارد كيبلينج — أو معترفة بوجوده بالتأكيد — في لوسي.

«بالنسبة لشخص ألَّف كتابًا جديرًا بالثناء ككتابك — أشاد البروفيسور بياتوك به بالأمس أثناء حفل الشاي في الجامعة — فإن لديك عقلًا مندفعًا وأرعنَ رعونةً غير عادية.»

هزمت هذه الكلمات لوسي، التي كانت تدرك حدودها العقلية. ووقفت، منكمشة، تنظر إلى ظهر الآنسة هودج العريض التي تُطلُّ من النافذة.

«أخشى أن يتغيَّر الطقس تغيُّرًا كبيرًا. لم تكن التوقعات هذا الصباح مطمئنة، وبعد هذا الصيف الرائع، نحن على وشْك أن نشهد تغيُّرًا. سيكون الأمر مأساويًّا إذا حدث ذلك غدًا من بين كل الأيام.»

مأساوي بالتأكيد! يا إلهي، أيتها المرأة السمينة الحمقاء، أنتِ مَن تملكين عقلًا أرعن. قد أمتلك ذكاءً محدودًا ودوافع طفولية، ولكني أعرف المأساة عند رؤيتها، وهي لا علاقة لها بالأشخاص الذين يتدافعون لحماية ملابس الحفل الخاصة بهم أو حماية شطائر الخيار من البلل. لا، بالتأكيد لا.

أجابت لوسي بتواضعٍ قائلة: «نعم، سيكون أمرًا مؤسفًا»، وصعِدت إلى الطابق العلوي.

وقفت لوسي قليلًا تنظر من نافذة بسطة الدَّرج تراقب السُّحب السوداء الكثيفة المتجمعة في الأفق، وتمنَّت أُمنية شريرة، وهي أن تهطل الأمطار الغزيرة غدًا على لايز مثل شلالات نياجرا، حتى يمتلأ المكان بأشخاص مبتلين يحاولون تجفيف ملابسهم مثلما يُجفَّف الغسيل. لكنها لاحظت من فورها قسوةَ هذه الأمنية، فتراجعت بسرعة. فالغد هو يومهن العظيم، بوركن؛ اليوم الذي بذلن الجهد من أجله، وتحملن الكدمات والسخرية والتحديات الجسدية والكسور والصعوبات، وكل ذلك وهنَّ يحلُمن ويبكين ويكرِّسن حياتهن لذلك. فسيكون من العدل أن تشرق الشمس عليهن.

بالإضافة إلى أنه من المؤكد أن السيدة إينيس ليس لديها سوى حذاء واحد أنيق.

الفصل السادس عشر

خلال فترة إقامتها في لايز، استيقظت لوسي مبكرًا قليلًا في صباح كل يوم مقارنةً باليوم الذي يسبقه. ففي بداية فترة إقامتها، وبمجرد أن يتوقف صخب جرس الخامسة والنصف صباحًا، كانت تتقلب على الجانب الآخر وتخلد إلى النوم مجددًا. ولكن قوة العادة قد بدأت تترسخ. فلم تتوقف فحسب عن النوم مجددًا بعد سماع الجرس، بل زاد انتباهها في اليوم أو اليومين الأخيرين؛ لدرجة أنها أصبحت تدرك من أعماقها أن جرس الاستيقاظ على وشْك أن يرنَّ. وفي صباح يوم العرض، حققت إنجازًا كبيرًا باستيقاظها قبل بوق الاستيقاظ.

ما أيقظ لوسي من نومها في صباح يوم العرض هو خفقان بسيط في المنطقة أسفل عظمة القص، وهو شعور لم تشعر به منذ طفولتها. كان شعورًا مرتبطًا بالأيام التي تُوَزَّع فيها الجوائز في المدرسة. وكان للوسي دائمًا نصيبٌ في إحدى هذه الجوائز. لكنها للأسف لم تحصُل مطلقًا على جائزة مميزة — كانت تحصُل على المركز الثاني في اللغة الفرنسية، أو المركز الثالث في الرسم، أو المركز الثالث في الغناء — ومع ذلك، كانت راضية بالطبع عن تلك الإنجازات. وأيضًا من حين لآخر، كانت هناك فرصة في أيام توزيع الجوائز لعزف مقطوعة موسيقية — مثل المقدِّمة الموسيقية لرخمانينوف؛ التي تُعزَف باستخدام إيقاع دا-دي-دي، وليس إيقاع دا-دا-دا؛ مع التركيز الشديد على دي-دي-دي — ومن ثمَّ كانت لوسي تشتري فستانًا جديدًا لحضور هذه المناسبة. ومن هنا جاء الإحساس بالخفقان. واليوم، وبعد كل هذه السنوات، شعرت لوسي بالشعور نفسه. فعلى مرِّ السنين، عادةً ما كان أي إحساس بالخفقان في تلك المنطقة سببه مجرد عُسر هَضم (إن صحَّ استخدام كلمة «مجرد» مع عُسر الهضم). والآن، بما أنها قد أصبحت جزءًا من الشابات المتحمسات من حولها، فقد شاركتهن حماستهن وترقُّبهن.

استوت لوسي جالسةً على الفراش وألقت نظرة على الطقس من النافذة. بدت السماء ساكنة ورمادية، وظهر ضباب مُنعش قد يختفي لاحقًا، مما جعل النهار حارًّا ومُشمسًا. نهضت لوسي من الفراش واتجهت صوب النافذة. كان الجو ساكنًا بالخارج. وكانت الحركة الوحيدة في ظل الجو الرمادي الساكن هي حركة قطَّة الكلية، وهي تمشي على الأحجار المبتلة بفعل الندى وتهز قدمها في انزعاج. كما غطَّى الندى الأعشاب، وكانت لوسي، التي لديها حبٌّ غير معتاد للأعشاب الرطبة، تشعر بالسعادة عند النظر إليها.

وفجأةً دق الجرس ليمزق جدار الصمت. فهربت القطة مسرعة، كما لو أنها تذكَّرت شيئًا مهمًّا. وسار جيدي في طريقه إلى صالة الألعاب الرياضية، وسرعان ما سُمِع الصوت الخافت لِمكنسته الكهربائية، الصوت الذي يشبه صافرات الإنذار من بعيد. ومن الغرف الصغيرة في جميع أنحاء المبنى، سُمعت الآهات، والتثاؤب، وسُمعت أصوات الفتيات يسألن عن الطقس، لكن لم يأتِ أحدٌ إلى النافذة للنظر إلى الخارج؛ بدت عملية النهوض من الفراش وكأنها صراعٌ كبير يريد الجميع تأجيله حتى اللحظة الأخيرة.

قرَّرت لوسي أن ترتدي ملابسها وتخرج في هذا الصباح الرمادي المُلَبَّد بالغيوم، في هذا الطقس البارد والرطب والرائع. سوف تذهب لترى كيف يبدو الحوذان من دون انعكاس الشمس عليه. سيبدو لونه على الأرجح وهو مبتلٌّ أصفرَ فاقعًا. فاغتسلت بسرعة وارتدَت أثقل ملابس معها ووضعت معطفًا على كتفيها، وخرجت إلى الرَّدهة الساكنة ونزلت الدَّرج الخالي. توقَّفت بجانب باب المبنى لتقرأ الإشعارات على لوحة الطالبات؛ كان بعضُها غامضًا، والبعض الآخر متخصصًا، والبعض الثالث واضحًا. «نُذكِّر الطالبات أنه يمكن اصطحاب الوالدين والزوَّار إلى أجنحة غرف النوم والعيادة، ولكن ليس إلى المنطقة أمام المبنى.» «نُذكِّر طالبات السنوات الأولى أن عليهن مساعدة العاملات في تقديم الشاي للضيوف.» وفي مكانٍ بمفرده، كُتب إعلان بسيط آخر بالأحرف البارزة:

ستُوزَّع الشهادات صباح الثلاثاء في تمام التاسعة.

وبينما كانت لوسي ذاهبة باتجاه الممشى المُغطَّى، تخيَّلت شكل الشهادات وكأنها لفائفُ فاخرة حولها شريط، لكنها بعد ذلك تذكَّرت أنه حتى فيما يتعلق بالشهادات، فإن لهذا المكان أسلوبه الخاص. فقد كانت الشهادات في هذا المكان شاراتٍ توضع على المعاطف؛ شارات صغيرة مصنوعة من المينا والفضة، تُثبَّت على الجانب الأيسر من ملابس العمل، وستشير هذه الشارات إلى المكان الذي درسن فيه وهن طالبات وما حقَّقنه.

خرجت لوسي إلى الممشى المُغطَّى وتسكَّعت على طوله نحو صالة الألعاب الرياضية. كان جيدي قد انتهى بالفعل منذ مدة من التنظيف — كانت قد رأته من نافذتها قبل مغادرة غرفتها يتأمل الأزهار التي زرعها في الجانب البعيد من الحديقة — وكان واضحًا أن راوس قد انتهت بالفعل من تدريبها الصباحي — كانت آثار حذائها الرياضي الرطب واضحةً بعض الشيء على الأرض الخرسانية — وهذا يعني أن صالة الألعاب الرياضية كانت خالية حينذاك. توقَّفت لوسي وهي على وشْك السير على طول الطريق المجاور للجدار الجانبي، ودخلت إلى صالة الألعاب الرياضية من الباب المفتوح على مصراعيه. كانت قاعة الانتظار الخالية رائعةً مثل مضمار السباق قبل وصول الحشود، أو مثل أي ساحة خالية قبل امتلائها بالناس والأنشطة. فخلوُّ القاعة من الناس والهدوء والضوء الأخضر، الذي يشبه الضوء تحت الماء، كل هذا قد أعطى المكان طابعَ العظمة والغموض، الذي لم يكن موجودًا فيه خلال النهار. وفي الصالة، بدت القطعة الوحيدة من المعدَّات التي استخدمها راوس (العارضة) كأنها تطفو في الظل، وانعكس الضوء المُنساب من المرايا الموجودة أسفل الشُّرفة خافتًا على الجانب الآخر من القاعة، مما خلق تأثيرًا بصريًّا مُتموِّجًا.

تمنَّت لوسي أن تصرخ فقط لتسمع صوتها في الصالة الفسيحة الخالية، أو أن تتسلق أحد قضبان الحائط لترى إذا كان بإمكانها فعل ذلك من دون أن تُصاب بسكتة قلبية؛ لكنها اكتفت بالتحديق. فامرأة في سنها، كان يكفيها التحديق؛ وهو نشاطٌ تجيد فعله.

لمع شيء على الأرض في منتصف الطريق بينها وبين العارضة؛ شيء صغير وساطع. بدا للوسي أنه مسمار أو ما شابه ذلك؛ ثم تذكَّرت أنه لا توجد مسامير في أرضيات صالة الألعاب الرياضية. فتقدَّمت بشيء من الفضول والتقطت هذا الشيء. كان وردةً صغيرة مثقوبة، مسطَّحة الشكل، مصنوعة من معدن يشبه الفضة؛ ومن دون تفكير كثير، وضعتها في جيب معطفها واستأنفت سيرها، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة. فإن كان الخفقان في المنطقة أسفل عظمة القص الذي شعرت به هذا الصباح قد ذكَّرها بأيام المدرسة، فإن هذه القطعة الدائرية المعدنية الصغيرة قد ذكَّرتها بوضوحٍ أكثر بالحفلات التي اعتادت حضورَها في طفولتها. وبمجرد أن بدأ عقلها الواعي في استيعاب ماهية هذا الشيء، كانت قد انتقلت بذاكرتها إلى أيام الحفلات المليئة بالمقرمشات وحلوى الجيلي والفساتين الحريرية البيضاء، وفي هذه الرحلة الذهنية، وجدت نفسها تلبَس حذاءً جلديًّا برونزيَّ اللون، به مطاط عند الكاحلين، ووردة فضية صغيرة مثقوبة على كل إصبع من أصابع قدميها. وبينما كانت تسير نحو بوابة الحقل، أخرجت الوردة من جيبها مرةً أخرى وابتسمت،

وهي تتذكَّر الأيام الخوالي. كانت قد نسيت تمامًا تلك الأحذية البرونزية التي كانت تلبَسها؛ كانت هناك أحذية سوداء أيضًا، ولكن جميع الأشخاص الأنيقين كانوا يلبَسون أحذية برونزية. وتساءلت في نفسها مَن في الكلية يلبَس مثل هذا الحذاء. فالفتيات في الكلية يلبَسن أحذيةَ باليه للرقص، سواء أكان لها جزء أمامي قوي أم لا؛ ويلبَسن أحذية رياضية من الجلد ملحومًا بها جزءٌ مطاطي عند مشط القدم. ولم ترَ لوسي مطلقًا أحدًا يرتدي هذه الأحذية التي عليها زخارف صغيرة عند أصابع القدم.

ربما تستخدمهما راوس أثناء الركض إلى صالة الألعاب الرياضية في الصباح. فمن المؤكد أن الحلية قد أُسقطت هذا الصباح؛ إذ إن المكنسة الكهربية التي يستخدمها جيدي تشفط أي شيء غير مُؤمَّن بإحكام في صالة الألعاب الرياضية.

وقفت لوسي عند البوابة فترةً قصيرة لكن الجو كان باردًا ومخيبًا للآمال؛ كانت الأشجار غير مرئية بفعل الضباب، وتغيَّر لون الحوذان إلى البُني المحمرِّ وسط المروج الرمادية، وأصبح سياج أشجار مايو يشبه الجليد المتَّسخ. لم ترِد العودة إلى المبنى قبل الإفطار؛ لذا مشت إلى ملاعب التنس؛ حيث كانت طالبات السنوات الأولى يُصلحن الشباك — قلن لها إن هذا اليوم مخصَّص للقيام بأعمال متنوِّعة، وهو اليوم الذي يحافظن فيه على طاقتهن استعدادًا لما سيُطلب منهن لاحقًا خلال اليوم — فبقيت معهن تتحدَّث إليهن وتساعدهن في عملهن، حتى حان وقت الإفطار فعُدنَ جميعًا إلى الكلية. وعندما أبدت الفتيات استغرابهن من استيقاظ لوسي مبكرًا قالت الآنسة موريس الصغيرة إن سبب استيقاظ الآنسة بيم مبكرًا هو سأمُها من تناول الخبز المحمَّص البارد في غرفتها، ولكن حين اعترفت لوسي صراحة بأنها لم تستطِع النوم من فرط حماستها، أبدت الفتيات سعادتهن برؤية هذه المشاعر المناسِبة للحدث تصدر من شخص غريب عنهن، ووعدنها أن التجربة الفعلية ستتجاوز توقعاتها بكثير. يبدو أنها لم تشهد شيئًا رائعًا بعد.

غيَّرت لوسي حذاءها المبلَّل، وتعرَّضت لتعليقات مازحة من عضوات هيئة التدريس المتجمعات بسبب فرط نشاطها، ونزلت معهن لتناول طعام الإفطار.

عندما ألقت لوسي نظرة سريعة لترى كيف بدا شكل إينيس هذا الصباح، لاحظت وجود فجوة وسط الوجوه المفعمة بالحيوية. لم تكن على دراية كافية بترتيب الطالبات لتحديد الطالبة الغائبة، ولكن كان هناك بالتأكيد مقعد فارغ على إحدى الطاولات. وتساءلت في نفسها عما إذا كانت هنرييتا على علم بذلك. ألقت هنرييتا نظرتها الناقدة المعهودة على الطالبات أثناء جلوسها، ولكن بينما كانت الطالبات يجلسن، أصبح من الصعب على الفور ملاحظة غياب إحداهن.

وعلى عجل، في حال لم تكن هنرييتا على دراية بهذه الفجوة، أبعدت لوسي نظرها دون مزيد من التدقيق. فلم ترغب قط في التسبُّب في عقاب أيٍّ من الطالبات، حتى وإن كانت أساءت التصرف. فربما، بالطبع، قد مرضت إحداهن؛ وهو ما يفسِّر عدم ملاحظة أحد غيابها.

بعد أن التهمت الآنسة هودج كعكةَ السمك الخاصة بها، وضعت شوكتها في الطبق ونظرت إلى الطالبات بعينيها الضيقتين. وقالت: «اطلبي من الآنسة ناش أن تتحدَّث معي يا آنسة راج.»

فنهضت ناش من مكانها على رأس أقرب طاولة وذهبت للتحدث مع الآنسة هودج.

«هل الآنسة راوس هي الغائبة من طاولة الآنسة ستيوارت؟»

«نعم يا آنسة هودج.»

«لماذا لم تأتِ لتناول الإفطار؟»

«لا أعلم يا آنسة هودج.»

«أرسلي إحدى طالبات السنوات الأولى إلى غرفتها لتسألها عن سبب تغيُّبها.»

«حسنًا يا آنسة هودج.»

وقع الاختيار على تاتل لتؤدي هذه المهمة، وهي فتاة متبلِّدة الحِسِّ وودودة ودائمًا ما تؤدي مثل هذه المهام، وعادت بعد ذلك لتقول إن راوس لم تكن في غرفتها؛ فنُقِلَت هذه الأخبار إلى الطاولة الرئيسية بواسطة بو.

«أين كانت الآنسة راوس حين رأيتِها آخر مرة؟»

«لا أتذكَّر أنني رأيتها اليوم على الإطلاق يا آنسة هودج. كنا منتشرات هذا الصباح نؤدي أعمالًا مختلفة في أنحاء الكلية. لم نكن، مثلًا، جالسات في محاضرة، أو نتدرب في صالة الألعاب الرياضية.»

قالت هنرييتا موجِّهة كلامها إلى جميع الطالبات: «هل تعلم إحداكن أين راوس؟»

ولكن كان واضحًا أن لا أحدَ يعرف.

«هل رأتها إحداكن هذا الصباح؟»

ولكن اكتشفت الطالبات الآن أنه لم يرَها أحد هذا الصباح.

قالت هنرييتا، التي التهمت شريحتين من الخبز المحمَّص أثناء غياب تاتل: «حسنًا يا آنسة ناش»، وعادت بو لتناول وجبتها. طوت هنرييتا بعد ذلك منديلها والتقت عيناها بعينَي فروكن، ولكن فروكن كانت تنهض بالفعل من الطاولة، وقد بدا على وجهها القلق.

قالت هنرييتا: «سنذهب أنا وأنتِ إلى صالة الألعاب الرياضية يا فروكن»، فذهبتا معًا، وخرجت بقية عضوات هيئة التدريس خلفهن، ولكنهن لم يتبعنهما إلى صالة الألعاب الرياضية. وبينما كانت لوسي تصعد الدَّرج في طريقها إلى غرفتها لترتيب فراشها، أخذت تفكِّر قائلة: «كان من الممكن أن أُخبرهن أنها ليست في صالة الألعاب الرياضية. كم أنا حمقاء لأني لم أفكِّر في هذا.» رتَّبت لوسي غرفتها — وهي مهمة يُتوقع من الطالبات أداؤها، وقد وجدت لوسي أنه من العدل أن تؤديَها هي أيضًا — وهي تتساءل في نفسها طوال الوقت أين اختفت راوس؟ ولماذا؟ هل فشلت مرةً أخرى فجأة هذا الصباح في أداء تمرين العارضة البسيط وتعرَّضت لانهيار عصبي؟ هذا هو التفسير الوحيد الذي يتناسب مع الحقيقة الغريبة المتمثِّلة في غياب طالبة في أي كليةٍ عن إحدى الوجبات؛ خاصةً وجبة الإفطار.

دخلت لوسي «المنزل القديم» ونزلت الدَّرج الأمامي وخرجت إلى الحديقة. سمِعت صوت هنرييتا من المكتب، وهي تتحدث في الهاتف بسرعة؛ لذلك قرَّرت عدم إزعاجها. لا يزال يتبقَّى أكثر من نصف ساعة حتى ميعاد الصلاة؛ وسوف تقضي هذا الوقت في قراءة البريد في الحديقة، حيث كشف الضباب المُتبدِّد عن بصيص في الأجواء الرمادية التي كانت خالية من الحياة. مضت إلى مكانها المفضَّل على حافة الحديقة، الذي يوفِّر إطلالةً على المناطق الريفية المحيطة، وبقيت هناك حتى الساعة التاسعة صباحًا، ثم عادت. لقد تحسَّن الطقس الآن بلا شك؛ سيكون يومًا جميلًا؛ ولن تحدث «المأساة» التي كانت هنرييتا تخشاها.

وعندما انعطفت عند زاوية المبنى، لاحظت سيارة إسعاف تغادر من أمام الباب الأمامي وتتجه نحو الشارع. فشاهدتها باندهاش؛ لكنها خلَصت إلى أنه في مكان كهذا، قد لا يكون وجود سيارة إسعاف أمرًا مخيفًا كما هي الحال بالنسبة للأماكن الأخرى. وخمَّنت أن وجود سيارة الإسعاف قد يكون مرتبطًا بالعيادة.

وفي غرفة المعيشة، بدلًا من أن تجد جميع عضوات هيئة التدريس حاضرات كعادتهن قبل الساعة التاسعة بدقيقتين، لم تجد سوى الآنسة لوكس.

سألت لوسي: «هل ظهرت راوس؟».

«نعم.»

«أين كانت؟»

«في صالة الألعاب الرياضية، بكسر في الجمجمة.»

حتى في تلك اللحظة الصادمة، لاحظت لوسي أسلوبَ لوكس المعتاد في التعبير بإيجاز. وسألت: «ولكن كيف؟ ماذا حدث؟»

«لم يُثَبَّت الدبوس الذي يدعم العارضة جيدًا. وعندما قفزت عليها، نزلت على رأسها.»

«يا إلهي!» كادت لوسي أن تشعر بسقوط هذا الجذع الثقيل على جمجمتها. فلطالما كانت تخشى العارضة.

«ذهبت فروكن معها من فورها في سيارة الإسعاف إلى غرب لاربورو.»

«كان هذا تصرُّفًا سريعًا.»

«نعم. إن غرب لاربورو ليس بعيدًا، ولحسن الحظ، في هذه الساعة من الصباح، لم تكن سيارة الإسعاف قد خرجت، ولم يتسبَّب المرور في تأخيرها وهي في طريقها إلى هنا.»

«يا له من حظٍّ عاثر للجميع. في يوم العرض.»

«صحيح. حاولنا إخفاءَ الأمر عن الطالبات، ولكن ذهبت جهودنا سُدًى بالطبع. لذا فكلُّ ما يمكننا فعله هو التقليل من خطورة الحادث.»

«في رأيك ما مدى خطورة الحادث؟»

«لا أحدَ يعرف. الآنسة هودج أرسلت برقية إلى عائلتها.»

«ألم يكُنَّ قادمات إلى العرض؟»

«على ما يبدو. فهي ليس لديها أبوان؛ فقط عمَّة وعمٌّ تولَّيا تربيتها. والآن بعد أن فكَّرت في الأمر»، وأضافت بعد لحظة صمت: «وجدت أن راوس كانت وحيدة.» وبدت غير مدركة أنها استخدمت صيغة الماضي.

سألت لوسي: «لقد كان خطأ راوس، أليس كذلك؟»

«أو الطالبة التي ساعدتها في تجهيز العارضة الليلة الماضية.»

«ومَن التي ساعدتها؟»

«أودونيل، على ما يبدو. الآنسة هودج استدعتها للاستفسار عن الأمر.»

في تلك اللحظة، دخلت هنرييتا، واختفت كل مشاعر الاستياء الغامض التي كانت تحملها لوسي تجاه صديقتها في الأيام القليلة الماضية عند رؤيتها لوجه هنرييتا. فقد بدت هنرييتا أكبرَ بنحو ١٠ سنوات، وبدت، بشكل غريب، أخفَّ وزنًا بنحو ستة كيلوجرامات على الأقل.

قالت، وهي تكمل الموضوع الوحيد الذي يشغل بالها: «إن لديهما هاتفًا، على ما يبدو؛ لذلك سأتمكن من التحدث إليهما قبل وصول البرقية. أنا في انتظار المكالمة الخارجية الآن.

يجب أن يصلا إلى هنا قبل حلول الليل. أحتاج أن أكون موجودةً هنا لتلقِّي المكالمة؛ لذا ستتولين أمر الصلاة يا آنسة لوكس. فلن تعود فروكن في الوقت المناسب.» احتلَّت فروكن، بصفتها لاعبة جمباز قديمة، المرتبة الثانية مباشرة بعد الآنسة هودج. وأردفت هودج: «قد لا تأتي الآنسة راج للصلاة، إنها تشرف على ترتيب صالة الألعاب الرياضية. ولكن ستكون السيدة هناك، وستساعدك لوسي.»

قالت لوسي: «بالطبع. أتمنى لو كان هناك المزيد الذي يمكنني القيام به.»

طُرِق الباب، وظهرت أودونيل.

«آنسة هودج؟ هل أردتِ رؤيتي؟»

«أوه، في مكتبي يا آنسة أودونيل.»

«لم أجدك هناك؛ لذا ...»

«لا يهم الآن بما أنكِ هنا. أخبريني: عندما ساعدت الآنسة راوس في تثبيت العارضة الليلة الماضية؛ كانت أنتِ مَن ساعدها؟»

«نعم يا آنسة هودج.»

«عندما ثبَّتِّ العارضة معها، أي طرف ثبتِّه؟»

كانت هناك لحظة متوترة من الصمت. وكان من الواضح أن أودونيل لم تكن تعرف أي طرف من العارضة قد أفلت، وأن ما ستقوله خلال الثواني القادمة إما أنه سيدينها أو يُبرِّئها. ولكن عندما تحدَّثت، كان ذلك بنوع من اليأس الحازم الذي ينقل الصدق في كلماتها.

«الطرف الذي ناحية الحائط يا آنسة هودج.»

«أدخلت الدبوس في الطرف المثبَّت على الحائط؟»

«نعم.»

«والآنسة راوس ثبَّتت الجزء الذي في المنتصف؟»

«نعم يا آنسة هودج.»

«ألديك شك بشأن الطرف الذي ثبتِّه؟»

«لا، على الإطلاق.»

«ولماذا أنتِ متأكدة؟»

«لأنني كنت دائمًا أثبِّت الجزء ناحية الحائط.»

«لماذا؟»

«إن راوس أطول مني ويمكنها رفعُ العارضة أعلى مما أستطيع. لذلك كنت دائمًا أثبِّت الجزء ناحية الحائط، مما يسمح لي بوضع قدمي على قضبان الحائط.»

«فهمت. حسنًا إذن. شكرًا لك يا آنسة أودونيل لكونِك صريحة للغاية.»

استدارت أودونيل لتغادر، لكنها عادت مرة أخرى.

«أي طرف قد أفلت يا آنسة هودج؟»

قالت الآنسة هودج: «الطرف الذي في المنتصف»، وهي تنظر إلى الفتاة بشيء أقربَ إلى المودة، رغم أنها كانت تفكر في إبعادها دون تخفيف قلقها.

غمرت الألوان وجه أودونيل الشاحب في العادة. وقالت بصوت خافت: «أوه، شكرًا لكِ!» وغادرت الغرفة على عجل.

قالت لوكس: «مسكينة. لقد كانت لحظة مرعبة بالنسبة لها.»

قالت هنرييتا وهي تفكر: «ليس من عادة الآنسة راوس أن تكون مُهمِلة في تركيب المعدَّات.»

«تقصدين أن أودونيل لا تقول الحقيقة؟»

«لا، لا. من الواضح أن ما قالته كان صحيحًا. كان من الطبيعي بالنسبة لها أن تثبت الجزء الذي ناحية الحائط بحيث يمكنها الاستعانة بقضبان الحائط. ولكن ما زلت لا أفهم كيف حدث ذلك. فبصرف النظر عن حذر الآنسة راوس المعتاد، يجب إدخال الدبوس بطريقة سيئة للغاية حتى يهبط الذراع إلى هذا الحد. أيضًا، يجب أن يكون حبل الرفع مرتخيًا جدًّا تقريبًا حتى يسقط ذراع العارضة!»

«هل فعل جيدي شيئًا عن طريق الخطأ؟»

«لا أعرف ما كان يمكن أن يفعله. لا يمكنك تغيير موضع الدبوس بهذا الارتفاع دون أن يصل إليه عن قصد. إنه ليس شيئًا كان يمكن أن يلمسه عن طريق الخطأ بمعداته. وعلى الرغم من تفاخره بقوة المكنسة الكهربائية، فلا يوجد شفط يمكن أن يسحب دبوسًا من تحت عارضة.»

فكَّرت لوكس لحظة: «لا. الاهتزاز هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تغيِّر موضع الدبوس. نوع من الهزة. ولكن لم يكن هناك شيء من هذا القبيل.»

«ليس داخل صالة الألعاب الرياضية، بالتأكيد. فالآنسة راوس أغلقتها كالمعتاد الليلة الماضية وأعطت جيدي المفتاحَ، وفتحه بعد الجرس الأول مباشرةً هذا الصباح.»

«إذن لا يوجد تفسيرٌ آخر غير النظرية القائلة بأن راوس كانت مهملة للغاية لمرة واحدة. كانت آخر مَن غادر المكان وأول مَن دخله ... لن تجد أيَّ شخص هناك في تلك

الساعة من الصباح لم يكن مجبرًا على ذلك ... لذا فإن اللوم يقع على راوس. وعلينا أن نكون ممتنِّين لهذا. فالأمر سيئ بما فيه الكفاية، لكنه سيكون أسوأ بكثير إذا كان الخطأ من شخص آخر ...»

رنَّ الجرس للصلاة، ورنَّ الهاتف في الطابق السفلي بطريقة هستيرية.

سألت لوكس: «هل حددتِ الصفحة التي وقفنا عندها في كتاب الصلاة؟»

قالت الآنسة هودج: «حيث يوجد الشريط الأزرق»، وهُرعت إلى الهاتف.

سألت السيدة: «ألم تَعُد فروكن؟» بعدما ظهرت عند مدخل الباب. وتابعت: «حسنًا، دعنا نواصل الحياة. فالحياة يجب أن تستمر، إذا كان بإمكاني استخدام هذا التعبير. ودعونا نأمل ألا يكون ما سنسمعه في الصلاة هذا الصباح ذا صلة بالحدث. فالنصوص الدينية دائمًا ما تكون ذات صلة بالأحداث بوجه مدهش.»

ليست هذه هي المرة الأولى التي تتمنى فيها لوسي أن تُعزل السيدة لوفيفر في جزيرة قبالة أستراليا.

كان تجمعًا صامتًا وهادئًا في انتظارهن، وسارت الصلاة في جوٍّ من اليأس لم يكن مألوفًا وغير مسبوق. لكن مع الترنيمة، تعافَين قليلًا. لقد كانت ترنيمةً لبليك، وكان لها إيقاع عسكري قوي، وقد غنَّينها بحماسة. وكذلك فعلت لوسي.

غنَّت، منتبهةً للكلمات إلى أقصى حد: «لن أترك سيفي.» ولكنها توقفت فجأة، كما لو أن شيئًا ما أصابها.

شيء ما أصابها وجعلها غير قادرة على الكلام.

لقد تذكَّرت شيئًا التوَّة. تذكَّرت سبب تأكدها من أنهن لن يعثرن على راوس في صالة الألعاب الرياضية. كانت آثار أقدام راوس المبللة واضحة على المسار الخرساني؛ لذلك افترضت أن راوس قد جاءت إلى صالة الألعاب وغادرتها بالفعل. ولكن راوس لم تأتِ. لقد أتت راوس في وقت لاحق وتسلَّقت العارضة المهتزة وبقيت هناك حتى بعد الإفطار عندما كان الجميع يبحث عنها.

إذن ... آثار أقدام مَن؟

الفصل السابع عشر

قالت الآنسة هودج وهي تنهض من مكانها وتشير إلى عضوات هيئة التدريس أن يبقَيْن جالسات: «أنتن جميعًا أيتها الطالبات على دراية بالحادث المؤسف الذي وقع صباح اليوم؛ وهو بسبب إهمال الطالبة. إن أول ما يجب أن تتعلَّمه لاعبة الجمباز هو أن تفحص الجهاز قبل استخدامه. وإخفاق طالبة مسئولة وودودة مثل الآنسة راوس في أداء هذه المهمة الأساسية والبسيطة هو جرس إنذارٍ لكُنَّ جميعًا. هذا هو الموضوع الأول. ويوجد أيضًا موضوع ثانٍ. فبعد ظهر اليوم سنستقبل ضيوفًا. وما حدث اليوم ليس سرًّا — فلم نستطِع إخفاء الأمر، حتى إن أردنا ذلك — ولكني أطلب منكن ألا تتحدثن في هذا الموضوع. فضيوفنا قادمون اليوم للاستمتاع بوقتهم؛ ومعرفتهم أنه في هذا الصباح قد وقع حادث خطير؛ لدرجةِ أن إحدى الطالبات قد أُخِذت إلى المستشفى، من شأنه بلا شكٍّ أن يحرِمهم هذه المتعة؛ كما أن سماع هذا الخبر سيملأ بالتأكيد قلوبهم بالخوف غير الضروري عند مشاهدة العروض. لذا إذا كانت لدى إحداكن الرغبة في الحديث عما حدث اليوم باستفاضةٍ فلتكبَحْها. ما يهم هو رؤية ضيوفكن يغادرون وهم يشعرون بالسعادة، دون أي تحفظات أو ندم. وأترك الأمر لتفكيركن السليم.»

كان صباحًا مليئًا بالتعديلات؛ البدنية والذهنية والروحية. فقد عادت فروكن من مستشفى غرب لاربورو لتُجري بعض التعديلات على روتين طالبات السنة النهائية القلقات بعد أن نقصن واحدةً. وبهدوء شديد عرفن التعديلات الضرورية لهن؛ على الرغم من أنها قالت إنَّ ربعهن على الأقل كن خائفات مثل المُهَر الخائفة في كل مرة يمسكن بالعارضة الأمامية من اليمين، أو يمررن من المكان الذي وقعت فيه. سوف تكون معجزة إن تمكنَّ من أداء عرض اليوم من دون أن تفشل إحداهن في إحدى الحركات؛ قالت فروكن بيأسٍ. وبمجرد أن تركتهن فروكن بدأت السيدة لوفيفر جلستها الطويلة جدًّا. فبفضل قوَّتها

البدنية، كانت راوس جزءًا من كل فقرات برنامج الباليه تقريبًا؛ وهو ما يعني أنه يجب تعديل كل الفقرات تقريبًا. وقد استمرَّت هذه الأنشطة المجهِدة حتى ميعاد الغداء تقريبًا، وظل صداها يتردَّد. تضمَّنت غالبية أحاديث وقت الغداء تعليقاتٍ مثل: «هل أنتِ مَن سأعطيها يدي اليمنى عندما تمر ستيوارت من أمامي؟» وخفَّفت ديكرز من حدة التوتر بعد الصمت المفاجئ الذي عمَّ المكان، والذي دائمًا ما يحدُث في التجمعات، عندما قالت بصوتٍ عالٍ: يا عزيزاتي لقد أثبتت الساعة الأخيرة أنه يمكن لشخص أن يكون في مكانين في آنٍ واحد.

لكن التعديل الأساسي حدَث عندما انتهت فروكن والسيدة من تدريباتهما. إذ استدعت وقتها الآنسة هودج إينيس وعرضت عليها أن تحلَّ محلَّ راوس في أرلينجهيرست. فقد أكَّد المستشفى ما قالته فروكن، وهو أن راوس مصابة بكسر في الجمجمة، ولن تستطيع العودة إلى العمل قبل مرور عدة شهور. لا أحد يعرف كيف تلقت إينيس هذا الخبر؛ ما يعرفه الجميع هو أنها قبِلت العرض. فهذا العرض الذي افتقر إلى الإثارة وطغى عليه الحادث المؤسف، كان متوقعًا؛ ومن وجهة نظر لوسي، لم يشغل الأمر كثيرًا أيًّا من عضوات هيئة التدريس أو الطالبات. فقول السيدة: «لندَع الرب يدبِّر الأمر» كان التعليق الوحيد.

ولكن لوسي كانت أقل سعادةً بالأمر. فقد انتابها شعور غامض غير مريح مثل عُسر الهضم الذهني. فتفاصيل الموضوع أقلقتها. فلم يقع الحادث فقط لمصلحة أحد الأشخاص، ولكنه وقع في الدقيقة الأخيرة المتاحة. فغدًا لن تكون هناك حاجة لدى راوس للذهاب إلى صالة الألعاب الرياضية والتمرُّن؛ لن تكون هناك عارضة لتثبيتها ولا دبوس يُثبَّت تثبيتًا غير دقيق. وأيضًا كانت هناك آثار أقدام رطبة في الصباح الباكر. إذا لم تكن تلك أقدام راوس، فأقدام مَن إذن؟ فكما قالت لوكس، لا أحد يمكنه الذهاب إلى صالة الألعاب الرياضية في هذه الساعة إلا إذا كان مسحوبًا بشيء أضعف من الخيول البرية.

كان من الممكن أن تكون تلك آثار قدمَي راوس وأنها قد ذهبت إلى مكان آخر قبل الذهاب إلى صالة الألعاب الرياضية للتدرُّب على العارضة بضع دقائق. لم تستطِع لوسي أن تجزم أن آثار الأقدام هذه قد دخلت إلى المبنى؛ لا يمكنها تذكُّر أي آثار أقدام على أيٍّ من الخطوتين. لقد رأت الآثار الرطبة فقط على الممشى المغطى، وتوصَّلت من دون تفكير أنها آثار أقدام راوس. قد تكون الآثار موجودة حول المبنى. ربما ليس لها علاقة بصالة الألعاب الرياضية نهائيًّا. ربما لا علاقة لها بالطالبات حتى. من المحتمل أن تكون آثار الأقدام الغامضة والخفيفة هذه هي آثار أقدام إحدى الخادمات في الصباح الباكر.

كل هذا محتمل. ولكن بالإضافة إلى آثار الأقدام التي ليس من المحتمل أن تكون آثار أقدام راوس كانت هناك الحلية المعدنية الصغيرة على الأرض التي كُنست قبل ٢٠ دقيقة بالمكنسة الكهربائية القوية. حلية تقع مباشرةً بين الباب والعارضة. وبينما كان كل شيء قابلًا للتخمين، فإن شيئًا واحدًا كان مؤكدًا: لم تكن الحلية مِلكًا لراوس. فهي ليست فقط واثقة تقريبًا من أنها لم تكن في الصالة هذا الصباح قبل دخول لوسي، لكنها أيضًا لا تملك هذه الأحذية الخفيفة. علمت لوسي بذلك لأن من بين المهام التي تؤديها اليوم للمساعدة هي جمع متعلقات المسكينة راوس. فقد كانت الآنسة جوليف، وهي المسئولة عادةً عن هذه المهام، مشغولة بالتحضير لأنشطة اليوم، فانتقلت المهمة إلى راج. لم يكن لدى راج طالبة لتحل محلها؛ إذ كن جميعًا مشغولات مع السيدة، وهي ليست مهمة يمكن إعطاؤها لطالبة من طالبات السنوات الأولى. لذا أدَّت لوسي هذه المهمة بترحيب وهي سعيدة؛ لأنها وجدت طريقةً لتكون ذات منفعة. وأول ما فعلته في الغرفة رقم ١٤ هي إخراج أحذية راوس من الخزانة والنظر إليها. الحذاء الوحيد الذي لم يكن موجودًا هو الحذاء الرياضي، الذي من المفترض أنها ارتدته هذا الصباح. ولكن للتأكد استدعت أودونيل عندما سمِعت الطالبات يأتين من صالة الألعاب الرياضية وقالت لها: «أنتِ تعرفين الآنسة راوس جيدًا، أليس كذلك؟ هلا تنظرين إلى هذه الأحذية وتخبرينني إن كانت هي جميعَ ما تملك، قبل أن أضعها في الحقائب أم لا.»

فكَّرت أودونيل وقالت نعم، هي كلُّ ما تمتلكه. وأضافت: «باستثناء الحذاء الرياضي. فقد كانت ترتديه.»

فحسم ذلك الأمر.

«ألا يوجد حذاء آخر في المغسلة؟»

«لا، نحن ننظف أحذيتنا؛ باستثناء حذاء الهوكي في الشتاء.»

حسنًا، هذا حسمَ الأمر. ما ارتدَته راوس هذا الصباح هو حذاؤها الرياضي. فلم تسقط الوردة المعدنية الصغيرة من إحدى أحذية راوس.

إذن من أين؟ سألت لوسي نفسها، بينما كانت تضع متعلقات راوس في الحقيبة بعنايةٍ لم تعهدها عند حزم أغراضها. من أين؟

ظلت تسأل نفسها بينما كانت تستعد للحفل. وضعت الوردة في أحد الأدراج الصغيرة من المكتب، ونظرت إلى ملابسها بحثًا عن ثياب مناسبة لحفل في الحديقة بعد الظهر. ومن نافذتها الثانية، النافذة المطلة على الحديقة، كانت ترى طالبات السنوات الأولى مشغولات

بوضع طاولات صغيرة وكراسيَّ ومظلات. كن يَجرين مثل النمل وبَدَوْن مثل الألوان المبهجة المنتشرة في أرجاء الحديقة. سطعت الشمس عليهن، وبَدَون مثل لوحة مبهجة لبروجل.

ولكن بالنظر إلى هذا المشهد وتذكُّر كيف كانت تنتظر هذه المناسبة بشغف، شعرت لوسي بعدم ارتياح؛ ولم تستطِع معرفة سبب عدم الارتياح هذا. شيء واحد فقط بدا واضحًا لها. الليلة يجب عليها الذهاب إلى هنرييتا ومعها الوردة الصغيرة. فعندما ينتهي الحفل ويكون لدى هنرييتا الوقت للهدوء والتفكير، يجب نقل المشكلة إليها؛ إن كانت هناك مشكلة. في المرة الأخيرة كانت لوسي مخطئة عندما حاولت حمايةَ هنرييتا من المعاناة بوضع الدفتر الأحمر الصغير في الماء؛ ويجب عليها هذه المرة أداء واجبها. فالوردة ليست من شأنها.

لا. ليست من شأنها. بالتأكيد لا.

لقد اعتقدت أن الفستان الكتاني الأزرق مع الحزام الأحمر الضيق أنيقان بما يكفي لإبهار الجميع، حتى الآباء القادمين من المقاطعات المعتادين انتقادَ أي شيء. ونظَّفت الحذاء المصنوع من الجلد السويدي باستخدام الفرشاة التي وضعتها لها السيدة مونتمورنسي من تلقاء نفسها، ونزلت لتقديم المساعدة بأي طريقة ممكنة.

وبحلول الساعة الثانية ظهرًا؛ بدأ وصول أول الضيوف؛ وذهبوا إلى المكتب لتوجيه التحية إلى الآنسة هودج، ثم التقَوا بالفتيات المتحمِّسات. فحص الآباء الأجهزةَ الغريبة بحذرٍ في العيادة، وتفقَّدت الأمهات الأَسرَّة في الجناح، وفحص الأعمام المختصون في الزراعة أزهارَ جيدي في الحديقة. وحاولت لوسي أن تُلهِي نفسها، فأخذت تربط بين الآباء الذين قابلتهم ومَن يناسبهم من الطالبات. لكنها لاحظت أنها كانت تبحث دون قصد عن السيد والسيدة إينيس، وتنتظر لقاءهما بقليل من الخوف. وتساءلت لماذا تشعر بهذا الخوف. فلم يكن هناك ما يستدعي هذا الخوف، أليس كذلك؟ بالتأكيد لم يكن هناك ما يستدعي هذا الخوف. كان كل شيء يسير على ما يُرام. لقد حصلت إينيس بالفعل على وظيفة أرلينجهيرست؛ وكان اليوم، في النهاية، انتصارًا لها.

قابلتهما لوسي على حين غِرة، بالقرب من سياج البازلاء الحلوة؛ كانت إينيس تمشي بينهما وقد شبَّكت ذراعيها بذراعيهما، وكان هناك بريقٌ على وجهها. لم يكن نفس التوهُّج الشديد الذي كان في عينيها قبل أسبوع، لكنه كان لا يزال بديلًا جيدًا. بدت إينيس مُتعبة، لكنها بدت أيضًا راضية؛ كان الأمر كما لو أن صراعًا داخليًّا قد انتهى، وتقررت النتيجة، سواء للأفضل أو للأسوأ.

قالت إينيس للآنسة بيم: «أنتِ تعرفينهما، ولم تخبريني بذلك مطلقًا.»

كان الأمر أشبه بلقاء أصدقاء قدامى، هذا ما شعرت به لوسي. كان من الصعب تصديقُ أنها لم تقابلهما سوى مرة واحدة على طاولة في مقهًى مدة ساعة في صباح يوم صيفي. بدا وكأنها تعرفهما طوال حياتها. وشعرت أنهما يبادلانها نفس الشعور. وقد كانا سعيدين حقًّا لرؤيتها مجددًا. تذكَّرا أشياء وسألا عنها، وأشارا إلى أشياء قالتها، ودلَّ سلوكهما على أنها ليست فقط مهمة في حياتهما، بل إنها جزءٌ منها. وشعرت لوسي، المفعمة دائمًا بالحماسة الزائفة أثناء التجمُّعات الأدبية، بقلبها يملؤه الدفء تجاههما.

تركتهم إينيس معًا وذهبت للاستعداد لعرض الجمباز الذي سيُفتتح به برنامج الظهيرة، وذهبت لوسي إلى صالة الألعاب الرياضية معهما.

قالت السيدة إينيس: «تبدو ماري مريضة. هل حدث شيء؟»

تردَّدت لوسي وهي تتساءل في نفسها عما حكَته لهما إينيس.

«لقد أخبرتنا بالحادث، وأنها هي مَن سيحصل على وظيفة أرلينجهيرست. وأنا لا أعتقد أن فكرة الاستفادة من سوء حظ طالبة أخرى تروق لها، ولكن لا يمكن أن يكون هذا هو السبب الوحيد.»

شعرت لوسي أنه من الأفضل أن يعرفا أكثرَ عن الموضوع؛ حسنًا، كان ذلك من الأفضل في جميع الأحوال.

«كان بديهيًّا للجميع أن إينيس هي مَن ستحصل على هذه الوظيفة في المقام الأول. أعتقد أنها كانت صدمة لها عندما لم تحصل عليها.»

قالت السيدة إينيس ببطء: «أفهم ذلك، نعم»؛ وشعرت لوسي أن المزيد من الشرح سيكون غير ضروري؛ فوالدة إينيس تعرف الآن القصةَ الكاملة لمعاناة إينيس وصبرها.

«أعتقد أنها قد لا يعجبها أنني أخبرتكما بذلك؛ لذا …»

قالت والدة إينيس: «لا، لن نخبرها بشيء. هذه الحديقة بديعة جدًّا. نعتني أنا وجيرفاس بحديقتنا، لكن الجزء الذي يعتني به هو يبدو تمامًا مثل الصور، بينما يبدو الجزء الخاص بي مختلفًا كليًّا. ألقِ نظرة على تلك الورود الصفراء الصغيرة.»

ثم ذهبا إلى باب صالة الألعاب الرياضية، وأرتهما لوسي السُّلم وكذلك المكنسة — وهي تفكر في الوردة المعدنية الصغيرة — ثم وصلا إلى كراسيهما في الشُّرفة، وبدأ عرض بعد الظهيرة.

جلست لوسي في نهاية الصف الأمامي. وهي تحدِّق باعتزاز في الوجوه الشابة الجادة، كانت الفتيات ينتظرن بترقُّب شديد تعليمات فروكن. وسمِعت لوسي إحدى الطالبات وهي تطمئن الأخريات قائلة: «لا تقلقن، ففروكن سوف ترشدنا»، وتستطيع أن ترى الثقة في أعينهن. كان هذا الاختبار تحديًا لهن، وعلى الرغم من توترهن، فإن فروكن سترشدهن.

الآن، فهمت لوسي العاطفةَ التي ملأت عينَي هنرييتا عندما شاهدتا الفتيات في المناسبة السابقة. لقد مرَّ أقلُّ من أسبوعين، ومع ذلك كان لديها بالفعل شعور بالامتلاك والفخر بهؤلاء الفتيات. وعندما يحلُّ الخريف، سيكون لخريطة إنجلترا معنًى مختلف عندها بسبب هذين الأسبوعين اللذين قضتهما في لايز. ستكون مانشستر هي المكان الذي توجد فيه القرينات الأربع، وستكون أبيريستويث هي المكان الذي تحاول فيه توماس أن تبقى مستيقظة، وسيكون لينج هو المكان الذي تعتني فيه ديكرز بالأطفال، وما إلى ذلك. فإذا كان لديها تلك المشاعر تجاههن بعد أيامٍ قليلة فقط، فلا عجب أن هنرييتا، التي رأتهن يدخلن حياتهن الجديدة دون خبرة، وأشرفت على نُموِّهن، وكفاحهن، وفشلهن، ونجاحهن، تعتبرهن بناتها. بناتها الناجحات.

انتهى الروتين التمهيدي بنجاح، واختفى بعض التوتر من وجوههن؛ وبدأت الفتيات يهدأن. وكسر التصفيق في نهاية تمرين الوقوف المنفرد حاجزَ الصمت، وجلب إحساسًا بالدفء، وجعل الحدث يبدو أكثرَ ترحيبًا.

«يا لها من مجموعة رائعة»، علَّقت سيدة كبيرة في السن تُمسك بنظارة أوبرا، وكانت تجلس بجانب لوسي (مَن تكون هذه السيدة؟ لا يبدو عليها أنها والدة إحدى الطالبات)، ثم انحنت لتسأل لوسي بصوتٍ منخفض: «أخبريني، هل هذه مجموعة مختارة؟»

أجابت لوسي بهدوء: «لا أفهم قصدك.»

«أعني، هل هؤلاء الفتيات هن جميع طالبات السنة النهائية؟»

«هل تقصدين أن هؤلاء هنَّ الأكثر موهبةً؟ أوه، لا، هذه هي المجموعة بأكملها.»

«حقًّا؟ إنها مجموعة رائعة جدًّا. إنها مجموعة جذابة جدًّا أيضًا. جذابة لدرجةٍ لا تُصدق.»

تساءلت لوسي: هل تعتقدين أننا أعطينا الفتيات الأقلِّ موهبة نقودًا نظيرَ البقاء بعيدًا لفترة ما بعد الظهيرة؟

وبالطبع كانت السيدة العجوز محقَّة. فباستثناء تمرين لأطفال في عمر عامين، لم تجد لوسي ما هو أكثر جاذبيةً للعقل والعين من هؤلاء الفتيات الماهرات وهن يسحبن العارضات

الموجودة تحتها. نزلت الحبال بسرعة من مواقعها الملتفة بالقرب من السقف، وأصبح سُلم النافذة في وضعٍ مستقيم، واحتشدت الفتيات دون عناء حول الأجهزة الثلاثة. كان التصفيق الذي صدر عندما أرجعن الحبالَ والسُّلم وضبطن العارضات لتمرين التوازن، حقيقيًّا وحماسيًّا؛ كان الأداء ساحرًا.

كانت صالة الألعاب الرياضية أشبه بالقبو المظلم الغامض ذي الظلال الخضراء عندما دخلتها هذا الصباح، ولكنها الآن أصبحت مختلفة تمامًا. فقد أصبحت الصالة الآن مضيئة، ونابضة بالحياة، وطبيعية، وانعكس ضوء الشمس من السقف على الخشب الفاتح، مما جعله يلمع. وتذكَّرت المساحة الفارغة عند العارضة وألقت نظرةً هناك لتعرف مَن التي ستؤدي تمرين التوازن في المكان الذي عُثر فيه على راوس. مَن التي ستقف عند النهاية الداخلية للعارضة الأمامية؟

لقد كانت إينيس.

قالت فروكن: «هيا!» فانقلبت ثمانية أجساد صغيرة على أذرع العارضات الطويلة. وجلسن فترةً وجيزة، ثم وقفن جميعًا معًا، وهن يضعن قدمًا واحدة أمام الأخرى، وشكَّلن أزواجًا متقابلة على طرفَي العارضة من كل ذراع.

كانت لوسي تأمُل بشدة ألا تفقد إينيس وعيها. فلم تكن شاحبة فحسب، بل بدا لونها أقربَ إلى اللون الأخضر. بدأت شريكتها، ستيوارت، الروتين، ولكنها توقفت عندما رأت أن إينيس لم تكن جاهزة. ولكن إينيس لم تستطِع التحرك، وبدت غير قادرة على الحركة. فنظرت إليها ستيوارت بتعبير يائس. ومع ذلك، لم تتحرك إينيس. كان هناك بعض الإشارات بينهما، وأظهرت ستيوارت أداءً جيدًا على نحو ملحوظ في ظل هذه الظروف. كافحت إينيس للحفاظ على توازنها على العارضة حتى تتمكن من النزول على الأرض مع الجميع، وحتى لا تفسد التمرين بأكمله بالسقوط أو القفز. وقد جعل الصمت في الغرفة فشلَها واضحًا على نحو مؤلم، وتعاطف الحاضرون معها. فقد اعتقدوا أنها مريضة. فهي قلقة بلا شك. ولونها باهت. إنها مسكينة.

انتهت ستيوارت، ثم جلستا معًا على ذراع العارضة، وانحنيتا معًا للأمام، ثم قفزتا للأمام على الأرض.

وصفَّق لهن الجميع تصفيقًا حارًّا. فالإنجليز دائمًا ما يتأثَّرون عندما يفشل شخص كان يحاول جاهدًا، في حين أنهم يحيُّون مَن نجح نجاحًا سهلًا تحيةَ مجاملة فقط. لقد عبَّر المتفرجون في الحال عن تعاطفهم تجاه إينيس وإعجابهم بها. فقد رأوا محاولتها البقاء على ذراع العارضة، على الرغم من أنها بدت غير قادرة على الحركة.

لكن يبدو أن إينيس لم تتأثر بهذا التعاطف. ولم تكن لوسي متأكدة مما إذا كانت قد سمِعت التصفيق أصلًا. فقد كانت إينيس تعيش في عالمها الخاص المليء بالألم، ولم يتمكن أحدٌ من مواساتها. وكان من الصعب على لوسي رؤيتها في هذه الحالة.

غطَّت الأنشطة التالية على إخفاق إينيس السابق، وانتهى الموقف الصعب. فقد انضمت إينيس إلى الأخريات وقدَّمت أداءً لا غبار عليه. وعندما حان الوقت لتمرين القفز الأخير، كان أداء إينيس مميزًا، لدرجة أن لوسي اعتقدت أن إينيس كانت تحاول كسر رقبتها أمام الجميع. وبالنظر لتعبير وجه فروكن، فقد كان لديها نفس الفكرة؛ ولكن ما دامت إينيس تسيطر على حركاتها وتقوم بها على أكمل وجه، فلن تتمكن فروكن من فعل أي شيء. وقد سيطرت إينيس على كل حركاتها وأدَّتها على أكمل وجه، مع أنها خطِرة. ولأنها بدَت وكأنها لا تهتم، فقد أدَّت حركات جريئة. وعندما انتهت الطالبات من تمرينهن الحر الأخير ووقفن لاهثاتٍ ومتألقات، في طابور واحد على الأرض كما بدأن، وقف جميع الضيوف كرجل واحد وهتفوا لهن.

كانت لوسي، الجالسة في نهاية الصف وعلى مقربة من الباب، أولَ مَن غادر القاعة، فرأت إينيس تعتذر إلى فروكن.

توقَّفت فروكن لحظة، ثم واصلت السير كما لو كانت لا تهتم، أو لا تريد سماع شيء. ولكن بينما كانت تتحرك، ربَّتت على كتف إينيس بخفة وود.

الفصل الثامن عشر

عندما خرج الضيوف إلى الحديقة حيث تنتشر كراسي الخيزران في أرجائها، انضمت إليهم لوسي، وأثناء انتظارها لمعرفةِ ما إذا كان هناك ما يكفي من الكراسي قبل أخذ كرسي لنفسها، اقتربت منها بو وقالت لها: «آنسة بيم! ها أنتِ ذا! لقد كنت أبحث عنك. أريدك أن تقابلي والديَّ.»

فالتفتت إلى زوجَين كانا قد جلسا التوةَ وقالت لهما: «انظرا، لقد وجدتُ الآنسة بيم أخيرًا.»

كانت والدة بو امرأة جميلة للغاية، وبدا عليها أنها ذهبت إلى أفضل صالونات التجميل وأغلى مراكز تصفيف الشعر تكلفةً لتبدوَ بهذا الجمال؛ حيث ساعد جمالها الطبيعي مصفِّفي الشعر في تلك المراكز؛ لأن السيدة ناش كانت تشبه بالتأكيد بو عندما كانت في العشرين من عمرها. وحتى الآن، في ضوء الشمس الساطع، لم تكن تبدو أكبرَ من ٣٥ عامًا. وكانت لديها خيَّاطة ماهرة أيضًا، وكان سلوكها ينضح بالثقة والبساطة والود، كونها امرأةً اعتادت أن تكون رمزًا للجمال طوال حياتها؛ كما اعتادت جدًّا التأثيرَ الذي تُحدِثه على الآخرين؛ لدرجةِ أنها لم تكن بحاجة إلى التفكير في الأمر، مما سمح لها بتركيز انتباهها على الشخص الذي تلتقي به.

أما السيد ناش فقد كان أشبه بالمسئولين التنفيذيين. كانت بشَرته صافية وصحية، وكان خياطًا ماهرًا ذا مظهر مهندم، وإحساس عام بالاحترافية، يجلس إلى مكتب مزيَّن بصفوف أنيقة من أوراق النشاف النظيفة على طاولات من خشب الماهوجني.

قالت بو: «يجب أن أغيِّر ملابسي. عليَّ أن أذهب سريعًا»، ثم اختفت.

بينما جلست لوسي والسيد ناش وزوجته معًا، نظرت السيدة ناش إلى لوسي بتعبير فضولي وقالت: «حسنًا، الآن بعد أن أصبحتِ هنا شخصيًّا يا آنسة بيم، يمكننا أن نسألك شيئًا نتشوق إلى معرفته. نريد أن نعرف كيف تفعلين ذلك؟»

«أفعل ماذا؟»

«إثارة إعجاب باميلا.»

قال السيد ناش: «نعم، هذا بالضبط ما نود أن نعرفه. فطوال حياتنا حاولنا ترك بعض الأثر على باميلا، لكننا ما زلنا مجرد شخصين أعزاء يتصادف أن يكونا مسئولين عن وجودها، ونحتاج إلى أن نُرضي رغباتها بين الحين والآخر.»

قالت السيدة ناش وهي ترفع حاجبها وتضحك: «ثم تأتين أنت لتُصبِحي حرفيًّا شخصًا تذكره باميلا في خطاباتها إلينا.»

قالت لوسي: «إذا كان سماع ذلك سيريحكما بأي وجه، فأنا معجبة جدًّا بابنتكما.»

قالت الأم: «إن بام فتاة لطيفة. ونحن نحبها جدًّا، لكنني كنت أتمنى لو أننا تركنا انطباعًا أقوى داخلها. فقبل ظهورك في حياتها، لم يترك أحدٌ أيَّ علامة على باميلا منذ أن تركت مربيتُها عليها علامةً عندما كانت في الرابعة من عمرها.»

قال السيد ناش: «وكانت هذه العلامة علامة جسدية.»

«نعم. كانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتها التي تتعرض فيها للضرب.»

سألت لوسي: «ماذا حدث بعد ذلك؟»

«كان علينا طرد المربية!»

«ألم تؤمنا بالضرب؟»

«أوه، نؤمن به، لكن باميلا لم تؤمن به.»

قال السيد ناش: «لقد قامت بام بأول اعتصام في التاريخ.»

وأضافت السيدة ناش: «ظلت هكذا سبعة أيام. لم نرغب في إلباسها وإطعامها بالقوة بقيةَ حياتها؛ لذا لم يكن أمامنا خيار سوى طرد المربية. كانت امرأة ممتازة أيضًا. كان رحيلها شيئًا محزنًا جدًّا لنا.»

بدأت الموسيقى، وظهرت الألوان النابضة بالحياة للفساتين الشعبية السويدية لطالبات السنوات الأولى من خلف شجيرات الرودودِندرون الطويلة. بدأ الرقص الشعبي. وانحنت لوسي إلى الوراء في كرسيها، ولم تَعُد تفكر في غرابة أطوار بو في طفولتها، بل في إينيس، وكيف أن سحابة داكنة من الشك والخوف كانت تطغى على ضوء الشمس المبهج.

وبسبب انغماس لوسي الشديد في التفكير في إينيس، تفاجأت عندما سمِعت السيدة ناش تقول: «ماري، عزيزتي. ها أنتِ ذا. كم أنا سعيدة لرؤيتك مجددًا»، فاستدارت لوسي لتجد إينيس واقفةً خلفهن. كانت ترتدي ملابس فتيان؛ السترة الضيقة والبنطلون الضيق، وهي ملابس تذكِّرنا بالقرن الخامس عشر، وغطاء الرأس الذي يخفي كل شعرها ويعانق

وجهها، مما يبرز البنية العظمية المميزة لوجهها. وبما أن عينيها الآن مظلَّلتان وغائرتان قليلًا في تجاويفهما العميقة طبيعيًّا، فإن وجهها أصبح يحمل عنصرًا لم يكن يمتلكه من قبل: الصرامة. لقد كان — ما هو المصطلح؟ — وجهًا «مصيريًّا». تذكَّرت لوسي انطباعها الأوَّلي بأن الوجوه مثل وجه إينيس هي ما يكون لها تأثير كبير على مجرى الأحداث.

قال السيد ناش وهو يتفحصها: «لقد كنتِ تبذلين جهدًا كبيرًا يا ماري.»

قالت لوسي، على أمل تحويل التركيز عن إينيس: «لقد بذلت الفتيات جميعًا جهدًا كبيرًا.»

قالت والدتها: «هذا لا ينطبق على باميلا. فبام لم تبذل جهدًا كبيرًا طوال حياتها.»

لا. قُدِّم كل شيء لبو على طبق من ذهب. أمرٌ معجز أنها كبرت لتصبح بهذه الروعة.

سألت إينيس بنبرة ودية غير مبالية: «هل رأيتموني وأنا أحرج نفسي على العارضة؟»

وقد فاجأ ذلك لوسي قليلًا؛ إذ كانت تتوقَّع أن تتجنب إينيس الحديث في هذا الموضوع.

قالت السيدة ناش: «يا عزيزتي، كنا قلِقين عليكِ. ماذا حدث؟ هل شعرتِ بالدُّوار؟»

قالت بو، التي انضمَّت إليهن وربطت ذراعها بذراع إينيس: «لا، هذه فقط طريقة إينيس لجذب الانتباه. فالفتاة لا تمتلك قدرات جسدية متدنية، بل تمتلك عقلًا فائق الذكاء. لا أحد منَّا يمكنه التفكير في حيلة كهذه.»

وضغطت بو بلطف على ذراع إينيس التي كانت تمسك بها لطمأنتها. كانت هي الأخرى ترتدي ملابس صبيان، وبدت سعيدة. ولم يقلل خفوتُ شعرها اللامع من إشراق وحيوية جمالها.

«كان هذا آخر عروض طالبات السنوات الأولى … ألا تبدو الفتيات مبتهجات وسط المساحات الخضراء؟ والآن فأنا وإينيس وبقية المجموعة المتفانية سوف نسعدكم ببعض العروض الإنجليزية التقليدية، وبعد ذلك يمكنكم تناول بعض الشاي للاستعداد لمشاهدة الرقص الحقيقي الذي سيتبعه.»

وغادرت الفتاتان.

قالت السيدة ناش، وهي تشاهد ابنتها تغادر: «حسنًا، أعتقد أن ذلك أفضل من رغبتِها في تحسين حياة السكان الأصليين في أعماق أفريقيا، أو شيء من هذا القبيل. لكنني كنت أتمنى لو أنها بقيت في المنزل وكانت مجرد ابنتنا.»

أُعجبت لوسي بالسيدة ناش لأنها أرادت أن تكون ابنتها معها في المنزل، مع أنها كانت تبدو في مقتبل شبابها.

وأضاف السيد ناش: «لطالما كانت بام مهووسة بالجمباز والرياضة. ولم نتمكن من منعها من ذلك. صراحةً، لا يستطيع أحد البتة منعها من شيء.»

قالت فطيرة المكسرات وهي تقترب من لوسي: «آنسة بيم، هل تمانعين أن يجلس ريك معك وأنا أؤدي بعضَ الأشياء الروتينية مع طالبات السنة النهائية؟» وأشارت نحو جيليسبي، الذي كان يقف خلفها، ممسكًا بكرسي، وعلى وجهه تعبير الاستمتاع الجاد المعتاد.

كانت قبَّعتها العريضة المسطَّحة مائلة قليلًا نحو مؤخرة رأسها — تُذكرنا بزوجة باث — مما منح وجهها تعبيرًا عن الاندهاش البريء الساحر. وتبادلت لوسي وريك نظرةَ تقدير مشترك، وابتسم لها ابتسامةً ودية وهو يجلس بجانبها.

قال ريك: «ألا تبدو جميلة في هذا الزي؟» وهو يشاهد ديستيرو تختفي وراء الرودودندرون.

«أعتقد أن الروتين لا يُعتبر رقصًا.»

«هل هي موهوبة؟»

«لستُ متأكدًا. فأنا لم أرَها ترقص قط، لكنني سمِعت أنها كذلك.»

«لم أقُم حتى بالرقص معها في قاعات الرقص. إنه أمر غريب، أليس كذلك؟ لم أكن أعرف حتى بوجودها حتى عيد الفصح الماضي. ويُحبِطني أنها قضت عامًا كاملًا في إنجلترا ولم أكن أعلم بذلك. ثلاثة أشهر من اللقاءات العرضية ليس وقتًا كافيًا لترك انطباع لدى شخص مثل تيريزا.»

«وهل تريد أن تترك انطباعًا؟»

«نعم.» وقد قالت إجابته الموجزة كلَّ شيء.

جرَت طالبات السنة النهائية، اللاتي كن يرتدين ملابس العصور الوسطى الإنجليزية، إلى الحشائش، وتلاشت المحادثات. حاولت لوسي صرْف انتباهها عن طريق التعرف بالفتيات من خلال سيقانهن والإعجاب بمدى نشاط هذه السيقان بعد ساعة من التمارين المضنية. قالت لوسي لنفسها: «اسمعي، عليكِ بتسليم الوردة الصغيرة إلى هنرييتا الليلة. حسنًا. هذا كل شيء. ليس هناك ما يمكنك فعله حيال ذلك، لا فيما يتعلق بتسليم الوردة ولا بنتيجة ذلك. لذا، اطردي هذا الأمر من عقلك. هذه هي الظهيرة التي كنتِ تنتظرينها بشغف. إنه يوم مُشمس جميل، والجميع سعداء بوجودك هنا؛ لذا يجب أن تستمتعي بوقتك. لذا استرخي. حتى لو … حسنًا، لو حدث أي شيء فظيع بخصوص الوردة، فهذا

ليس من شأنك. منذ أسبوعين، لم تكوني تعرفين أيًّا من هؤلاء الأشخاص، وبعد مغادرتك، لن ترَيهن مجددًا أبدًا. لا ينبغي أن يهمك ما يحدث أو ما لا يحدث لهن.»

وعلى الرغم من هذه النصيحة الجيدة، وجدَت لوسي نفسها في الحالة نفسها التي كانت عليها من قبل. وعندما لمحت الآنسة جوليف والخادمات يجهزن طاولةَ الشاي في الخلف، رحَّبت بفرصة النهوض من الكرسي وتقديم المساعدة لهن، وإشغال عقلها ببعض الأنشطة المفيدة.

فاجأها ريك بالانضمام إليها. وقال مازحًا: «أنا أقتنع بسهولة بالمساعدة في الأطباق. لا بد أن يكون هذا هو الراقص المستأجَر بداخلي.»

قالت له لوسي إن عليه أن يشاهد أداء حبيبته.

«إنها الرقصة الأخيرة. وإذا كنتُ قد علِمت أيَّ شيء عن تيريزا، فإن إشباع جوعها أهمُّ من مداعبة غرورها، رغم أهميته.»

بدا للوسي أنه يعرف تيريزا جيدًا.

«هل هناك شيء يدور بذهنك يا آنسة بيم؟»

فوجئت لوسي بالسؤال.

«لماذا تعتقد هذا؟»

«لا أعرف. إنه مجرد شعور انتابني. هل هناك أيُّ شيء يمكنني فعله لمساعدتك؟»

تذكَّرت لوسي كيف أنه في مساء يوم الأحد في بيدلينجتون، عندما كادت لوسي تبكي، لفت ريك الانتباه إلى أن أقراص الجبن ستبرُد إذ شعر باستيائها، مقدِّمًا لها الدعم في صمت. وتمنَّت لو أنها كانت قابلت شخصًا متفهمًا وشابًّا وسيمًا مثل صديق فطيرة المكسرات عندما كانت في العشرين من عمرها، بدلًا من آلان وتفاحة آدم وجواربه المثقَّبة.

قالت ببطء: «يجب أن أفعل شيئًا صحيحًا، ولكني أخشى العواقب.»

«عواقبه عليكِ؟»

«لا. على أشخاص آخرين.»

«لا تقلقي؛ فقط افعلي الشيء الصحيح.»

رتَّبت الآنسة بيم أطباق الكعك على صينية. وقالت: «كما ترى، الشيء المناسب ليس بالضرورة هو الشيء الصحيح. أم إنني أعني العكس؟»

«لست متأكدًا تمامًا مما تقصدينه.»

«حسنًا ... ثمة معضلات صعبة يتعين عليك فيها أن تقرر مَن تنقذ. إذا عرفت أن إنقاذ شخصٍ ما من أعلى انهيار ثلجي سيؤدي إلى انهيار جليدي وتدمير قرية بأكملها، فهل ستنقذ الشخص؟ معضلات كهذه.»

«بالطبع سأنقذه.»

«حقًّا؟»

«قد يؤدي الانهيار الجليدي إلى تدمير القرية دون إلحاق الأذى بأي شخص — هل أضع بعض الشطائر على تلك الصينية؟ — لذا سأكون قد أنقذت حياةَ شخص.»

«ستفعل دائمًا ما هو صحيح وتترك العواقب تتكشَّف؟»

«بالضبط.»

«هذا هو الطريق الأبسط بالتأكيد. في الحقيقة، أعتقد أن الأمر بسيط للغاية.»

«ما لم يكن هدفكِ هو القيام بدور الإله، فمن الأفضل أن تسلكي الطريق الأبسط.»

«القيام بدور الإله؟ لديك حصتان من شطائر اللسان، هل لاحظت ذلك؟»

«ما لم تكوني تمتلكين ذكاءً يُمكِّنك من رؤية الماضي والمستقبل مثل الإله، فمن الأفضل الالتزام بالقواعد. واو! توقَّفت الموسيقى، وها هي ذي سيدتي تأتي، وهي تتحرك مثل النمر الصياد.» ونظر إلى ديستيرو وهي قادمة وفي عينيه ابتسامة. وأردف: «أليست هذه القبعة لافتة للنظر بدرجة لا تصدَّق!» ثم ألقى نظرةً سريعة على لوسي. وقال لها: «افعلي الشيء الصحيح الواضح يا آنسة بيم، ودَعي الله يقرِّر النتيجة.»

سمِعت ديستيرو تسأل ريك قائلة: «ألم تشاهد العرض يا ريك؟» وبعد ذلك وجد لوسي وريك وفطيرة المكسرات أنفسهم مُحاطين بحشدٍ من طالبات السنوات الأولى اللاتي جئن للمساعدة في تقديم الشاي. تمكَّنت لوسي من تحرير نفسها من مجموعة الفتيات اللاتي يرتدين قبَّعات بيضاء وثيابًا سويدية مُطرَّزة، وذلك عندما وجدت نفسها وجهًا لوجه مع إدوارد أدريان الذي كان بمفرده وبدا عليه الحزن.

«آنسة بيم! أنتِ الشخص الذي أردتُ رؤيته. هل علمتِ أن ...»

أعطته إحدى طالبات السنوات الأولى كوبًا من الشاي، فابتسم لها إحدى ابتساماته الساحرة، مع أن الفتاة مشت ولم تنتظر أن ترى الابتسامة. في الوقت نفسه، اقتربت الآنسة موريس الصغيرة، التي ظلَّت مواظبة على أداء مهمتها حتى بعد انتهاء العرض، من لوسي ومعها الشاي وصينية من الكعك.

قالت لوسي: «لنجلسْ.»

«هل سمعتِ عن الحادث المروِّع الذي وقع؟»

«نعم. لكني أعرف أن مثل هذه الحوادث الخطيرة نادرة الحدوث. من المؤسف فقط أنه وقع في يوم العرض.»

«أوه، الحادث، نعم. لكن هل تعلمين أن كاثرين تقول إنها لن تستطيع القدوم إلى لاربورو الليلة؟ تقول إن أحداثًا مؤسفة قد وقعت. وعليها أن تبقى هنا. هذا غير معقول. هل سمِعت بشيء كهذا من قبل؟ فإن كان هناك بالفعل أحداثٌ مؤسفة، فهذا يستدعي أكثر أن تأخذ راحة منها بعضَ الوقت. لقد قمت بجميع الترتيبات. حتى إنني اشتريت زهورًا خاصة لطاولتنا الليلة. واشتريت كعكة عيد ميلاد أيضًا. فعيد ميلادها الأربعاء المقبل.»

تساءلت لوسي في نفسها عما إذا كان أيُّ شخص آخر في لايز يعرف يوم ميلاد كاثرين لوكس.

حاولت لوسي إبداء بعض التعاطف، لكنها قالت برفقٍ إنها تتفهَّم وجهةَ نظر الآنسة لوكس. ففي النهاية، قد أصيبت الفتاة بجروح خطيرة، وأصبح الوضع مقلقًا، ويبدو، بلا شك، ذهاب كاثرين إلى لاربورو للاحتفال في مثل هذه الظروف أمرًا قاسيًا.

«لكنه ليس احتفالًا! إنه مجرَّد عشاء هادئ مع صديق قديم. لا أفهم حقًّا لماذا يجب أن تتخلى عن صديق قديم لمجرد تعرُّض إحدى الطالبات لحادث. من فضلك يا آنسة بيم، تحدَّثي معها. حاولي إقناعها بالشيء المنطقي.»

أكَّدت لوسي لإدوارد أدريان أنها ستبذل قصارى جهدها لإقناع كاثرين، لكنها لا تستطيع وعده بشيء؛ لأنها توافق كاثرين الرأي.

«أنتِ أيضًا! يا إلهي!»

«أعلم أنه غير معقول. إنه حتى أمرٌ سخيف. لكن لن يكون أيٌّ منا سعيدًا، وستكون الأمسية مخيبةً للآمال، وأنت لن ترغب أن يحدث هذا، أليس كذلك؟ ألا يمكنك أن تستضيفنا ليلة غد بدلًا من الليلة؟»

«لا، فأنا سأستقل القطار مباشرةً بعد عرض المسرحية مساء اليوم. وبالطبع، بما أن غدًا السبت، فسيكون لديَّ حفل صباحي. وعلى أي حال، سأؤدي غدًا دور روميو في المساء، وهذا لن يعجب كاثرين على الإطلاق. وهي التي يصعب عليها تحمُّلي في دور ريتشارد الثالث. أوه، يا إلهي، الأمر برُمته سخيف.»

قالت لوسي: «لا تحزن. إنها ليست مأساة. فسوف تأتي إلى لاربورو مجددًا، والآن بعد أن عرفت أن كاثرين هنا، يمكنك مقابلتها وقتما تشاء.»

«لن أجعل كاثرين في هذه الحالة من الإذعان مجددًا. أبدًا. فقد كان أحد أسباب هذا التغيير في تعامُلها هو وجودك. فلم تشأ أن تبدوَ مخيفة أمامك. حتى إنها كانت تفكر في حضور أحد عروضي المسرحية. وهو أمرٌ غير معتَاد منها. ولن أتمكن أبدًا من جعلها منفتحة على اقتراحاتي بعد ذلك إذا لم تأتِ الليلة. حاولي إقناعها يا آنسة بيم.»

فوعدته لوسي أنها ستحاول. وقالت له: «كيف تستمتع بفترة الظهيرة، بصرف النظر عن المواعيد الملغاة؟»

يبدو أن السيد أدريان كان مستمتعًا تمامًا بوقته. فلم يستطِع أن يقرِّر إن كان معجبًا بمظهر الطالبات الأنيق أكثر أم بكفاءتهن.

«لديهن أخلاق كريمة أيضًا. فلم يُطلب مني توقيعٌ واحد طوال فترة الظهيرة.»

نظرت لوسي إلى إدوارد بعناية لمعرفةِ إن كان قد قال هذا على سبيل السخرية. ولكن لا؛ كان يقصد ما قاله. إنه حقًّا لا يستطيع التفكير في أي سبب يجعل الفتيات لا يطلبن توقيعه سوى أن أخلاقهن كريمة. ودار بخَلَد لوسي كيف أنه رجل ساذَج؛ فهو يعيش في عالم لا يعرف عنه شيئًا. وتساءلت في نفسها عما إذا كان جميع الممثلين مثله. يتحركون في الوجود وكأن فقاعات أثيرية تحميهم داخلها. كم هو مريح أن يعيش المرء في مأمن من قسوة الحياة. فهم لم يولدوا أصلًا؛ إنهم لا يزالون يسبحون في سوائل داخل أرحام أمهاتهم.

«مَن هي الفتاة التي ارتكبت خطأً أثناء تمرين التوازن؟»

أما لها أن تستريح من الحديث عن إينيس ولو دقيقتين كاملتين؟

«اسمها ماري إينيس. لماذا؟»

«يا له من وجه رائع. وكأنها من عائلة بورجيا.»

قالت لوسي بحدة: «أوه، لا!»

«لقد ظللت أفكِّر طوال فترة ما بعد الظهيرة في مَن تذكِّرني به هذه الفتاة. أعتقد أنها تشبه أحدَ الشباب الصغار في لوحة للرسام جورجوني، لكن لا يمكنني تحديدُ أيٍّ من الشباب الذين رسمهم بدقة. سأحتاج إلى رؤية لوحاته مرةً أخرى للتأكد. ومع ذلك، هي تمتلك وجهًا رائعًا، يجمع بين الضَّعف والقوة، والخير والشر. جميلة لدرجةٍ لا تُصدق. لا أستطيع أن أفهم سبب وجود مثل هذا الجمال في كليةٍ للتدريب البدني للفتيات في القرن العشرين.»

حسنًا، على الأقل وجدَت الراحة في معرفة أن شخصًا آخر ينظر إلى إينيس نفس نظرتها: استثنائية، رائعة، ليست من هذا الزمان، وربما مأساوية. وتذكَّرت أن هنرييتا لم

تكن تنظر إلى إينيس إلا على أنها مجرد فتاة مزعِجة تنظر بازدراء إلى أولئك الأقل ذكاءً منها.

فكَّرت لوسي فيما يمكن أن تفعله لإلهاء إدوارد أدريان. فرأت السيد روب، أستاذ الإلقاء، الذي يمكن معرفتُه من خلال ربطة عنقه المرنة المصنوعة من الساتان وياقته الرائعة؛ وهو العضو الوحيد من بين عضوات هيئة التدريس الزائرات، إلى جانب الدكتورة نايت، التي تعرفها. عرفت لوسي أن السيد روب كان ممثلًا شابًّا يتمتع بشخصية كاريزمية منذ أربعة عقود، وكان مشهورًا بكونه أفضل مَن قدَّم دور لانسلوت جوبو في عصره، ففكَّرت لوسي في أن إيقاع إدوارد أدريان في شر أعماله سيكون أمرًا مسليًا. لكنَّ قلبَ لوسي رقَّ كعادتها عند تذكُّر الجهد الذي أهدره إدوارد في استعداداته — الزهور، والكعكة، وخطط التباهي بنفسه — وقرَّرت أن ترأَف بحاله. فرأت أودونيل التي كانت تحدق إلى بطلِها من مسافة بعيدة، فأشارت إليها. يجب أن يقابل إدوارد أدريان معجبةً حقيقية مخلصةً له لتزيل الحزن من قلبه، ويجب ألا يعرف أنها المعجبة الوحيدة له في الكلية.

قالت: «سيد أدريان، هذه إيلين أودونيل، واحدة من أشد معجباتك.»

سمِعت أودونيل تقول له: «أوه، السيد أدريان ...»

فتركتهما.

الفصل التاسع عشر

عندما انتهى وقت تناول الشاي (وقد تعرَّفت لوسي بـ ٢٠ زوجًا مختلفًا على الأقل من الآباء)، بدأ الحشد في مغادرة الحديقة، وفي طريقها إلى المبنى، قابلت لوسي الآنسة لوكس.

قالت لوسي: «للأسف سأضطر إلى عدم الخروج الليلة. فأنا أشعر بصداع نِصفي وشيك.»

ردَّت لوكس ببرود: «هذا مؤسف. أنا أيضًا قرَّرت عدم الخروج.»

«أوه، لماذا؟»

«أنا متعبة للغاية، وحزينة لما حدث لراوس، وفكرة الخروج إلى المدينة لا تروق لي.»

«لقد فاجأتِني.»

«فاجأتُك؟ كيف؟»

«لم أعتقد قط أنني سأعيش لأرى كاثرين لوكس غير صريحة مع نفسها.»

«أوه. وما الذي أخدع نفسي بشأنه؟»

«إذا فحصتِ مشاعرك عن كَثَب، فستجدين أن هذا ليس السبب الحقيقي لعدم رغبتك في الخروج.»

«لا؟ ما السبب إذن؟»

«السبب أنكِ تجدين متعة في التكبُّر عليه.»

«كلام محزن.»

«لكنه صحيح. لقد استمتعتِ بفرصة تأكيد تفوُّقك عليه، أليس كذلك؟»

«يجب أن أعترف أن إلغاء الموعد كان أمرًا سهلًا.»

«وقاسيًا قليلًا؟»

«عملٌ غير مستحَب من امرأة سليطة. هل هذا ما تحاولين قوله؟»

«إنه يتطلع بشغَف إلى مقابلتك. لا أستطيع أن أفهم السبب.»

«شكرًا لك. أستطيع أن أخبرك بالسبب. حتى يستطيع أن يشتكي لي ويخبرني كيف أنه يكره التمثيل ... وهو شريان حياته.»

«حتى لو كان مملًّا في نظركِ ...»

«لو! يا إلهي!»

«يمكنك بالتأكيد تحمُّله ساعةً أو نحو ذلك، بدلًا من استخدام حادث راوس ذريعةً.»

«هل تحاولين جعلي امرأةً صادقة يا لوسي بيم؟»

«هذه هي الفكرة العامة. أشعر بالأسف تجاهه، كونه يُترك وحيدًا ...»

قاطعتها لوكس، مشيرةً بإصبعها إلى لوسي مع كل كلمة: «سيدتي ... العزيزة، لا تشعري بالأسف أبدًا تجاه إدوارد أدريان. فالنساء تضيِّع أفضل سنوات حياتهن في الشعور بالأسف تجاهه، ويندمن على ذلك في النهاية. إنه أحد أكثر الأشخاص المنغمِسين في ملذَّاتهم والخادعين لذواتهم ...»

«لكنه سيُحضِر لنا نبيذ جوهانسبرجر.»

توقفت لوكس عن الكلام وابتسمت.

قالت وهي تفكر: «يمكنني تناول مشروب، حقًّا.»

ومشت خطوات قليلة.

ثم سألت: «هل حقًّا كان تيدي بائسًا؟»

«نعم.»

«حسنًا. لقد فُزتِ. لقد كنت قاسية. سأخرج. وفي كل مرة يكرر فيها قوله: «أوه، كاثرين، كم أنا متعَب من هذه الحياة المصطنعة»، سأقول في نفسي في استياء: الآنسة بيم هي مَن ورطتني في هذا الأمر.»

أجابت لوسي: «سأتحمل ذلك. هل عرف أحد أخبار راوس؟»

«اتصلَت الآنسة هودج بالمستشفى التوة. لا تزال فاقدة الوعي.»

لاحظت لوسي وجودَ هنرييتا عبر نافذة مكتبها — يُطلق عليه المكتب، ولكنه في الواقع غرفة الجلوس الصغيرة على يسار الباب الأمامي — فدخلت لتُهنِّئها على نجاح فترةِ ما بعد الظهيرة ومن ثَم تصرف انتباه هنرييتا، ولو فترةً وجيزة، عما كان يزعجها، وواصلت الآنسة لوكس السَّير. بدت هنرييتا سعيدة برؤية لوسي ولم تمانع في سماع الإطراءات نفسها التي كانت تتلقاها طوال فترة ما بعد الظهر، وبقيت لوسي معها تتحدثان بعض الوقت؛ وبحلول

الوقت الذي عادت فيه لوسي إلى مقعدها لمشاهدة الرقص، كانت الشُّرفة قد ازدحمت تقريبًا عن آخرها مرةً أخرى.

وعندما وجدت إدوارد أدريان جالسًا في أحد مقاعد الممر، توقفت وقالت له:

«كاثرين قادمة.»

فسأل وهو ينظر لأعلى: «وماذا عنكِ؟»

«لا، للأسف، سأصاب بالصداع النصفي بالضبط في السادسة والنصف.»

وعند سماعه هذا، صاح قائلًا: «آنسة بيم، أنا أعشقُك» وقَبَّل يدها.

بدا الشخص الجالس بجواره مندهشًا، وضحِك أحد الجالسين في الخلف، لكن لوسي استمتعت بتقبيل يدها. فما فائدة وضع ماء الورد والجلسرين كل ليلة على يديها إذا لم يُقبِّل أحدٌ يديك بين الحين والآخر؟

عادت إلى مقعدها في نهاية الصف الأمامي ولاحظت أن السيدة العجوز التي كانت تستخدم نظارة الأوبرا لم تنتظر الرقص؛ فقد كان كرسيُّها شاغرًا. ولكن، قبل أن تخفت الأضواء مباشرة — كان بالقاعة ستائر وإضاءة صناعية — ظهر ريك من الخلف وسأل لوسي: «إذا كنتِ لا تحجزين هذا المقعد لأحد، هل يمكنني الجلوس عليه؟»

وعندما استقر على المقعد، ظهرت أولى الراقصات على المسرح.

وبعد مشاهدة العرض الرابع أو الخامس، بدأ إحساس بخيبة الأمل يتسلل إلى قلب لوسي. فقد كانت معتادة مشاهدةَ عروض الباليه العالمية ذات المعايير الفنية العالية، ولم تأخذ في اعتبارها أن عروض الباليه هنا لن تكون سوى عروض للهواة. فحتى هذه اللحظة، كان أداء الطالبات في العروض التي شاهدتها استثنائيًّا؛ أداءً احترافيًّا بمعنى الكلمة. لكن كان واضحًا أنه من غير الممكن أن تبذل الطالبات الوقت والجهد في المواد الأخرى، كما فعلن، والوصول في الوقت نفسه إلى مستوًى عالٍ في الرقص. فالرقص يتطلب التفرغ الكامل.

كان الأداء جيدًا، لكنه افتقر إلى الإبداع. لقد كان في مستوى عروض الهواة أو أفضل قليلًا. وتضمَّن البرنامج حتى الآن رقصاتٍ وطنية وتاريخية تقليدية، تعتز بها جميع مدرِّبات الرقص، وقد أُدِّيت بإتقان شديد يدعو للثناء، ولكنه ليس جذَّابًا. ربما كانت ضرورة الاستمرار في التركيز على الروتين المُعَدَّل قد سلبت بعض العفوية من أدائهن. ولكن بوجه عام، اعتقدت لوسي أن التدريب والحالة المزاجية لم يكونا مناسبَين لتقديم أداء استثنائي حقًّا. كما بدا أن الجمهور يفتقر إلى الحماسة هو الآخر؛ فقد اختفت الحماسة التي أظهرها خلال أداء الجمباز. من الممكن أن يكونوا قد تناولوا الكثير من الشاي، أو

أن السينما قد عرَّضتهم، من خلال أفلامها، لمستوًى عالٍ من الأداء، وهو ما جعلهم أكثرَ انتقادًا عند تقييم العروض الحية. على أي حال، كان تصفيقهم مهذبًا وليس حماسيًّا.

أثار استعراض روسي حماسةَ المتفرجين فترة وجيزة، وانتظروا الفقرة التالية بشغف. انفتحت الستائر، لتكشف عن ديستيرو وهي واقفة بمفردها على المسرح. كانت ترفع ذراعيها فوق رأسها وخَصرها الممشوق في مواجهة الجمهور. كانت ترتدي زيًّا تقليديًّا من موطنها الأصلي، وقد جعلت الأضواء الألوان الزاهية والمجوهرات الغريبة تتلألأ، فبدت ديستيرو كطائر مبهج من غابات البرازيل. طرقت بقدميها الصغيرتين، اللتين تلبَس فيهما زوجين من الأحذية ذوي كعبٍ عالٍ، الأرضَ بسرعة تحت تنُّورتها الواسعة. ثم بدأت بالرقص؛ كانت ترقص ببطء في البداية، وبدت كأنها لا تهتم بالأمر، كما لو كانت تقضي بعض الوقت فحسب. ثم أصبح واضحًا أنها كانت تنتظر حبيبها، وأنه تأخَّر. يمكنك أن ترى بسرعة مدى أهمية هذا لها. وفي هذه اللحظة، كان المتفرجون يجلسون على حافة مقاعدهم. ففي الفراغ، أوحت ديستيرو للمتفرجين أن حبيبها قد ظهر بطريقة سحرية. واستطاع المتفرج أن يتخيَّل النظرةَ الحزينة على وجهه الأسمر. فتفاعلت معه كما لو كان أمامها. وفي هذه اللحظة، كان المتفرجون جالسين على حافة مقاعدهم. وبعد التفاعل معه، بدأت تُبرز جمالها أمامه؛ لكن ألم يدرك كم هو محظوظ بوجود فتاة مثلها في حياته؟ فتاة أنيقة تتمتَّع بجمال الخَصر، والعينين، والأرداف، والفم، والكاحلين؟ هل كان جاهلًا لدرجةِ أنه لا يرى كل هذا؟ لذلك، أبرزت جمالها أمامه؛ وذلك باستخدام حركات ذكية جلبت البسمة على وجوه جميع المتفرجين. نظرت لوسي إليهم؛ في غضون دقيقة، كانوا على وشْك التهليل من شدة الإعجاب. كان العرض مثل السِّحر. وعندما سمحت لحبيبها أخيرًا بالانضمام إليها، كان الجمهور تحت تأثير سِحرها تمامًا. وعندما غادرت المسرح مع ذلك الشاب الذي لا يزال غير مرئي، ولكنه خاضع بالتأكيد، هلَّل الحضور بحماسة، تمامًا مثل الأطفال في عرض «وايلد ويست» النهاري.

تذكَّرت لوسي، وهي تشاهد ديستيرو تُحيي الجمهور، كيف أن فطيرة المكسرات قد اختارت لايز؛ إذ إن «الالتحاق بمدارس الرقص التقليدية يتطلب موهبةً كبيرة.»

قالت لوسي بصوتٍ عالٍ: «كانت متواضعة جدًّا حين تحدَّثت عن قدراتها في الرقص. كان من الممكن أن تكون راقصة محترفة.»

قال ريك: «أنا سعيد أنها لم تفعل ذلك. فوجودها هنا جعلها تتعلم أن تحب الريف الإنجليزي. لو كانت تدرَّبت في المدينة، لكانت قابلت فقط أراذل القوم ممن لهم صلة بعالم الباليه العالمي.»

اعتقدت لوسي أنه ربما كان على حق.

عندما عاودت الطالبات المتفانيات الظهورَ على المسرح لأداء رقصاتهن مرةً أخرى، لم يكن الجمهور على الدرجة نفسها من الحماسة. أدَّت ستيوارت بخفة رقصةً ذات طابعٍ سلتيٍّ ممتع. ورقصت إينيس برشاقة وشغف شديدين؛ ولكن عندما ظهرت ديستيرو معهن على المسرح، انجذب انتباه الجميع إليها، ونسيت لوسي وجودَ إينيس والأخريات. كانت ديستيرو آسِرة.

وعندما انتهت الرقصة، حظِيت ديستيرو وحدَها بموجة كبيرة من التصفيق.

وشعرت الآنسة بيم ببعض الغَيرة عندما رأت النظرة على وجه ريك.

يبدو أن تقبيل اليد لم يكن كافيًا.

قالت لوسي للآنسة راج، وهما في طريقهما لتناول العشاء معًا بعد أن غادر الضيوف أخيرًا، وامتلأ الهواء بأصوات محركات السيارات وأصوات الضيوف والطالبات وهم يودِّعون بعضهم بعضًا: «لم يُخبرني أحد أن ديستيرو لديها مثل هذه القدرات في الرقص.»

قالت راج بنبرة غير متحمِّسة، متحدثة بصفتها تابعةً للسيدة لوفيفر عن فتاةٍ تعتبرها غارقةً في الخطيئة لأنها قرَّرت عدم الاشتراك في الألعاب الرياضية: «أوه، إنها الطالبة المفضَّلة لدى السيدة لوفيفر. أنا شخصيًّا أجد أن أداءها مُبالغ فيه إلى حدٍّ ما. إنها تبدو في غير مكانها المناسب هنا، لسببٍ ما. بصراحة، لم تعجبني رقصتها الأولى. ما رأيك؟»

أجابت لوسي: «لقد كانت رقصة رائعة.»

قالت الآنسة راج، باستسلام: «أوه، حسنًا»، وأضافت: «هي بالتأكيد جيدة، وإلا لم تكن السيدة لتُغرم بها.»

تناول الجميع وجبةَ العشاء في هدوء. فقد عمَّ شعور بالإرهاق، بعد أن انتهى اليوم المليء بالأحداث، وبدأ الجميع يتذكر الحادث الذي وقع في الصباح (الآن بعد أن أصبح لديهم الوقت للتفكير)، كان من شأن كل هذا أن يثبِّط معنويات الطالبات ويُسكت ألسنتَهن. وكانت عضوات هيئة التدريس أيضًا مرهقات بعد أحداث اليوم المليئة بالصدمات، والمجهودات، والتفاعل الاجتماعي، والقلق. رأت لوسي أن كأسًا من النبيذ الجيد ستكون رائعة، وشعرت بالندم عندما تذكَّرت أن لوكس كانت في هذه اللحظة تحتسي نبيذ جوهانسبرجر. وتسارعت نبضات قلبها عندما تذكَّرت أنه عليها في غضون دقائق أَخْذ الوردة الصغيرة إلى المكتب وإخبار هنرييتا بالمكان الذي وجدتها فيه.

لم تكن قد أخرجت الوردة بعدُ من الدُّرج الذي وضعتها فيه، وبعد العشاء، وهي في طريقها إلى الطابق العلوي للبحث عن الوردة، قابلت بو التي ربطت ذراعها بذراع لوسي، وقالت لها:

«آنسة بيم، نحن جميعًا نُخمِّر الكاكاو في الغرفة المشتركة. من فضلك تعالي وأسعدينا. أنت لا تريدين الجلوس في تلك الغرفة الكئيبة في الطابق العلوي» — تقصد على الأرجح غرفةَ المعيشة — «أليس كذلك؟ تعالي وأسعدينا.»

قالت لوسي، وهي تفكر في كرهها الشديد للكاكاو: «أنا شخصيًّا لا أشعر بالسعادة، لكن إذا كان باستطاعتكن تحمُّل كآبتي، فسوف أتحمَّل كآبتكن.»

وبينما كانتا تسيران نحو الغرفة المشتركة، هبَّت رياح عاتية فجأة عبْر الطرقة من خلال جميع النوافذ المفتوحة على مصراعيها، مما تسبَّب في اصطدام الفروع الخضراء للأشجار بالخارج بعضها ببعض وقلبِ الأوراق إلى أعلى، والكشف عن جوانبها السفلية. قالت لوسي: «يبدو أن الطقس الجميل قد انتهى»، وتوقَّفت للاستماع. لقد كانت تكره دائمًا تلك الرياح المضطربة والمدمِّرة التي تشير إلى نهاية الأوقات الجيدة.

أجابت بو: «نعم، الجو بارد جدًّا. لقد أشعلنا نارًا بالحطب.»

كانت الغرفة المشتركة جزءًا من «المبنى القديم» واحتوت على مِدفأة تقليدية من الطوب؛ وبدت الأجواء في الغرفة مبهجةً مع وجود المدفأة، ومع صوت طقطقة النار التي أُشعلت منذ قليل، وصوت الأطباق المستخدمة، والفساتين المتألقة للطالبات المتعبات، المنتشرات في أنحاء الغرفة، ونِعال حجرة النوم الزاهية أكثر. لم تكن أودونيل هي الوحيدة التي اختارت لُبس حذاء غير تقليدي الليلة؛ فقد لبِست جميع الفتيات تقريبًا أحذية غير رسمية من نوعٍ ما. في الواقع، كانت ديكرز مستلقية على الأريكة وأصابع قدمها العارية المضمَّدة مرفوعة في مستوًى أعلى من رأسها. فلوَّحت في سعادة بيدها للآنسة بيم وأشارت إلى قدميها.

قالت: «إرقاء!» وتابعت: «لقد نزفت قدماي في أفضل حذاء للباليه لديَّ. أعتقد أن لا أحد سيشتري حذاءً للباليه ملطخًا بالدماء قليلًا؟ لا، للأسف، لا.»

قالت بو: «يوجد كرسي بجانب المدفأة يا آنسة بيم»، وذهبت لتجهيز الكاكاو. وإينيس، التي كانت تجلس ملتفَّة بجوار المدفأة، وتشرف على إحدى طالبات السنوات الأولى التي كانت تلعب بالمنفاخ، ربَّتت على الكرسي ورحَّبت بجلوس لوسي عليه بأسلوبها الجاد المعهود.

قالت هاسيلت، وهي تدخل الغرفةَ ومعها طبق كبير من بقايا الطعام المتنوِّعة: «تمكَّنت من الحصول على مقادير الشاي المتبقية من الآنسة جوليف.»

سألتها الفتيات: «وكيف تمكَّنت من فعل ذلك؟» وأردفن: «فالآنسة جوليف لا تتخلى عن أي شيء، حتى لو كان رائحة.»

«لقد وعدتُها أن أرسل إليها بعضَ مربَّى الخوخ عندما أعود إلى جنوب أفريقيا. ومع أنه قد يبدو وكأنه طبق ممتلئ، لم يتبقَّ منه الكثير في الواقع. فقد تناولَت الخادمات معظمه بعد الشاي. مرحبًا يا آنسة بيم. ما رأيك في أدائنا الليلة؟»

أجابت لوسي: «كنتن رائعات.»

قالت بو: «كنا مثل رجال شرطة لندن. مثلما قلتِ يا هاسيلت.»

اعتذرت لوسي عن استخدام كلام تقليدي يفتقر إلى الحماسة وحاولت نقل حماستها من خلال تقديم المزيد من التفاصيل.

قالت الفتيات: «لقد سرقت ديستيرو الأضواء، أليس كذلك؟» ونظرن بغبطة وود إلى الفتاة الهادئة التي ترتدي ثيابها الملوَّنة وتجلس منتصبةَ القامة في الزاوية المريحة بجوار المدفأة.

«أمَّا أنا فأركِّز على القيام بشيء واحد فقط. فمن الأسهل التركيز على إتقان مهارة واحدة.»

لم تتمكَّن لوسي، مثل بقية الحاضرات، من تحديدِ ما إذا كانت ديستيرو أرادت بهذه الملحوظة البسيطة أن تُبدي تواضعًا أم أن تبدي انتقادًا. بوجه عام، اعتقدت لوسي أنها تبدي تواضعًا.

قالت إينيس لطالبة السنوات الأولى: «هذه تكفي يا مارتش، عظيم جدًّا»، وتحرَّكت لتأخذ منها المنفاخ. وعندما أخرجت قدمها، رأت لوسي أنها تلبَس حذاء أسودَ خفيفًا.

والحلية التي كان من المفترض أنها موجودة على اليسار، لم تَعُد موجودة.

قالت لوسي في أعماقها، أوه، لا. لا. لا.

«هذا كوبك يا آنسة بيم، وهذا كوبك يا إينيس. تناولي حلوى المعكرون غير الطازجة إلى حدٍّ ما يا آنسة بيم.»

«لا، سوف تأخذ الآنسة بيم بعضًا من كعك أيرشاير الطازج المعبأ في علبة. لا حاجة إلى أي مأكولات بائتة.»

استمرَّت الثرثرة حولها. وتناولت شيئًا من طبق. وردَّت على ما يقال لها. حتى إنها أخذت رشفة من الكأس.

أوه، لا. لا.

والآن بعد أن أصبح الدليل واضحًا أمام ناظريها — بعد أن تحقَّق ما كانت تخشاه بشدة؛ لدرجةِ أنها لم ترغب حتى أن تفكر فيه — الآن بعد أن أصبح الدليل أمامها، انتابها شعور بالخوف الشديد. لقد تحوَّل كل شيء فجأةً إلى كابوس مروِّع: الغرفة الصاخبة المفعمة بالحيوية، والسماء المظلمة بالخارج؛ حيث كانت العاصفة تتهيأ، والشيء المفقود. كان كابوسًا صار فيه شيء صغير وغير مهم شيئًا ذا أهمية كبرى. كابوس يجب عليها فيه التحرُّك على الفور، لكنها لا تعرف ماذا تفعل ولماذا.

وسرعان ما سيتعيَّن عليها أن تقف، وتودِّع الفتيات بأدب، وتذهب إلى هنرييتا لتقص عليها القصة، وأن تنهي كلامها بقولها: «وأنا أعرف من أي حذاء وقع هذا الشيء. من حذاء ماري إينيس.»

كانت إينيس تجلس بجانبها، لا تأكل، ولكن تشرب الكاكاو بسرعة. وكانت قد وضعت قدميها تحتها مرةً أخرى، لكن لوسي لم تكن بحاجة إلى التحقق مجددًا. حتى إن أملها البسيط في أن فتاةً أخرى ترتدي حذاء خفيفًا قد اختفى. فكان هناك العديد من أنواع الأحذية المختلفة في الغرفة، لكن لم يكن هناك زوجان آخران من الأحذية الخفيفة.

وعلى أي حال، لم يكن لدى أي شخص آخر سببٌ للوجود في صالة الألعاب الرياضية في الساعة السادسة هذا الصباح.

وسرعان ما قالت إينيس للوسي، وقد التفتت كي تنظر إليها: «خذي المزيد من الكاكاو.» لكن الآنسة بيم لم تشرب من الكوب الذي معها سوى القليل جدًّا.

قالت إينيس: «إذن يجب أن أحصل على المزيد»، ثم بدأت في النهوض.

دخلت الغرفة طالبة طويلة جدًّا ونحيفة من طالبات السنوات الأولى تُدعى فارثينج، ولكنها معروفة، حتى لهيئة التدريس، باسم توبينس-هابيني.

قالت إحدى الفتيات: «لقد تأخرتِ يا توبينس. تعالي وتناولي كعكة.» لكن فارثينج ظلت في مكانها، في حيرة.

سألت الفتيات: «ما الأمر يا توبينس؟» وهن في حيرة من تعبيرها المصدوم.

قالت ببطء: «ذهبت لوضع الزهور في غرفة فروكن.»

قالت إحدى الفتيات: «لا تخبرينا أنكِ وجدت بعض الزهور هناك بالفعل»؛ فضحك الجميع.

«سمعتُ عضوات هيئة التدريس يتحدثن عن راوس.»

«حسنًا، وكيف حالها؟ هل تحسنت؟»

«لقد ماتت.»

سقطت الكأس التي كانت تحملها إينيس من يدها وتحطَّمت على المدفأة. فذهبت إليها بو لالتقاط القِطع المتناثرة.

قالت الفتيات: «أوه، هذا هراء. لم تسمعي جيدًا يا توبينس.»

«لا، لقد سمعت جيدًا. كن يتحدثن على بسطة الدَّرج. لقد ماتت منذ نصف ساعة.»

وأعقب ذلك صمتٌ مروِّع.

كسرَ جدار الصمت صوتُ أودونيل المرتفع وهي تقول: «قمت بتثبيت الجزء الذي ناحية الجدار.»

قالت ستيوارت وهي ذاهبة إليها: «هذا صحيح بكل تأكيد يا دون. نحن جميعًا نعلم ذلك.»

وضعت لوسي كوبَها على الطاولة ورأت أنَّ عليها أن تصعد إلى الطابق العلوي. فتركتها الفتيات تذهب وهن يعبِّرن بصوتٍ منخفض عن أسفهن، وقد عمَّت الكآبة أجواء حفلهن السعيد.

وفي الطابق العلوي، وجدت لوسي أن الآنسة هودج ذهبت إلى المستشفى لمقابلة عائلة راوس عند وصولها، وأنها هي مَن اتصلت هاتفيًا للإبلاغ بالخبر. جاءت عائلة راوس، وتلقَّت الأخبار دون أي مشاعر على ما يبدو.

قالت السيدة لوفِيفْر وهي مستلقية على الأريكة الصلبة: «لم أحبَّها قط، فليسامحني الرب.» وبدا طلبها للمغفرة من الرب خالصًا.

قالت راج: «أوه، كلما عرفتها أكثر، وجدتها طيبة ولطيفة للغاية. وكانت أمهر لاعبة خط وسط. هذا أمرٌ مروِّع، أليس كذلك! الآن سيتحول الأمر إلى قضية، وستأتي الشرطة وتُفتح تحقيقات ودعاية رهيبة وكل شيء.»

نعم، الشرطة وكل شيء.

لن تستطيع لوسي فعل أي شيء بخصوص الوردة الصغيرة الليلة. وعلى أي حال، كانت تريد أن تفكر في الأمر.

كانت بحاجة إلى الجلوس بعضَ الوقت بمفردها للتفكير في الأمر.

الفصل العشرون

بونج! بونج! دقَّت الساعة أعلى برج الكنيسة البعيد مجددًا.

كانت الثانية صباحًا.

كانت مستلقيةً على فراشها، محدِّقة في الظلام، بينما كان المطر البارد يضرب الأرض بالخارج وتهب الرياح العاتية بين الفينة والفينة لتُحدِث فوضى، مما يتسبب في تحرك ستائرها إلى داخل الغرفة مثل الأشرعة. وكان كل شيء يُشعِر بعدم اليقين والفوضى.

ظل المطر يتساقط بإصرار، وبكى قلبها معه. واضطرب عقلها اضطرابًا أشدَّ من اضطراب الرياح.

لقد قال لها ريك: «افعلي الشيء الصحيح الواضح، ودعي الله يقرِّر النتيجة.» وبدت هذه نصيحة معقولة وقتها.

ولكنها كانت نصيحة معقولة عندما كان الأمر متعلقًا بوضعٍ افتراضي «تسبَّب في أذًى جسدي خطير» (كانت هذه هي العبارة، أليس كذلك؟) والآن لم يَعُد الأمر مجرد افتراض، ولم يَعُد مجرد أذًى جسدي. هذا ما آلت إليه الأمور.

لن يكون القدَر هو مَن يقرر النتيجة، بالرغم من كل الكلمات المطمئنة. إنما القانون الذي سيفعل ذلك. ذلك الكلام المسطور بالحبر في سجل القوانين. وبمجرد أن يُلجأ إليه، لن يستطيع بشَر أن يمنع الأذى عن العديد من الأبرياء الذين سيُسحقون تحت عجلاته حينما يصبح قيد التنفيذ.

أعلنت الشريعة الموسوية القديمة أن العين بالعين والسن بالسن. وبدا الأمر بسيطًا. وبدا عادلًا. إذ يمكن تخيُّله في سياقه الصحراوي، كما لو كان يضم فردين فقط. ولكن الأمر يصبح غايةً في الصعوبة إذا ما جرى التعبير عنه بالكلمات الحديثة؛ إذ إنه يعني أن «تُشنق من عنقك حتى الموت.»

لو ذهبت إلى هنريبيتا في …

لو؟

أوه، حسنًا، بالطبع سوف تذهب إليها.

عندما تذهب إلى هنريبيتا في الصباح، فإنها ستطلق العِنان لقوة لن يستطيع أحدٌ، بما في ذلك هي نفسها، التحكم فيها؛ قوة ستدمر حياة هذا، وذاك، وتلك، ممن كانوا يعيشون في سلام وتحوَّلت حياتهم إلى فوضى.

فكَّرت في السيدة إينيس، التي تنام بسلام في مكانٍ ما في لاربورو؛ وهي التي ستعود قريبًا إلى المنزل متوقعةً وصول ابنتها التي تعني لها الحياة. ولكن ابنتها لن تعود إلى المنزل … أبدًا.

ولن تعود راوس أيضًا، سمعت صوتًا بداخلها يقول هذا.

لا، بالطبع لا، ويجب على إينيس أن تدفع ثَمن ذلك بطريقةٍ ما. يجب ألا تستفيد من جريمتها. لكن بالتأكيد يجب أن تكون هناك طريقة لجعلها تدفع الثمن دون جعل الأبرياء يدفعون ثمنًا أعلى.

ما العدل؟

تحطيم قلب امرأة، إلحاق الأذى والعار بهنريبيتا، وتدمير كل ما بَنَته، إطفاء التوهج الداخلي لبو إلى الأبد، وهي التي لم تكن معتادةً على الحزن قط. هل هي حياة مقابل حياة؟ بهذا الشكل ستكون حياة واحدة مقابل ثلاث حَيَوات؛ لا، بل حياة واحدة مقابل أربع.

وهذه الحياة الواحدة لا تستحق …

أوه، لا. لن تستطيع أن تحكم على قيمة تلك الحياة. فكما قال ريك، على المرء «معرفة الماضي والمستقبل.» إن ريك، بمظهره المستهتر وسِحر العاشق اللاتيني، يمتلك عقلًا رصينًا.

في الغرفة المجاورة لغرفة لوسي، كانت إينيس تتحرَّك. فلم تنم إينيس هذه الليلة، على حدِّ علم لوسي. بدت إينيس هادئة للغاية، ولكن كانت تسمع صوت حركة أو صوت صنبور مياه في غرفتها بين الفينة والفينة. تساءلت لوسي عما إذا كانت إينيس تشرب الماء لإرواء عطشها، أو لتهدئة الصداع المؤلم. فإذا كانت لوسي نفسها لم تستطِع النوم، وكانت الأفكار تدور في رأسها مثل الفئران المحاصَرة، فما الذي تمرُّ به إينيس؟ ربما تفتقر إينيس إلى حِس الفكاهة وربما لم تكن تحب الناس، لكنها بالتأكيد لم تكن عديمة الإحساس. سواء كانت طموحاتها التي لم تتحقق أو الغضب الشديد والكراهية هو ما دفعها إلى صالة الألعاب الرياضية في ذلك الصباح الضبابي، فإنها لم تكن من النوع الذي يمكنه فعل ما فعلته دون

عقاب. ربما تكون قد أضرت بنفسها أكثر من أي شخص آخر عندما عبثت بالعارضة. ففي سجلات القضايا الجنائية، كانت هناك أمثلة لنساء كن بلا قلب لدرجة أنهن استطعن أن يعِشن حياتهن بعدما تخلصن من الشخص الذي كان يمثل عائقًا أمام رغباتهن. ولكن لم تكن ماري إينيس تنتمي إلى هذه الفئة. كانت إينيس تنتمي إلى الفئة الأخرى النادرة ممن يكتشفون بعد فوات الأوان أنهم لم يعودوا قادرين على تحمُّل أنفسهم. لقد دفعوا ثمنًا لا يمكن تحمُّله.

ربما تكون إينيس هي مَن تنفِّذ العقوبة في نفسها.

والآن أدركت لوسي أن هذا كان انطباعها الأول عن إينيس بعد ظهر أحد أيام الأحد تحت شجرة الأرز. فتاة لا تقبل الحلول الوسط. مدمِّرة لنفسها.

وكانت حقيقةُ أنها دمَّرت حياة مَن وقفت في طريقها أمرًا يكاد يكون عرضيًّا.

من المؤكد أن إينيس لم تقصد القتل قط؛ وكانت لوسي متأكدة تمامًا من ذلك. وهذا ما جعل فكرةَ إخبار هنرييتا برُمتها مثيرةً للاشمئزاز، وغير واردة. كان الهدف الوحيد لهذا الدبوس غير الآمن هو التسبب في انتكاسة مؤقتة. كان الهدف هو التأكد من أن راوس لن تذهب إلى أرلينجهيرست في سبتمبر، وأن إينيس هي التي ستذهب.

هل كانت إينيس، تساءلت لوسي في نفسها، تُخطِّط لذلك عندما رفضت وظيفة مستشفى ويتشرلي لتقويم العظام؟ لا، بالتأكيد لا. لم تكن من النوع الذي يخطِّط لمثل هذه الأشياء بدمٍ بارد. لا بد أنه كان عملًا يائسًا في اللحظة الأخيرة.

على الأقل، يبدو أنه قد أُنجز في اللحظة الأخيرة.

ربما كان الأمر يتعلق بعدم وجود فرصة لفعل ذلك في وقت سابق. ربما لم يكن الطريق إلى صالة الألعاب الرياضية خاليًا من قبل، أو ربما سبقتها راوس إلى الصالة.

لقد وصفها إدوارد أدريان في سعادة بأنها «من عائلة بورجيا».

وتذكَّرت جَدة تيريزا لأمها، التي كانت تشبهها. عاشت هذه الجَدة الأرملة حياةً طويلةً آمنةً وناجحةً؛ حيث كانت تدير الإرثَ وتربي ابنًا، دون أي علامات واضحة على الاكتئاب.

اندفعت الريح فجأة إلى الغرفة، مما تسبَّب في اهتزاز نافذة إينيس. فسمعت لوسي إينيس تتحرك نحو النافذة، وبعد لحظة توقف صوت النافذة.

تمنَّت لوسي أن تذهب إلى غرفة إينيس الآن، في هذه اللحظة بالذات، وأن تُظهر لها البطاقة التي كانت تحملها، ولكنها لم ترغب في اللعب. إذ يمكنهما إيجاد حلٍّ معًا.

معًا؟ مع الفتاة التي عبثت بالدبوس تحت ذراع العارضة؟

لا. مع الفتاة التي تحدَّثت معها في الطرقة بعد ظهر يوم السبت الماضي، الفتاة التي كانت تنبض بالحياة والكرامة والحكمة. مع الفتاة التي لم تستطِع النوم الليلة. مع الابنة العزيزة على والدتها.

بغض النظر عما فعلته إينيس، حتى لو خطَّطت له، فقد كانت النتيجة شيئًا لم تنوِه ولم تتوقَّعه. لقد كانت النتيجة كارثية بالنسبة لها.

ومَن المسئول عن هذه الكارثة في المقام الأول؟

هنرييتا. هنرييتا هي المسئولة بسبب محاباتها العنيدة للفتاة المفضلة لديها، الأقل مهارة.

تساءلت عما إذا كانت هنرييتا لا تستطيع النوم مثل إينيس. فقد عادت هنرييتا من غرب لاربورو وقد بدا عليها أنها فقدت الكثيرَ من وزنها وتقدَّمت في السن. كما لو أن الهيكل الذي كان يدعمها قد انهار وتحرَّكت الحشوة التي بداخله. كانت تشبه لعبة محشوة بطريقة سيئة بعد تركِها شهرًا في حضانة أطفال. هكذا بدت هنرييتا.

شعرت لوسي بالأسف الشديد تجاه صديقتِها، التي أصبحت الآن محرومةً من شخص كانت … تحبه؟ نعم، تحبه، كما افترضت لوسي. فالحب وحدَه هو الذي يمكن أن يفسِّر سببَ عدم رؤية هنرييتا عيوب راوس. وقد أصبحت هنرييتا الآن محرومة من راوس وتشعر بقلقٍ بالغ على كليتها العزيزة لايز. لقد تأثَّرت لوسي بشدة بمعاناة هنرييتا. ومع ذلك، لم تستطِع التخلص من فكرة أنه لولا تصرفات هنرييتا لما حدث أيٌّ من هذا.

كان السبب الرئيسي هو ضعف إينيس، لكن هنرييتا ضغطت على الزر الذي أدى إلى حدوث المأساة بأكملها.

والآن وجدت لوسي نفسها تنتظر الضغط على زر آخر، زر من شأنه أن ينشِّط آلاتٍ أكثرَ وحشية. هذه الآلة من شأنها أن توقع وتشوه وتدمر كلًّا من الأبرياء والمذنبين. فإذا كان ثمة احتمال أن هنرييتا جلبت العقاب على نفسها، فما الذي فعلته عائلة إينيس لتستحق هذا الرعب؟ هذا الرعب الذي لا يمكن وصفه بالكلمات؟

أم إن عائلة إينيس قد لعبت دورًا في هذا؟ هل أسهمت طريقتُهم في تربية إينيس في عدم قدرتها على التعامل مع التحديات؟ ربما وُلدت إينيس بمزاج معيَّن جعلها أقلَّ مرونة، فهل حاولت عائلتها تكييفها مع هذه الصفة؟ هل يمكن لأحد تحديد أين تكمُن الأسباب الجذرية لهذا؟

وربما، في النهاية، كان القدَر هو الذي قرَّر النتيجة، التي سينفذها القانون. فلو كنت مسيحيًّا لصدَّقت هذا من دون تفكير. كنت ستؤمن أن كلَّ ما حدث كان له سبب. وأن كل

مَن سيتأثر بمحاكمة إينيس بتهمة القتل يستحق هذه المعاناة بطريقة أو بأخرى. إنها نظرية معقولة ومريحة، وتمنَّت لوسي أن تؤمن بها. لكنها وجدت صعوبةً في تصديق أن أي خطأ ارتكبه آباء مسئولون، ومحبون مثل أبوي إينيس، يجعلهما يستحقان مثل هذه المأساة الرهيبة.

أو ربما …

جلست لتتأمل هذه الفكرة الجديدة.

إذا كان القدَر قد دبَّر الأحداث — كما فعل على الأرجح في النهاية — فربما كانت خطته قيد التنفيذ بالفعل. بدأ الأمر عندما عثرت لوسي على الوردة الصغيرة وليس شخصًا آخر. فلم يُعثَر عليها من قِبل شخص قوي الإرادة يذهب من فوره إلى هنرييتا إذا اشتبه في حدوث جريمةٍ ما، ومن ثَم تبدأ العملية القانونية. لا. لقد عُثر عليها من قِبل شخص غير حاسم مثل لوسي، التي كانت لا ترى دائمًا أقل من ثلاثة جوانب لأي مسألة. ربما كان ذلك منطقيًّا.

لكنها تمنَّت بشدة لو أن الله اختار شخصًا آخر لهذه المهمة. فلوسي دائمًا ما تكره المسئولية، وشعرت بأن هذه مسئولية ضخمة هي غير مستعدة لها على الإطلاق. وتمنَّت أن تتمكن من رمي الوردة الصغيرة من النافذة والتظاهر بأنها لم ترَها قط. لكنها بالطبع لم تستطِع فِعل ذلك. فعلى الرغم من طبيعتها الجبانة والمفتقرة للكفاءة، كان هناك دائمًا جانبها الآخر — جانب لاتيتيا — الذي كان يراقبها بعيون ناقدة. ولم تستطِع قط التخلُّص من ذلك الجزء الآخر من نفسها. لقد دفعها ذلك إلى مواقفَ كانت فيها خائفة، وجعلها تتحدَّث عندما تريد أن تظل صامتة، ومنعها من الراحة عندما كانت مرهقة للغاية بحيث لا تستطيع الوقوف. والآن سيمنعها من التخلي عن هذه المسئولية.

نهضت لوسي من فراشها ونظرت من النافذة تشاهد الليل الممطر العاصف الصاخب. كانت مياه الأمطار تتراكم على الأرضية الخشبية بجوار النافذة. كان الشعور بالمياه الباردة على قدميها العاريتين مريحًا، لقد كان شعورًا جسديًّا بعدم الارتياح مفهومًا لديها. على الأقل لم يكن عليها تنظيف الأرضية أو القلق بشأن السجادة. ففي هذا المكان، تدخُل قوى الطبيعة بحرِّية، ويَعتبر الجميع هذه الأمور مسلَّمًا بها. فقد وصفت إينيس في مرة من المرات القليلة التي تحدثت فيها كم كان جميلًا أن تستيقظ ذات صباح وتجد وسادتها مغطَّاة بالثلج. وقالت إن ذلك حدث مرة واحدة فقط، ولكن يمكنك دائمًا معرفة الموسم من خلال ما تجده على وسادتك في الصباح: العناكب في الخريف، وبذور الجميز في يونيو.

لقد أمضت الكثير من الوقت في تبريد رأسها المحموم لدرجةِ أن قدميها أصبحتا باردتين، واحتاجت إلى تغطيتهما بسُترة لتدفئتهما عندما عادت إلى فراشها. اعتقدت أنه يمكن تلخيص الأمر كله في العبارة التالية: أقدام باردة وذهن مشوش. أنتِ بائسة يا لوسي بيم.

حوالي الساعة الثالثة صباحًا، عندما بدأت تشعر بالنعاس أخيرًا، استيقظت فجأةً بسببِ ما جال بخاطرها أن تفعله. لقد كانت تفكر جِديًّا في إخفاء الدليل الخاص بالجريمة الخطيرة. وهو ما يجعلها شريكة في الجريمة. أيْ مجرمة.

لوسي بيم المحترمة التي تلتزم بالقانون.

كيف وصلت إلى هذه المرحلة؟ ما الذي كانت تفكر فيه؟

بالطبع لم يكن لها رأي في هذا على الإطلاق. لم تكن مشكلتها مَن الذي يدبِّر الأحداث ومَن الذي لا يدبِّر. فهذا الحادث يحتاج إلى التحقيق، ولديها واجب عليها القيام به. مسئولية تجاه المجتمع والحكومة وتجاه نفسها. لم تكن مشاعرها الخاصة مهمة. وكذلك أفكارها حول ما هو عادل وما هو غير عادل. وحتى لو كان القانون غير عادل وخاطئًا، فإنها لا تستطيع إخفاء الدليل.

كيف بحقِّ السماء فكَّرت في فعل شيء كهذا؟

كان ريك محقًّا: عليها أن تفعل الشيء الصحيح الواضح، وتترك القدَر يقرِّر النتيجة.

وحوالي الساعة الرابعة والنصف، نامت أخيرًا.

الفصل الحادي والعشرون

كانت الأجواء ضبابيةً ورطبة في الصباح، وكانت لوسي تشعر بالقلق تجاه ذلك. وفي تمام الساعة الخامسة والنصف، دقَّ جرس الاستيقاظ كالعادة، مع أنه لا توجد محاضرات قبل الإفطار في اليوم التالي للعرض. قد تُجري الكلية بعض التعديلات، لكنها لا تتخلى عن الروتين الخاص بها كليًّا. حاولت لوسي النوم مجددًا، لكن ظهرت الحقيقة مع ضوء النهار، وما كانت تُمعن فيه في الظلام أصبح الآن حقيقة. وفي غضون ساعة أو ساعتين، ستفعل شيئًا يغيِّر حياة أشخاص، لم تكن تعرف وجودهم أصلًا. وبدأ قلبها ينبض بشدة من جديد.

أوه، يا إلهي، لماذا أتيت إلى هذا المكان من الأساس!

بعد انتهائها من ارتداء ملابسها، وبينما كانت تضع بعض دبابيس الشعر الخفية في أماكنها المناسبة، أدركت أنه لا يمكنها الذهاب إلى هنرييتا والتحدُّث بشأن الوردة دون أن تلتقي بإينيس أولًا. وكانت غير متأكدة ما إذا كان ذلك نتيجةَ تصوُّر طفولي لـ «اللعب العادل»، أم أنها تحاول فقط التقليل من مسئولياتها الشخصية.

سارعت إلى باب غرفة إينيس قبل أن يتلاشى الدافع وطرقت الباب. كانت قد سمِعت إينيس عائدةً من الحمَّام وأيقنت أنها حتمًا من أنها ارتدَت ملابسها.

وعندما فتحت إينيس الباب، بدت متعَبة، وكانت تظهر على عينها علامات التعب، ومع ذلك، كانت هادئة ومتزنة. والآن بعد أن أصبحت في مواجهة إينيس، وجدت صعوبةً في مقارنتها بإينيس التي ظهرت وسط أفكارها المشوَّشة الليلة الماضية.

سألتها: «هل تمانعين في الدخول إلى غرفتي للحظة؟».

تردَّدت إينيس، وبدت للحظة أنها لا تريد الدخول، ثم استعادت ثباتها. وقالت: «نعم بالطبع»؛ واتَّبعت لوسي.

وقالت بابتهاج: «يا لها من ليلة ممطرة.»

كان من غير المألوف أن تُعلِّق إينيس على الطقس. وكان من غير المألوف أكثرَ أن تبدوَ مبتهجة.

أخرجت لوسي الوردة الفضية الصغيرة من درجها ووضعتها على راحة يدها، لتعرضها على إينيس.

وسألت: «أتعرفين ما هذا؟»

في لمح البصر، اختفى الابتهاج من وجهِ إينيس وحلَّ محلَّه الجمود والحذَر.

قالت إينيس بحدَّة: «من أين حصلت عليها؟».

عندها فقط أدركت لوسي في أعماقها، كيف كانت تعتمد على أن يكون ردُّ فعل إينيس مختلفًا. وكيف توقَّعت على مستوى اللاوعي أن تقول إينيس: «يبدو أنه جزء قد انخلع من حذاء الرقص؛ هذا شيء عادي.» وبعدها توقَّف قلب لوسي عن الخفقان بشدة وأصبحت متوترة.

قالت لوسي: «لقد وجدته في أرضية صالة الألعاب الرياضية في وقتٍ مبكر جدًّا من صباح أمس.»

وأخذ التحفُّظ يتحول تدريجيًّا إلى يأس.

قالت إينيس بخفوت: «ولماذا تريني إياه؟».

«لأنني أعرف أنه لا يوجد سوى زوج واحد من تلك الأحذية القديمة في الكلية.»

فعمَّ الصمت. ووضعت لوسي ذلك الشيء الصغير على الطاولة وانتظرت.

وسألت أخيرًا: «هل أنا مخطئة؟».

«لا.»

وساد الصمت مجددًا.

انطلقت قائلة: «أنتِ لا تفهمين يا آنسة بيم، أنا لم أقصد أن يصل الأمر إلى ... أعلم أنكِ ستظنين أنني أحاول فقط إعطاء تفسير للموقف، لكني لم أقصد قط أن يصل الأمر إلى ... إلى ما وصل إليه. كنت غاضبةً من فقدان فرصة العمل في أرلينجهيرست ... كدت أفقد صوابي فترةً بسبب ذلك ... وتصرَّفت مثل الحمقاء. لم أفكِّر في أي شيء في الحياة سوى أرلينجهيرست. وما فعلتُه كان مجرد وسيلةٍ من أجل ... من أجل إتاحة فرصة ثانية لي. لم أقصد أن يتجاوز الأمر هذا الحدَّ. عليكِ أن تصدِّقي ذلك. عليكِ أن ...»

«بالطبع أنا أصدِّقك. فلو لم أكن أصدِّقك لما شاركتك معرفتي بوجود هذه.» وأشارت إلى الوردة.

وبعد لحظة قالت إينيس: «ماذا ستفعلين؟»

قالت المسكينة لوسي التي أصبحت الآن بلا حول بعد أن صارت في مواجهة الحقيقة: «أوه، يا إلهي، لا أعلم.» فجميع الجرائم التي عرفتها كانت قصصًا بوليسية مكتوبة بإتقان، تظهر في نهايتها براءةُ البطلة، التي كان يُشكُّ في أمرها، أو جرائم في قضايا حُلت بالفعل وأُغلقت، ولم تكن سوى موضوع للخبراء لفحصه عن كثَب. كان لدى الأشخاص في تلك القضايا أصدقاء وعائلة أصيبوا بالصدمة التي كانت تشعر بها الآن، لكن معرفة ذلك لم تجعلها تشعر بالتحسُّن أو يساعدها في معرفةِ ما يجب فعله. اعتقدت أن هذه الأحداث تقع فقط لأشخاص آخرين — ربما كل يوم إذا كنت تصدِّق ما تقرؤه في الأخبار — لكنها لم تعتقد قط أن تجد نفسها في مثل هذه المواقف.

فكيف يمكن للمرء أن يصدِّق أن شخصًا ما ضحك وتحدَّث معه، وأحبه وأُعجب به، وشاركه الحياةَ الجماعية، يمكن أن يكون مسئولًا عن موت شخص آخر؟

ووجدت نفسها تخبر إينيس عن ليلتها التي لم تنَمها، ونظرياتها حول «تدبُّر الأمور» وعن إحجامها عن تدمير ستة أرواح بسبب جريمة شخص واحد. فكانت منغمسة في مشكلتها الخاصة لدرجةِ أنها لم تلحظ بصيصَ الأمل في عيون إينيس. كان ذلك فقط عندما سمِعت نفسها تقول: «بالطبع لا يمكن السماح لكِ بالاستفادة من موت راوس»، فأدركت أنها قد قطعت مسافةً طويلةً في الطريق الذي لم يكن لديها نية أن تسلكه.

لكن إينيس انتهزت الفرصة. وقالت: «أوه، لكنني لن أقوم بهذا العمل يا آنسة بيم، وهذا ليس له علاقة بإيجادك للحلية الصغيرة. علمتُ الليلة الماضية عندما سمِعت أنها ماتت أنني لا أستطيع الذهاب إلى أرلينجهيرست. كنت سأخبر الآنسة هودج هذا الصباح. كما أنني لم أستطِع النوم الليلة الماضية. فقد كان هناك الكثير يدور برأسي. ليس فقط مسئوليتي عن موت راوس ... عدم قدرتي على قبول الهزيمة وتحمُّلها. ولكن ... أوه، حسنًا، هناك الكثير من الأشياء التي لا تهمك.» وبعدها توقَّفت برهةً مزهوَّة تنظر إلى لوسي. وتابعت: «انظري يا آنسة بيم، إذا كنت سأقضي بقيةَ حياتي في التكفير عما حدث صباح الأمس، هل ستوافقين على ... توافقين على ...» ولكنها لم تتمكن من إيجاد الكلمات التي تتفوَّه بها بمثل هذا الاقتراح الجريء، حتى بعد ما قالته لوسي عن العدالة.

«أصبح شريكة في التستُّر على الجريمة؟»

فثبَّط هذا المصطلح القانوني القاسي عزيمةَ إينيس.

«لا. أعتقد أنه من الصعب أن أنتظر من أحد أن يفعل هذا. لكنني سأكفِّر عما فعلت. لن أفعل ذلك بفتور. ستكون حياتي مقابل حياتها. سأفعل ذلك بكل سرور.»

«أنا أصدِّقك بالطبع. ولكن كيف تنوين التكفير عن الأمر؟»

«فكَّرت في ذلك الليلة الماضية. بدأت بمستعمرات الجذام وأشياء من هذا القبيل، لكنها غير واقعية إلى حدٍّ ما وليس لها علاقة بدراستي في لايز. لدي فكرة أفضل. لقد قرَّرت أن أعمل مع والدي. لم أكن أخطِّط لعمل طبي من قبل، لكني أجيد ذلك ولا توجد عيادة لتقويم العظام في بلدتنا.»

قالت لوسي: «يبدو الأمر رائعًا، ولكن أين التكفير عن الخطيئة؟»

«كان طموحي الوحيد منذ أن كنت طفلة صغيرة هو الابتعاد عن العيش في مدينة صغيرة تقام فيها الأسواق؛ فالقدوم إلى لايز كان جواز سفري إلى الحرية.»

«فهمت.»

«صدِّقيني يا آنسة بيم، سأكفِّر بذلك عن ذنبي. لكنه لن يكون تكفيرًا لا معنَى له. لن يكون مجرد جلد للذات. سأفعل شيئًا مفيدًا في حياتي، شيئًا من شأنه أن ... يجعل حياتي ذات قيمة.»

«حسنًا، فهمت.»

ساد صمت طويل آخر.

رنَّ الجرس خمس دقائق، وكانت تلك المرةَ الأولى التي لم تنتبه فيها لوسي إلى صوت الأجراس منذ وصولها إلى لايز.

«بالطبع ليس لديكِ سوى وعد مني ...»

«وأنا أقبَل وعدَك.»

«شكرًا لكِ.»

بدا للوسي هذا الحل مريحًا للغاية. فإذا كان على إينيس أن تُعاقَب على ما فعلت، فإن عيش حياة مملة وهادفة لا يبدو أنه انتقام كبير بما يكفي. بالطبع، فقدَت وظيفة أرلينجهيرست؛ وهذا سيكلفها شيئًا. ولكن هل يمكن حقًّا أن يعوِّض عن فقد حياة إنسانة؟

فما الذي سيكون ثمنًا للموت؟ إلا الموت بحد ذاته.

وكانت إينيس تقدِّم ما اعتبرته بوضوحٍ حياةً أشبه بالموت. ربما في النهاية لم يكن هذا الحل سيئًا.

ما واجهته لوسي، هو حقيقة أن كل أفكارها وتأمُّلاتها ومقارنة حججها تصبح في هذه اللحظة قضيةً واحدة وبسيطة: هل ستحكم بالإعدام على الفتاة التي كانت تقف أمامها؟

فالأمر بسيط في النهاية. إذا أخذت تلك الوردة الصغيرة إلى هنرييتا في هذا الصباح، ستموت إينيس قبل عودة الطالبات إلى لايز في بداية السنة الدراسية في الخريف. وإذا لم تَمُت، فستقضي عَقد العشرينيات من عمرها في حياةٍ أشبه بالموت وبلا أي معنًى.

دعها تقضي سنواتها في السجن الذي تختاره؛ حيث يمكن أن تكون مفيدة لغيرها.

وبالتأكيد، كانت لوسي بيم، غير قادرة تمامًا على إدانتها.

هذا كلُّ ما هنالك.

قالت لإينيس ببطء: «أنا بين يديك؛ لأنني غير قادرة تمامًا على إرسال أي شخص إلى حبل المشنقة. أعرف ما هو واجبي الواضح ولا يمكنني القيام به.» وكانت تعتقد أنه من الغريب أن تحترم هي إينيس بدلًا من أن تحترمها إينيس.

حدَّقت إينيس في لوسي متشككة.

«أتقصدين ...» وأخرجت لسانها وحرَّكته على شفتيها الجافتين. وأردفت: «هل تعنين أنكِ لن تخبري أحدًا عن الوردة؟»

«لا. لن أخبر أحدًا.»

فابيضَّ وجه إينيس فجأة.

ابيض وجهها لدرجةٍ أن لوسي أدركت أن هذه ظاهرة قرأت عنها، ولكنها لم ترَها من قبل. فهم يقولون: «شيء أبيض كالملاءة.» حسنًا، كان يعتريها شحوبٌ، وإن لم يكن شحوبًا تامًّا.

مدَّت إينيس يدها إلى الكرسي بجوار منضدة الزينة وجلست فجأة. وعندما رأت أن لوسي تشعر بالقلق قالت: «كل شيء على ما يرام، لن أفقد الوعي. لن يُغمى عليَّ. فأنا لم يُغمَ عليَّ قط طوال حياتي. سأكون بخير في غضون دقيقة.»

لوسي، التي كانت مستاءة من تماسك إينيس واستعدادها للتفاوض — اعتقدت أن إينيس كانت واضحة تمامًا فيما يتعلق بهذا الأمر — شعرت فجأة بتأنيب الضمير. فلم تكن إينيس متماسكة. إنه فقط الموقف المألوف الذي يكبح فيه أحدهم جماح عواطفه فتنتقم منه حين تتاح لها الفرصة.

قالت لوسي: «هل ترغبين في شرب الماء؟» وهي تذهب إلى الحوض.

«لا، شكرًا لكِ، أنا بخير. كلُّ ما هنالك أنني كنت خائفة جدًّا خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية، ورؤية ذلك الشيء الفضي في يدك كان القشةَ الأخيرة، ثم انتهى الأمر فجأة؛ فقد أعطيتني الفرصة بالحصول على بعض الراحة و... و...»

وخرجت تنهُّدات من حلقها واختفت الكلمات. وأخذت تبكي بكاء عنيفًا دون دموع. ووضعت يديها على فمها لمنع البكاء، لكنها انفجرت في البكاء وغطَّت وجهها وأخذت تحاول استعادةَ هدوئها. لكن دون جدوى. فوضعت رأسَها بين ذراعيها على المكتب، وبكت بكاءً هيستيريًّا.

وفكَّرت لوسي، وهي تنظر إليها، قائلة في نفسها إن أي فتاة أخرى كانت ستبدأ بالبكاء. من أجل أن تستخدمه سلاحًا لجلبِ تعاطفي. لكن ليس إينيس. فقد جاءت إينيس وهي متماسكة ومتحفِّظة وواضحة. فلو لم تنهَر، لما علِم أحد أنها تتألم. فبكاؤها الآن يُظهِر مدى معاناتها من قبل.

سُمع صوت الجرس المنخفض هادئًا في البداية ثم تعالى صوته.

سمِعت إينيس ذلك وواجهت صعوبةً في الوقوف على قدميها. وقالت: «بعد إذنك، سأذهب وأرشُّ بعض الماء البارد على نفسي. هذا من أجل أن يتوقف البكاء.»

وجدت لوسي أنه من غير المعتاد أن تتمكَّن فتاة، كانت تبكي بحرارة لدرجةِ أنها لا تستطيع الكلام، من تقديم نصيحة لنفسها بهذه الطريقة الهادئة؛ بدا الأمر كما لو كانت تتعامل مع شخص آخر مختلف عن الشخص الذي كان يبكي بصوتٍ عالٍ أمام لوسي.

قالت لوسي: «حسنًا، افعلي ذلك.»

توقَّفت إينيس ويدها على مقبض الباب.

وقالت: «في يومٍ ما سأكون قادرة على شكرك بطريقة تليق بكِ» ثم اختفت.

وضعت لوسي الوردة الفضية الصغيرة في جيبها وذهبت لتناول الإفطار.

الفصل الثاني والعشرون

كانت عطلة نهاية أسبوع مروِّعة.

كان المطر يهطل بغزارة. وبدت هنرييتا وكأنه كان لديها عملية كبيرة ولم تنجح. وكانت السيدة في أسوأ حالاتها ولم تكن مفيدة على الإطلاق، سواء عمليًّا أو بالكلام. وكانت فروكن غاضبة من وقوع مثل هذا الحدث في صالة الألعاب الرياضية «الخاصة بها». وكانت راج موجودة في كل مكان تفعل كما فعلت كاساندرا ابنة بريام ملك طروادة وتنشر الأخبار الحزينة. أما لوكس، فقد كانت هادئة ومتعَبة.

عادت لوكس من لاربورو حاملةً شمعة وردية صغيرة ملفوفة في مناديلَ ورقية خضراء شاحبة. قالت: «طلب مني تيدي أن أعطيكِ هذه. لا أفهم لماذا.»

«أوه؟ أهي من كعكة؟»

«نعم. إنه عيد ميلادي.»

«لطيف منه أن يتذكر هذا.»

«أوه، إنه يحتفظ بمذكرة يُدوِّن فيها أعياد الميلاد. ذاك جزء من شعبيته. ومن ضمن مهام السكرتيرة إرسال البرقيات إلى جميع الأشخاص في أعياد ميلادهم.»

سألت لوسي: «ألا تعترفين بمميزاته أبدًا؟»

«تيدي؟ في حقيقة الأمر لا. لا تنسَي أنني أعرفه منذ أن كان في العاشرة من عمره. إنه لا يستطيع خداعي أكثر من خمس ثوانٍ.»

قالت لوسي: «ذات مرة قال لي مصفِّف شعري، الذي يشارك معي خبراته أثناء تصفيف شعري، إنه ينبغي على المرء أن يقبَل لكل شخص ثلاثةَ عيوب فقط. وإن قبِلتِ تلك العيوب الثلاثة، فستجدين أن بقية الصفات الموجودة في الشخص رائعة بدرجةٍ لا تُصدَّق.»

«عندما تتأملين عيوبَ تيدي الثلاثة، لا تبقى أي مزايا للأسف.»

«لماذا؟»

«لأن عيوبه الثلاثة هي الغرور، والأنانية، والشفقة على الذات. وأيُّ عيب منها مدمِّر تمامًا.»

قالت لوسي: «يا للعجب!» وتابعت: «أنا أستسلم.»

ولكنها وضعت الشمعة الصغيرة السخيفة على منضدة التَّزيُّن الخاصة بها، وانتابها شعور طيب تجاه إدوارد أدريان.

تمنَّت أن يكتنفها الشعور الطيب نفسه تجاه حبيبتها بو، التي كانت تصعِّب الأمورَ قدْر طاقتها، بسبب غضبها من إينيس التي تخلَّت عن وظيفة أرلينجهيرست. في الواقع، أدركت لوسي أن علاقتهما قد وصلت تقريبًا إلى نقطة الخلاف، التي كانت قريبة قدْر الإمكان بالنظر إلى مدى قربهما.

قالت بو، التي كانت تنطلق شرارات الغضب من عينيها: «إنها تقول إنها لن تكون سعيدة عندما تحصل على الفرصة التي كانت مخصَّصة لفتاة متوفاة. هل يمكنك تخيُّل شيء أكثر سخافة؟ ترفض وظيفة أرلينجهيرست وكأنه كوب من الشاي. ترفضها بعد أن كانت على حافة الموت من الحزن عندما لم تحصل عليها في البداية. بحق السماء يا آنسة بيم، تحدَّثي معها كي تعود إلى رشدها قبل فوات الأوان. نحن لا نتحدث عن أرلينجهيرست فحسب، بل نتحدث عن مستقبلها بالكامل. فالعمل في أرلينجهيرست في بداية مشوارها المهني يعني البدء من القمة. سوف تتحدثين معها، أليس كذلك؟ حاولي أن تجعليها تتخلى عن هذا التفكير السخيف!»

وبدا للوسي أنه دائمًا ما يُطلب منها «التحدُّث إلى» الناس. فهي نفسها وإن لم تكن جرعةً من شراب مهدئ، فإنها جرعة من الأدرينالين، وعندما لا تكون جرعة من الأدرينالين، فإنها تصبح مجرد ملعقة صغيرة من مسحوق قلوي للاستهلاك العام.

تصبح كذلك عندما لا تلعبُ دورَ الملاك الذي ينزل من السماء ليغيِّر مجرى الأحداث؛ ملاك يُقوِّض العدالة. لكنها حاولت ألا تفكر في ذلك الأمر.

ولم يكن لديها أيُّ شيء يمكنها قوله لإينيس بالطبع، ولكن هناك أشخاص آخرون قد تحدثوا معها. وحاولت معها الآنسة هودج فترة طويلة بإخلاص؛ وهي مصدومة من تغيُّر رأي الفتاة التي لم تكن ترغب في تعيينها في البداية. والآن لم يعُد لديها أحد يمكن إرساله إلى أرلينجهيرست؛ وعليها أن تكتب لهم وتخبرهم بذلك وترى الوظيفة تذهب إلى شخص آخر. ربما عندما يتسرَّب خبر الحادث المميت في المجتمع الأكاديمي، ستقرر أرلينجهيرست

البحث عن لاعبة جمباز في أماكنَ أخرى مستقبلًا عندما تحتاج إلى تعيين واحدة. فلا ينبغي أن تكون هناك حوادث في صالات الجمباز التي تُدار على نحو جيد؛ على الأقل الحوادث غير المميتة.

كانت هذه أيضًا وجهة نظر الشرطة. فقد كان رجال الشرطة متعاونين ومتفهِّمين للغاية. وكانوا على استعداد تام للنظر في الضرر الذي ستسببه الدعاية غير المرغوب فيها للكلية. لكن كان لا بد من إجراء تحقيقات بالطبع. والتحقيقات عادةً ما تكون معلنة بأسلوب قد يضر بالكلية، وتكون عرضةً للتأويل الخاطئ. كان محامي هنرييتا قد قابل الصحفيين المحليين ووعدوه بالتقليل من هول الحادث، ولكن مَن يستطيع التنبؤ متى ما يجذب مقالٌ صحفي انتباهَ محرر مساعد يبحث عن خبر جديد؟ وماذا سيحدث بعد ذلك؟

أرادت لوسي أن ترحل قبل إجراء التحقيقات، لتبتعد عن التذكير الدائم بذنبها في نظر القانون، لكن هنرييتا توسَّلت إليها بالبقاء. ولم تكن قادرة مطلقًا على التفوُّه بلفظِ «لا» لهنرييتا، وكانت هنرييتا التي تقدَّمت في العمر المثيرة للشفقة، شخصًا لا يمكن رفض طلبه. لذلك بقيت لوسي؛ وكانت تقوم بأعمالٍ متنوعة لهنرييتا كي تتيح لها فرصة القيام بالأعمال الإضافية المتعلقة بالحادث.

لكنها لن تذهب إلى التحقيقات.

فلا يمكنها الجلوس هناك وهي تعلم كل هذه المعلومات من دون أن تضعُف في وقتٍ ما وتقف لتقول الحقيقة وتخلي نفسها من المسئولية.

ومَن يدري أي شكوك قد تساور رجال الشرطة؟ لقد جاءوا إلى لايز وفحصوا صالةَ الألعاب الرياضية، وقاموا بأخذ القياسات، وحسبوا وزن العارضة، واستجوبوا الجميع، واستشاروا الخبراء المتخصِّصين، واستمعوا ولم يتفوَّهوا ببنت شَفة. وأخذوا الدبوس غير الآمن كليًّا؛ قد يكون هذا مجرد إجراء روتيني، ولكن مَن يدري؟ مَن يعرف أي شبهات موجودة في صدورهم الهادئة العريضة ووراء وجوههم الدمِثة الخالية من التعبير؟

ولكن في النهاية ظهر مُنقذ في التحقيقات. منقذ اسمه آرثر ميدلهام، وهو مستورِد للشاي، ويعيش في منزل رقم ٥٩ طريق غرب لاربورو، أي إنه يقيم في إحدى الفيلات على الطريق السريع بين غرب لاربورو وبوابات لايز. لم يكن السيد ميدلهام يعرف شيئًا عن الكلية سوى أنها موجودة في تلك المنطقة، وأن الشابات اللاتي يخففن من الملابس ويتجولن في المنطقة على الدراجات ينتمين إليها. ولكنه سمِع عن الحادث. وما أدهشه هو أن دبوسًا في صالة الألعاب الرياضية في لايز قد انحرف من مكانه في نفس الصباح، وعلى ما يبدو أنه انحرف في نفس الوقت تقريبًا الذي اهتز فيه لوح من الزجاج من نافذة

غرفة المعيشة الخاصة به بسبب مرور مجموعة من الدبابات الآتية من المصانع في جنوب لاربورو. وكانت نظريته في الواقع، هي نفس نظرية الآنسة لوكس؛ وهي الاهتزاز. إلا أن نظرية الآنسة لوكس كانت تخمينًا عشوائيًّا لا قيمة له. أما نظرية السيد ميدلهام فكانت معقولة ومدعومة بدليل ثلاثي الأبعاد: لوح زجاج مكسور.

وكالعادة، عندما يُعطى شخصٌ ما زمام المبادرة، يتبعه بعض التابعين دون مبرر. (فإذا اختلق شخصٌ ما قصة وكتب للصحافة بأنه شاهد أسدًا أخضر في السماء في تمام الساعة ٥:٣٠ من مساء اليوم السابق، فعلى الأقل ستة أشخاص سيدَّعون أنهم شاهدوه أيضًا.) وها قد نهضت امرأة متحمسة من وسط الحشد في القاعة، بعد أن سمعت دليلَ السيد ميدلهام، وقالت إن جَرة الزنجبيل الخاصة بها التي كانت تحتفظ بها منذ سنوات سقطت من فوق الطاولة الصغيرة بجانب النافذة من تلقاء نفسها في الوقت نفسه.

وسألها محقِّق الوفيَات، عندما أخرجها من الحشد مستدِلًّا بها: «أين تعيشين يا سيدتي؟»

قالت إنها تعيش في الأكواخ التي تقع بين لايز وبيدلينجتون. على الطريق الرئيسي! أوه، نعم، على مقربة من الطريق الرئيسي؛ في الصيف، يكون الغبار مزعجًا للغاية، وعندما مرَّت هذه الدبابات ... لا، ليس لديها قطة. لا، لم يكن هناك أحد في الغرفة. لقد دخلتُ للتو بعد الإفطار ووجدتها ملقاة على الأرض. ولم يحدث هذا من قبل.

أدلَت المسكينة أودونيل، التي كانت متوترة للغاية ولكن واضحة وحازمة، بشهادتها أنها ثبتت طرَف العارضة الذي بجانب الحائط، وأن راوس ثبَّتت الطرَف الأوسط. وكلمة «ثبَّتت» تعني أنها رفعت العارضة بواسطة حبل البكرة وأدخلت الدبوس تحتها لتثبيتها. كما ثُبتت على وضع معيَّن بواسطة الحبل، ولُف الطرف العلوي منه حول خطَّاف على العمود. لا، لم يُختبَر الجهاز قبل المغادرة.

وعند سؤال الآنسة فروكن عن الحبل الذي لم يَثبُت أنه بديل للدبوس، قالت إنه لم يُلف بإحكام بما فيه الكفاية لمنعه من الانثناء عند إزالة الدبوس. لقد كان لف الحبل حول الخطاف حركةً تلقائية، ولم تفكِّر أي طالبة بأنه إجراء احترازي. لكنه في الواقع، كان إجراءً احترازيًّا. فقد ينكسر المعدن بالدبوس نتيجةَ عيبٍ ما، وفي هذه الحالة يتحمل الحبل الوزن. نعم، من الممكن أن يمتد الحبل، الذي لا يتحمل أكثر من وزن العارضة، وقد تمدَّد تحت الإضافة المفاجئة لعبءٍ وزنه ٦٣ كيلوجرامًا، ولكنها لا تعتقد هذا. وتلك الِحبال في صالة الألعاب الرياضية آمنة وتخضع لاختبارات مكثفة. ومن المرجَّح أن اللفة التي لفَّتها الآنسة راوس كانت غير كافية.

ويبدو أن هذا كل شيء. كان حادثًا مؤسفًا. فالدبوس الذي استحوذت عليه الشرطة استخدمه الجميع خلال العرض، وهذا لا يمثل دليلًا على أي شيء.

من الواضح أن الوفاة بسبب حادث عرَضي.

في الواقع، هذه هي النهاية، فقد أخذت لوسي تفكر عندما سمعت الخبر. لقد انتظرت في غرفة الجلوس، تتطلع إلى الحديقة الممطِرة، غير قادرة على تصديق أن خطأً ما لن يحدث. فلا تحدث جريمة أبدًا دون وقوع هفوةٍ ما؛ فقد قرأت الكثير من قصص الجرائم وعرفت ذلك.

لقد كانت هناك هفوة واحدة بالفعل، وهي عندما انفصلت تلك الحلية الصغيرة من الحذاء. مَن كان يعلم ما الذي يمكن أن تكتشفه الشرطة أيضًا؟ والآن انتهى الأمر، وإينيس بأمان. عرفت الآن أنها من أجل إينيس قد وضعت نفسها تحت طائلة القانون. وظنَّت أنها قد فعلت كلَّ هذا من أجل والدة إينيس، ومن أجل هنرييتا، ومن أجل إقامة العدالة المطلقة. ولكن في النهاية، كلُّ ما فعلته إينيس لا يجعلها تستحق العقاب الذي سيُلحقه بها القانون. لقد مرَّت بالكثير، وكانت قدرتها على التعامل مع التوتر أقلَّ من المعتاد. احتاجت إلى شيء قوي ومتين لمساعدتها على تحمُّل الضغط دون أن تنكسر. لكنها كانت ذات قيمة كبيرة بحيث لا يمكن إقصاؤها.

لاحظت لوسي بوَلَع نوعَ التصفيق الذي استقبل إينيس عندما صعِدت لتستلم شهادتها صباح يوم الأربعاء. كان التصفيق لطالبات السنة النهائية متنوعًا، ليس فقط في حرارة التصفيق، ولكن في نوعه. فقد كان هناك ضحِك، على سبيل المثال، ومودة في الترحيب الذي قدمنه لديكرز. وحظيت بو بتحيةٍ تليق برائدة الطالبات؛ وتهنئة زميلاتها الأصغر لطالبة السنة النهائية الشهيرة. ولكن كان هناك شيء لافت في التصفيق الذي حظيت به إينيس؛ فكان يحتوي على دفء، وإعجاب، وتعاطف، وأمنيات طيبة، لم تُمنح لأي شخص آخر. تساءلت لوسي في نفسها عما إذا كان السبب في ذلك هو تأثُّرهم لعدم قبول إينيس وظيفة أرلينجهيرست. فقد قالت هنرييتا، خلال تلك المحادثة حول راوس وطريقتها في أداء الامتحانات، إن إينيس لم تكن تحظى بشعبية. ولكن كان هناك شيء في هذه البهجة أكثرَ من مجرد الشعبية. لقد أعجبوا بها. وقد كانت تلك طريقتهم في إظهار التقدير لتميُّزها.

كان حفل توزيع الشهادات، الذي تأجَّل من الثلاثاء إلى الأربعاء بسبب التحقيق، هو الحدث الأخير الذي تشهده لوسي في لايز. فقد خطَّطت أن تستقل قطار الساعة الثانية عشرة إلى لندن. وخلال الأيام القليلة الماضية، تأثَّرت لوسي لتلقِّيها عددًا لا حصر له من

الهدايا الصغيرة في غرفتها، كلٌّ منها مصحوب برسالة خطية. فقد كانت تقريبًا في كل مرة تعود فيها إلى الغرفة تجد هديةً جديدة بانتظارها. فلم تتلقَّ لوسي العديد من الهدايا من الناس مع تقدُّمها في العمر، لكنها ما تزال تشعر بفرحة طفولية عندما يقدِّم لها شخصٌ ما هدية، مهما كانت بسيطة. وقد أثلجت هذه الهدايا صدرها؛ لأنها قُدمت لها دون أي تخطيط أو تنظيم؛ لقد أعطتها كل فتاة ما خَطَر ببالها. وأعطتها القرينات الأربع بطاقةً بيضاء كبيرة مكتوبًا عليها:

تسمح هذه البطاقة
للآنسة لوسي بيم بالدخول
إلى عيادة القرينات الأربع في مانشستر
وتلقِّي أيِّ نوع من العلاج في أي وقت
أيًّا كان نوعه
وفي أي وقت.

ولقد أعطتها ديكرز طردًا صغيرًا غير مرتَّب، مكتوبًا عليه: «لتذكيرك كل صباح باجتماعنا الأول!» وقد اتضح عند فتح هذه الطرد أن به لوفةً مسطحة تُستخدم في تنظيف الظهر. شعرت لوسي وكأنها كانت في حياةٍ أخرى عندما وقفت ديكرز على باب الحمَّام تتطلع إليها بوجه مُهر جميل. فلم تكن بالتأكيد لوسي التي كانت في حوض الاستحمام هي نفسها لوسي الآن.

كما صنعت الآنسة موريس المخلِصة لها محفظةً صغيرة من اللبَّاد — ولا أحد يعلم متى وجدت تلك الفتاة وقتًا لصُنعها — وعلى الجانب الآخر من حيث العظمة، كانت حقيبة بو المصنوعة من جلد الخنزير، مكتوبًا عليها رسالة تقول: «ستحتاجين إلى حقيبة لوضع كل هدايا الوداع التي ستتلقينها»، وكان مطبوعًا عليها الأحرف الأولى من اسمها. وحتى جيدي، الذي قضت معه أنصاف ساعات متفرقة يتحدثان عن الروماتيزم والفئران، أرسل لها نبتة في وعاء. ولم تكن تعرف ما نوع هذه النبتة — فقد بدت سميكة وطرية وغريبة — ولكنها اطمأنَّت لأن النبتة كانت صغيرة الحجم. فالسفر بنبتة في وعاء ليس بالأمر المناسب في رأيها.

وجاءت بو بعد تناول وجبة الإفطار وقبل حفل تسليم الشهادات لمساعدتها في تجهيز أمتعتها، ولكنها كانت قد انتهت بالفعل من تجهيز معظم الأمتعة. أما مسألة حسم كل شيء بمجرد جمع كل الأدلة الصحيحة فتلك كانت مسألة أخرى.

قالت بو: «سأعود وأجلس عليها بالنيابة عنك قبل عيادة الصباح. فليس لدينا ما نفعله حتى ذلك الحين. فباستثناء العيادة، ليس هناك الكثير لنفعله حتى نعود إلى المنزل يوم الجمعة.»

«سوف تشعرين بالأسف لأنك ستُنهين دراستك في لايز؟»

«بشدة. لقد قضيت وقتًا رائعًا. ولكن العطلات الصيفية تُعد عزاءً كبيرًا.»

«قالت لي إينيس منذ فترة إنكما ستذهبان إلى النرويج معًا.»

قالت بو: «نعم، كنا سنذهب. ولكننا الآن لن نذهب.»

«أوه.»

«لدى إينيس خططٌ أخرى.»

كان من الواضح أن هذه العلاقة لم تكن كما كانت عليه من قبل.

قالت بو: «حسنًا، سأذهب وأتأكد من أن طالبات السنوات الأولى لم يجلسن في المقاعد المميزة في حفل توزيع الشهادات»، ومضت.

ولكنَّ علاقةً واحدة هي التي أظهرت تقدمًا مَرْضيًّا.

طرقت فطيرة المكسرات على بابها وقالت إنها جاءت لتقدِّم تميمة للآنسة بيم العزيزة. دخلت الغرفة ونظرت إلى الحقائب التي جُهزت، ثم قالت بصراحتها المعتادة: «أنتِ لا تجيدين حزم الأمتعة، أليس كذلك؟ أنا أيضًا لست بارعة. إنها مهارة روتينية.»

انتظرت لوسي، التي قُدمت لها تمائم متنوعة في الأيام الأخيرة، مثل قردٍ على عصًا مصنوع من الصوف، ونصف بِنس من جنوب أفريقيا، بفضولٍ لتعرفَ التميمةَ التي قدَّمتها لها فطيرة المكسرات.

لقد كانت خرزة زرقاء.

«عُثر عليها في أمريكا الوسطى قبل ١٠٠ عام، وهي قديمة قِدَم العالم تقريبًا. إنها تجلب الحظ.»

احتجَّت لوسي قائلة: «ولكنني لا أستطيع أن آخذها منكِ.»

«أوه، لديَّ سوار صغير من ذلك الخرز. كان ذلك السوار هو الذي اكتُشف. وقد أخرجت لكِ واحدة من الخرزات. هناك خمسٌ متبقية، وهذا يكفي. ولديَّ خبر لك. لن أعود إلى البرازيل.»

«حقًّا؟»

«سأبقى في إنجلترا وأتزوج ريك.»

قالت لوسي إنها سعيدة لسماع ذلك.

«ستتزوج في لندن في أكتوبر، وستكونين هناك وستحضرين الزفاف، أليس كذلك؟»

بلى، ستحضر لوسي الزفاف بكل سرور.

قالت لوسي: «أنا سعيدة جدًّا بذلك.» كانت بحاجة لشيء من السعادة بعد أحداث الأيام القليلة الماضية.

«نعم، كل شيء يسير على ما يُرام. نحن أبناء عمومة، ولكننا لسنا قريبَين جدًّا، من الجيد الزواج من شخص من العائلة. كنت دائمًا أتمنى أن أتزوج من رجل إنجليزي؛ ولكن ريك زوج مناسب بالطبع. هو يكبُرني سنًّا مع أنه ما زال شابًّا. إن والديَّ سعيدان للغاية. وجَدتي أيضًا سعيدة بالطبع.»

سألت لوسي: «وأعتقد أنك سعيدة بهذا؟» وقد شعرت بالدهشة قليلًا من هذه القائمة العملية.

«أوه، نعم. فريك هو الشخص الوحيد في العالم، باستثناء جَدتي، الذي يمكنه جعلي أقوم بأشياء لا أريد القيام بها. سيكون ذلك الأمر مناسبًا جدًّا لي.»

ونظرت إلى وجه لوسي الذي تعتريه الشكوك، ولمعت عيناها الكبيرتان.

وقالت: «وبالطبع أنا أحبه حبًّا شديدًا.»

بعد تقديم الشهادات، تناوَلَت لوسي قهوة الصباح مع عضوات هيئة التدريس وودَّعتهن. ونظرًا لأنها كانت تغادر في منتصف الصباح، لم يتسنَّ لأحد أن يصطحبها إلى المحطة. وشكرتها هنرييتا، بدموع ظاهرة في عينيها هذه المرة، على المساعدة التي قدَّمتها لها. (ولكن في أبعد تخيُّلاتها، لن تستطيع هنرييتا أن تتخيل مقدارَ المساعدة التي تلقَّتها منها)، وقالت للوسي إنها تعتبر لايز بيتَها الذي يمكنها القدوم إليه والإقامة فيه وقتما تشاء، أو إذا رغبت في وظيفة محاضر مرةً أخرى، أو إذا ... أو إذا ...

وكان يتعيَّن على لوسي أن تخفي حقيقةَ أن لايز، حيث كانت سعيدة جدًّا، هي المكان الوحيد في العالم الذي لن تعود إليه أبدًا. إنه المكان الذي تودُّ محوه من ذاكرتها، إن سمح لها ضميرها وذكرى راوس بذلك.

ذهبت عضوات هيئة التدريس إلى أعمالهن المختلفة وعادت لوسي إلى غرفتها للانتهاء من تجهيز الأمتعة. لم تتحدث إلى إينيس منذ تلك المحادثة الصعبة صباح يوم السبت؛ بالكاد رأتها، في تلك اللحظة التي حصلت فيها على شهادتها من الآنسة هودج.

هل ستتركها إينيس تذهب دون أن تتفوه بأي كلمة؟

ولكنها حين عادت إلى غرفتها وجدت الكلمة على طاولتها. كلمة على هيئة رسالة. ففتحت الظرف وقرأت:

عزيزتي الآنسة بيم

إليك هذا الكلام كتابةً. طوال ما تبقى من حياتي، سأكفر عن ذلك الشيء الذي لا يمكنني التراجع عنه. سأدفع الثمن بسرور ألا وهو حياتي مقابل حياتها.

آسفة لأن هذا الحادث أفسد عليك إقامتك في لايز. وآمُل ألا تكوني غير راضية عما فعلتِه لأجلي. وأعِدك بأنني سأجعل الأمر يستحق ما قدمتِه.

ربما، بعد ١٠ سنوات من اليوم، ستأتين إلى غرب البلاد وترين ما حققتُه في حياتي. سيعطيني ذلك تاريخًا أتطلع إليه. حدثًا بارزًا في عالمٍ يفتقر إلى الأحداث البارزة.

خالص تحياتي لكِ الآن ودومًا، وخالص امتناني؛ خالص امتناني الذي لا يمكن أن أعبِّر عنه بالكلمات.

ماري إينيس

طرقت بو الباب وهي تسأل: «في أي وقت طلبتِ سيارة الأجرة.»

«في الساعة الحادية عشرة والنصف.»

«إنها الحادية عشرة والنصف تقريبًا الآن. هل وضعتِ كل شيء في حقائبك؟ زجاجة الماء الساخن؟ لم يكن لديك واحدة. هل المظلة بالأسفل؟ ليس لديك واحدة. ماذا ستفعلين؟ تنتظرين في الداخل حتى يتوقف المطر، أم تسرقين أقربَ واحدة؟ كانت لديَّ عمَّة تشتري دائمًا أرخص مظلة يمكنها العثور عليها وتتخلص منها في أقرب سلة مهملات عندما يتوقف المطر. كانت مربيتي تقول إنها تنفق المال بإسراف. حسنًا، الآن. هل انتهينا؟ فكِّري جيدًا؛ لأنه بإغلاق تلك الحقائب لن نتمكَّن من فتحها مرةً أخرى.» لم يتبقَّ شيء في الأدراج؟ غالبًا ما يترك الناس الأشياء منسيةً في الجزء الخلفي من الأدراج. وفتحت الأدراج الصغيرة للطاولة ووضعت يديها في الجزء الخلفي منها. «نصف حالات الطلاق في نصف الكرة الغربي تبدأ بسبب الكشف عن الأمور التي تكون مستتِرة.»

وسحبت يدَها اليمنى، ورأت لوسي أنها تحمل الوردة الفضية الصغيرة؛ الوردة التي تركتها لوسي في الجزء الخلفي من الدُّرج؛ لأنها لم تكن قادرة على اتخاذ قرار بشأنِ ما يجب أن تفعله بها.

بدأت بو تقلِّبها بأصابعها.

قالت: «يبدو كأن الزرَّ الصغير قد انخلع من حذائي.»

«من حذائك أنتِ؟»

«نعم، الحذاء الأسود الخفيف الذي ألبَسه في دروس الرقص. لقد احتفظتُ به لأنه مريح جدًّا حينما تكون قدماي متعَبَتين. مثل القفازات. لا يزال بإمكاني لُبس الأحذية التي كنت ألبَسها عندما كنت في الرابعة عشرة. فعندما كنت صغيرة، كانت قدماي أكبر بكثير من الأطفال الآخرين في عمري، وصدقيني لم أجد عزاء في إخبار الناس لي أنني سأصبح طويلة القامة.» ومن ثَم عاد انتباهها إلى الشيء الذي كانت تحمله. وقالت: «إذن هذا هو المكان الذي فقدتُه فيه. أتعلمين أنني كنت أتساءل كثيرًا عن ذلك.» ووضعتها في جيبها. «يجب عليكِ أن تجلسي على هذه الحقيبة، تجلسين أنت على الحقيبة وسأحاول أنا إغلاق الأقفال.»

فجلست لوسي عليها تلقائيًّا.

وتساءلت في نفسها لماذا لم تلاحظ من قبلُ مدى قسوة تلك العيون الزرقاء. فهي لامعة وقاسية وقليلة العمق.

وبينما كانت بو تحاول إغلاق الأقفال، سقط بعض من خصلات شعرها اللامع على ركبتَي لوسي. بالطبع ستذعن الأقفال لرغبتها. فكلُّ شيء وكل شخص، منذ يوم ولادتها، يذعن لرغباتها. وإذا لم يفعل، فستُقدِم على أفعالٍ تجعله يتراجع. تذكَّرت لوسي أنها في سن الرابعة هزمت عالَم البالغين بأكمله؛ لأن إرادتها بأن تسير الأمور وفقًا لما تريد كانت أكبر من جميع الإرادات ضدها مجتمعة.

فهي لم تكن تعرف الإحباط قط.

لم يكن بمقدورها أن تتخيل أنها تتعرض للإحباط.

إذا كان لصديقتها الحق الواضح في وظيفة أرلينجهيرست، إذن فستذهب إلى أرلينجهيرست.

«ها قد انتهيت. كوني مستعدة للجلوس على الحقيبة الأخرى إذا لم أتمكَّن من إغلاقها. لقد لاحظتُ أن جيدي أعطاكِ إحدى نَبتاته الصغيرة القبيحة. سيتسبب ذلك في إزعاجك. ربما يمكنك في يومٍ من الأيام الاستعاضة عنها بمزهرية عند الباب الخلفي.»

تساءلت لوسي: متى بدأت إينيس تشتبه في الأمر؟ على الفور تقريبًا؟ بالتأكيد كان قبل فترةٍ ما بعد الظهر، عندما شحَب وجه إينيس في المكان الذي وقع فيه الحادث.

لكنها لم تكن متأكدة حتى رأت الوردة الفضية على كف لوسي، وعرفت أين عُثر عليها.

مسكينة إينيس. هذه المسكينة هي التي تدفع الثمن.

صاح صوتٌ في الممر: «تاكسي!»

«لقد حضرت سيارة الأجرة. سآخذُ أمتعتك. لا، إنها خفيفة للغاية؛ لا تنسَي التدريب الذي خضته. أتمنى ألا تذهبي يا آنسة بيم. سنشتاق إليك كثيرًا.»

وجدت لوسي نفسها تقول العبارات المتوقَّعة. حتى إنها وجدت نفسها تَعِد بو بأنها قد تزورهم خلال عطلة عيد الميلاد، عندما تعود بو إلى المنزل خلال إجازتها الأولى بعد تولِّي مهامَّ عملها الجديد.

أدخلتها بو في سيارة الأجرة وودَّعتها بحنان، وقالت للسائق: «محطة القطار»، وانطلقت سيارة الأجرة، وظهرت ابتسامة وجه بو للحظة من خلف النافذة، وسرعان ما اختفت.

دفع السائق اللوحَ الزجاجي للخلف وسألها: «قطار لندن يا سيدتي؟» فأجابته لوسي نعم.

وستمكث في لندن. فلها هناك حياتها الخاصة، والآمنة، والجميلة، والهادئة، والمستقرة، وبالتأكيد في المستقبل ستكون سعيدة بهذا القرار. كما أنها ستتوقف عن إلقاء المحاضرات في علم النفس.

فماذا كانت تعرف عن علم النفس على أي حال؟

فمع أنها عالِمة نفس، كانت معلِّمة لغة فرنسية ممتازة.

يمكنها تأليف كتاب عن كيفية الكشف عن شخصية أحدهم من خلال ملامح وجهه. فعلى الأقل، كانت على حق بشأن ذلك. معظم الوقت.

الحواجب التي أدَّت إلى اتهام الناس ومعاقبتهم.

نعم، ستؤلف كتابًا عن قراءة الوجوه.

تحت اسم مُستعار بالطبع. فقراءة الوجوه غير مُعترف بها من قِبَل المثقفين.


هنداوي